

الدكتور إسماعيل عباس

# العرب في صقلية

دراسة في التاريخ والأدب

دار الثقافة

بيروت - لبنان

# العرب في صقلية

دراسة في التاريخ والأدب



الدكتور إحسان عبيد

# العرب في صقلية

دراسة في التاريخ والأدب

دار الثقافة  
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ١٩٧٥

## مقدمة في هذه الدراسة ومصادرها

كان أُملي حين بدأت هذه الدراسة أن تكون تاريخاً لحياة الشعر العربي في صقلية . ولكنني وجدت أن دراسة الشعر لا يمكن أن تتم دون تعمق في فهم تاريخ صقلية من نواحيه السياسية والاجتماعية والثقافية . ولذلك قدمت البحث في هذه الجوانب على البحث في الشعر ، متعمداً الاستقصاء والاستكثار من الحقائق ، بانياً الموضوع بالتدرّج دون تحليل كثير أو مقارنات ومقاييس . إذ لا بد في البدء من تكوين صورة وافية لصقلية الإسلامية في ناحيتي التاريخ والأدب قبل القيام بالقياس والمقارنة والتحليل .

وكان مما أعانني في دراسة النواحي التاريخية حضور مادتها في مجموعتين هما المكتبة الصقلية التي جمعها ميشيل أماري من المطبوع والمخطوط ، وكتاب العيد المئوي لميلاد ميشيل أماري Centenario Della nascita di M. Amari وهو يتم عمل ذلك المؤرخ الكبير بمختارات لم يكن قد عثر عليها . وقد كان أماري ذا أثر كبير في توضيح الناحية التاريخية بتحقيقاته واستنتاجاته وآرائه التي ضمنها كتابه الضخم « تاريخ مسلمي صقلية » Storia Dei Musulmani Di Sicilia فهو عمدة كل باحث في هذه الناحية ، لما وهب مؤلفه من دقة وضبط ونزاهة ، ولأنه بلغ الغاية في الإحاطة بأطراف الموضوع ، حين اعتمد على المصادر العربية واللاتينية واليونانية والوثائق والنقوش وعلى ما كتبه جماعة تناولوا نواحي الموضوع قبله . والطبعة التي اعتمدها من كتابه هي الثانية وقد أشرف عليها الأستاذ نلليو وزودها بتعليقات هامة ، ومن تعليقاته تلك أفدت الكثير .

أما الشعر فقد عاجله أماري أيضاً في تاريخه ، ولكن حديثه لا يعدو التعريف بالشاعر وترجمة شيء من شعره ، ومعتمده في ذلك الجريدة للعماد الأصهباني في أكثر الأحيان . وقد قسم الشعر إلى موضوعات كالغزل والهجاء

«اختار لكل موضوع خير من يمثله من الشعراء الصقليين . وتحدث البارون فون شاك عن الشعر الصقلي في كتابه :

*Poesi und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien*

وفي المجلد الثاني من هذا الكتاب فصلان عن صقلية أحدهما للشعر والثاني للفن ، وأولهما مصدر بمقدمة في الشعر الصقلي ثم بتراجم الشعراء الصقليين وترجمة شيء من أشعارهم .

وقد أفدت مما كتبه هذان المستشرقان الجليلان عن الشعر فائدة جزئية ، وجعلت همى في استقصاء مادة الشعر من المخطوطات والمطبوعات وجمعت منه قدراً صالحاً يصلح للدرس .

وتبين لى أن المصدر الأول للشعر الصقليّ هو « الدرة الخطيرة من شعر شعراء الجزيرة » لابن القطاع ( - ٥١٥ هـ ) . غير أن هذا الكتاب لا يزال في طيّ الخفاء والموجود منه مختصرات ونقول . أما المختصرات فهي الآتية :

( ١ ) مختصر من الكتاب المتخل من الدرة الخطيرة في شعر ( شعراء ) الجزيرة تأليف أبي القاسم علي بن جعفر بن علي التيمي السعدى رحمه الله ، اختيار الشيخ أبي إسحاق بن أغلب رحمه الله ، ذكر فيه سبعة وستين شاعراً من شعراء جزيرة صقلية . وهذا الكتاب في المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية ( رقم ٢٢١٦ تاريخ ) وهو فصلة من مخطوط بمكتبة باريس ( رقم ٣٤١٨ ) لأن أولى ورقاته تبدأ بالرقم ٩٦ وتنتهى بالورقة ١١٠ . وأول ترجمة فيه للأمير أبي القاسم عبد الله بن سليمان الكلبي ، ثم لأميرين من أمراء الكلبيين ، وليس هنالك ما يشير إلى ترتيب معين اتبعه صاحب المختصر ، أو صاحب الأصل ، وربما كان ابتداءه بالبيت الكلبي إشارة إلى أن هذا هو الترتيب الذى سار عليه ابن القطاع نفسه .

ولست أعرف شيئاً عن الشيخ أبي إسحاق بن أغلب صاحب المختصر ولا عن العصر الذى عاش فيه .

وهذا المختصر ناقص فليس فيه أسماء سبعة وستين شاعراً كما جاء في المقدمة

فعدد من ذكروا فيه ثلاثة وأربعون، وبعد الورقة ١٠٦ يظهر نقص واضح يدل على سقوط بعض الترجمات . كما أن نهاية المختصر ليست فيما يبدو نهاية طبيعية وربما كان في هذا الموضع نقص آخر . وعلى هامش المختصر كتاب يضم منتخبات من الشعر بينها أشعار وأسماء صقلية ولا نستطيع أن نفرض أن هذه الأسماء التي على الهامش من أصل المختصر نفسه أوجدت أسماء من غير صقلية فيما بينها ، بل إننا لو فرضناها من الأصل لما بلغ عدد الشعراء الموجودين فيه سبعة وستين ، فنقص المختصر لا يزال واقعاً .

وقد عمل أبو إسحاق في اختصاره شيئين :

- ١ - حذف مقدمة الترجمة في أغلب الأحيان واكتفى بإيراد الشعر
- ٢ - أسقط أسماء كثير من الشعراء فلم يورد إلا سبعة وستين من مائة وسبعين شاعراً كانوا في الأصل .

وليس له في اختياره منهج واضح وإن أكثر من الاختيار للفقهاء وأهل العربية . ولم يذكر ابن حمديس إما استغناء عن ذلك بشهرته ، وأما لأن ابن القطاع لم يذكره في شعراء صقلية ، والثاني هو الأرجح .

( ب ) الحريدة الجزء الحادى عشر رقم ( ٤٤٥٩ أدب ) بدار الكتب المصرية من الورقة الأولى إلى الحادية والخمسين والمأخوذ من الحريدة في هذه الأوراق يشمل ٢١ - ٥١ . وفي مواضع أخرى من هذا الجزء ترجمات صقلية أضيفت استدراكاً ( انظر الورقة ١١٧ - ١١٨ ، ١٤٣ ، ١٣٧ ) . والأولى من هذه التراجم مأخوذة من الدرة الخطيرة .

وقد بدأ العماد اختياره بترجمة ابن القطاع صاحب الدرة مع أن المختصر ذكره قبل آخر اثنين فيه . وتمتاز قطعة الحريدة عن غيرها بأنها حفلت بمجموعة ضخمة من شعر صقلية ، ولم يكن العماد في اختياره متعجلاً كما أنه لم يحفل كثيراً بأشعار النحويين وأهل اللغة والفقهاء . وقد أغفل ذكر أبي القاسم ابن سليمان الكلبي الذى أطال صاحب المختصر في الاختيار من شعره . وكذلك أهمل العماد ذكر ابن الحياط الربيعى الصقلى الذى ورد في المختصر



وفي قطعة المغرب . ولعل العماد أغفله لقلة احتفال ذلك الشاعر بالمحسنات وهو تعليل لا يستقل بالإقناع . وكذلك لم يذكر العماد في هذه القطعة أبا العرب الصقلي مع أن ابن سعيد صرح بأنه من شعراء الدرة؛ وذلك لأن العماد عدّه من الأندلسيين .

ومع ما في اختيار العماد من نقص فقطعة الحريدة خير ما وصلنا من الشعر الصقلي من حيث الكثرة والتنوع . وقد أدرج أماري قطعة الحريدة في المكتبة الصقلية ولكنه لم يذكر من الشعر الوارد فيها إلا القليل .

(ج) المغرب وفي الجزء الرابع منه ( نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ تاريخ ) قطعة عن صقلية تكون الكتاب الثاني من كتب شمال المغرب حسب ترتيب ابن سعيد واسمها « كتاب الألحان المسلية في حلى جزيرة صقلية » . والكتاب مصدر « بمنصة » وصف فيها صقلية جغرافيا نقلا عن رحلة لابن عبد ربه والشريف وابن حوقل ، ويتلوها « التاج » وفيه ذكر فتحها ، ثم ترجم للأمير تاج الدولة الكلبي نقلا عن ابن القطاع ، وختم الفصل بذكر نهاية صقلية . ثم بدأ باختيار الشعر فذكر أبا القاسم عبد الله بن سليمان الكلبي فأشبه في بداعته المختصر ، ثم اختلفا بعد ذلك لأن ابن سعيد رسم لنفسه تقسيمات عامة سار عليها في كل كتابه ، فهو يقسم الناس إلى طبقات من كتاب وعمل وزهاد وشعراء ويختار لهم شعرا . وفي قسم الشعراء ذكر ابن الخياط الصقلي . ولما ترجم لابن حمديس لم يشر إلى أنه ينقل ترجمته من الدرة كما فعل مع غيره ، وأضاف إلى الصقليين اثنين متأخرين عاشا في أيام المنصور والمستنصر من بني عبد المؤمن . وابن سعيد في اختياراته سريع يورد البيت والبيتين والمقطوعة ولا يهتم بالقصيدة ، ولكنه كان أميناً فألزم نفسه الإشارة إلى الدرة في كل مرة نقل منها . وهذه القطعة من المغرب نشرها موريتز في العيد المئوي لميلاد ميشيل أماري المجلد ١ : ٢٩٣ - ٣٠٠ .

ويلحق بهذه القطعة من عمل ابن سعيد قطعة أخرى أفرداها لصقلية في آخر كتابه « رايات المبرزين » الذي نشره الأستاذ غومس ؛ وهو اختصار

للمغرب وذكر فيه اثنين لم يذكرهما في المغرب وهما ابن أبي البشر الصقلي وابن قاضي ميلة .

(د) اختيار على بن منجب الصيرفي أو ابن الصيرفي (٥٥٤٢) ١١٤٧-١١٤٨ من الدرة الخطيرة وهي أقدم المختارات فيما يظهر وتتضمن تسعة عشر شاعراً . والمخطوطة نسخة وحيدة يملكها الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب باشا وقد ترجمها I. Di. Matteo إلى الإيطالية ونشرها ببلرم سنة ١٩٣٧ بعنوان *Antelopia di poeti siciliani stratta da quella di Ibn al-Qatta* ، ثم نشرها الشيخ محمد النيفر التونسي في كتابه « عنوان الأريب » المطبوع بتونس سنة ١٩٥١ .

وأما المصادر التي نقلت عن الدرة الخطيرة فهي :

(١) القفطي : إنباه الرواة (رقم ٢٨٠١ تاريخ بدار الكتب المصرية) وكتاب المحمدين من الشعراء (رقم ٢٢١٧ تاريخ بالمكتبة التيمورية مصور من مكتبة باريس رقم ٣٣٣٥) . وقد اعتمد السيوطي على الأول منهما فأدرج بعض أسماء صقلية مما ورد فيه في كتابه بغية الوعاة . ولم يطالع الأستاذ أماري على هذا الكتاب وإنما اطلع على مختصر الذهبي له . أما المحمدون من الشعراء فهو ناقص وفي القسم الموجود منه بدار الكتب تراجم ستة صقليين بينهم أربعة لم يرد لهم - فيما أعرف - ذكر في غيره .

(ب) ياقوت : معجم البلدان . كما هو واضح في مادة سمطاروودان وفي معجم الأدباء ذكر لبعض اللغويين والأدباء .

(ج) القاضي عياض ، ترتيب المدارك (رقم ٢٢٩٣ تاريخ بدار الكتب المصرية) وما ينقله عن الدرة يصدره بقوله « وأورد له جامع شعر صقلية » . وما نقله القاضي عياض في كتابه إنما هو أشعار لبعض الفقهاء ، وكل ما ورد عنده موجود في المجلد الأول من كتاب C.A. (العيد المثنى لميلاد ميشيل أماري) .

(د) وفي الوافي بالوفيات تراجم لبعض الصقليين ولكن اضطراب نسخة دارالكتب تجعل الاستفادة منها عسيرة . وفي الجزء الثالث من الوافي الموجود بمكتبة

أحمد الثالث تحت رقم ٢٩٢٠/٢١ ترجمة لابن أبي البشر الصقلي ومختارات من شعره ، وفي مرآة الزمان ترجمة لأربعة من الصقليين ، قال سبط ابن الجوزي إنهم من الشعراء الذين ذكرهم ابن القطاع في كتابه . وواضح أن سبط ابن الجوزي ينقل عن الخريدة ومن ثم أخطأ فجعل محمد بن عيسى الصقلي بين من ذكرهم ابن القطاع مع أنه من شعراء العصر النورماني . هذه هي المصادر التي تدور حول الدرة الخطيرة اختصاراً أو نقلاً وهناك مصادر أخرى أهمها .

١ - القسم الأول من قطعة الخريدة التي تقدمت الإشارة إليها ( أى من الورقة ١ - ٢١ ) وهذا القسم يتضمن شعر أبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر الصقلي الأنصاري الكاتب منقولة من مجموع لم يذكر اسمه . ويتضمن قطعة أخرى نقلت من كتاب « المختار من النظم والنثر لأفاضل العصر » لابن بشرون المهدوي الذي كان في صقلية في العهد النورماني . وتمتاز هذه المجموعة بأنها المجموعة الوحيدة التي تصور لنا الشعر العربي أيام النورمان ويتمشى مع هذه القطعة ما ورد في الخريدة الورقة ١١٧ عن أبي الضوء سراج الذي كان في بلاط رجار ، ويمتاز ما اختاره العماد عن ابن بشرون بوجود النثر الصقلي فيه، إلى جانب الشعر . وعيب العماد في هذه القطعة تخرجه من الإمعان في اختيار ما مدح به الكفار . ولو لم يقف هذا الحرج في طريقه لكانت الفائدة فيما اختاره أبلغ .

٢ - الجزء من شعر أبي الحسن علي بن عبد الرحمن الصقلي الكاتب رواية الفقيه أبي محمد عبد الله بن يحيى بن حمود الحريري ( الأسكوريال رقم ٤٦٧ ) . ولأبي الحسن الصقلي أشعار أخرى متفرقة في بعض الجوامع الأدبية وقد أورد له صاحب المختصر قصيدة طويلة في مدح رئيس الرؤساء ، وبعض هذه القصيدة أوردته العماد في ترجمة ابن أبي البشر الصقلي . ومن ثم ثار عندي هذا التساؤل : هل أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الصقلي الأنصاري الكاتب هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن ( ابن أبي البشر ) الصقلي الأنصاري الكاتب الذي افتتح

العماد القطعة عن صقلية باسمه؟ وبعد البحث تبين لى أنهما شخص واحد عاش في القرن الخامس وهاجر إلى مصر ودرس فيها النحو والعروض وتختلط أشعارهما اختلاطاً لا يدع مجالاً للشك في هذه الحقيقة .

٣ - ديوان ابن حمديس الصقلي ( نشر سكيابا ريللي روما سنة ١٨٩٧ )  
وقد نشر أماري بعض قصائد ابن حمديس في المكتبة الصقلية ( ص ٥٤٧ - ٥٧٣ ) والملحق الأول ( ١٣ - ٤٦ ) وقراءة الشعر في مواطن كثيرة منها مضطربة ؛ وتمتاز نشرة سكيابا ريللي بالترتيب وترقيم القصائد والإشارات الدقيقة إلى اختلاف الروايات . وهي أضيفت مما نشره أماري ولكنها لا تخلو من أخطاء تعمى المعنى على القارئ في كثير من الأحيان ، وقد أخذت نفسى بتوجيه القراءة التي أراها أكثر إظهاراً للمعنى دون أن أشير إلى ما فارقت فيه قراءة الديوان .

٤ - السلفي : المعجم ( رقم ٣٩٣٢ تاريخ بدار الكتب المصرية ) وهو جزءان اضطربت أرقامهما وربما كانت النسخة كاملة لا ينقصها إلا إعادة ترتيبها . وهذا المعجم يعرفنا بأكثر المهاجرين من صقلية إلى الإسكندرية عند ما احتل النورمان الجزيرة ويلقى أضواء قليلة على بعض حياة صقلية الثقافية وفيه شعر للصقليين غير كثير .

٥ - ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة وفيها تراجم بعض الراحلين من صقلية إلى الأندلس مثل سليمان بن محمد الصقلي وترجمته منقولة عن جذوة المقتبس للحميدى ؛ وليس من الضروري أن نفرد الجذوة بالإشارة والتعريف لأنها لم تحتو من شعر الصقليين إلا على أبيات لسليمان المذكور . وفي الذخيرة ترجمة لابن حمديس وقصائد له لم ترد في الديوان وشعر لأبي العرب الصقلي وترجمة لابن الصباغ تجمع إلى جانب شعره ثلاثاً من رسائله .

٦ - التجيبي . شرح المختار من شعر بشار وفيه قطعه صالحة من شعر ابن الخياط الربيعي الصقلي تبلغ ١٨٨ بيتاً وفيه بيتان لابن الطوبى وقد كان التجيبي معاصراً وصديقاً لابن الخياط ولكن النسخة المطبوعة من هذا الكتاب غير كاملة وكما كنا نحسب أن نراها في صورتها الكاملة لتكون لابن الخياط

مجموعة أكبر من الشعر إذ الدراسة المتمعة للشعر الصقلي جعلتني أختص ابن الخياط بالالتفات لأنه عاش حياته في صقلية .

٧- أشعار صقلية : وجدت مكتوبة على الآثار أو على شواهد القبور نشرها الأستاذ أماري في مجموعات مثل :

( أ ) Amari : Le epigrafi arabiche di Sicilia

( ب ) Su le iscrizioni Arabiche del palazze regie di Messina

والثاني من نشر Reale accademia dei lincei سنة ١٨٨٠ - ١٨٨١

وقراءتها تختلف ، ولكن قراءة الأستاذ أماري تعد تحسناً واسعاً إذا قيست بقراءة غرغوريو Gregorio في كتابه : Rerum Arabicarum gusa ad historiam siculam spectant. ( انظر مثلاً النص ٢٤ ص ١٦٢ )

وهناك مجموعة منسقة منها ليست مقترنة بصور للأصول ، ذكرها جويدي في محاضراته بالجامعة المصرية ( ١٩٠٧ ) ولا تفيدنا هذه الأشعار كثيراً لسببين : ١- أنها ناقصة مبتورة في كثير من الأحيان وقد طمس كثير من معالمها .

٢- أننا لا نقطع بأنها من تأليف الصقليين أنفسهم ، وإلى ذلك أشار الأستاذ جويدي نفسه أيضاً .

وهناك أشعار صقلية متناثرة في الكتب التاريخية والأدبية ظفرت ببعضها وألحقته بمجموعة الشعر الصقلي ، وقد رتب هذه المجموعة ورقمتها وجعلتها ملحقاتاً لهذه الدراسة ، وكل ما أتمناه أن أستطيع في يوم من الأيام تقديمها إلى القراء والمشتغلين بالدراسات الأدبية .

وقد جعلت هذه الدراسة في ثلاثة كتب ، خصصت الأول منها لتاريخ صقلية في العصر الإسلامي ، والثاني لتاريخ المسلمين فيها تحت حكم النورمان ، لأن الجماعة الإسلامية في تلك الجزيرة شهدت عصرين بينهما جوانب من التفاوت . وفي أحدهما عرفت السيادة الذاتية ، وفي الثاني عرفت الخضوع للحاكم الغريب . أما الكتاب الثالث فدرست فيه الشعر في هذين العصرين

وبينت فيه المؤثرات التي عملت في تكوين الشعر الصقلي وما تركته من مظاهر القوة والضعف ، ووضحت موقف صقلية في طبيعة موقعها بين التأثير والتأثير ، وفي طبيعة النفسيات التي أنشأت ذلك الشعر ، وفيما تركته الفتنة والفتح النورمانى من آثار فيه ، وتحدثت عن الشعر العربى في ظل السيادة النورمانية ، وختمت الكتاب بفصل عن العلاقة بين الشعر والشخصية الصقلية عامة .

والى لأشعر - فى غير زهو أو تكثر - أن هذه الدراسة تضيف شيئاً إلى ما تقدمها من دراسات ، وخاصة فى النواحي الثقافية والأدبية ، لأنه توفر لها من المصادر المخطوطة ما كان مجهولاً . فلأول مرة - فيما أعتقد - يستفاد من مختصر الدرة ، وتنقيف اللسان ، وتهذيب المدونة أو مسائل عبد الحق الصقلى وترسل ابن قلافس ، والزهر الباسم ومعجم السلفى وكتاب المحمدين للقفطى وغيرها .

والى جميع الذين أعانونى على إتمام هذا العمل أقدم شكرى الخالص . غير أننى أحب أن أنوه بفضل أستاذى وصديقى الدكتور شوقى ضيف الذى رعى هذه الدراسة بالتوجيه السديد ، كما أشكر صديقى المستشرق الأسبانى الأب زكريا ريمىرو الذى ساعدنى فى قراءة تاريخ أمارى ، والسيد ولقرى مدلونج المستشرق الألمانى الذى ترجم ما كتبه شاك عن الشعر الصقلى إلى اللغة الإنجليزية .

والله أسأل أن تكون أخطائى فى هذا الكتاب قليلة ، فأما العصمة فإنها ليست من نصيب الخطّائين .



## الفهرست

صفحة

مقدمة . . . . . ١٣-٥

### الكتاب الأول

#### صقلية في العصر الإسلامي

- ( ١ ) الفصل الأول : الحياة السياسية . . . . . ٢١
- ١ - لمحة جغرافية . . . . . ٢٣
- ٢ - صقلية في العهد البيزنطي . . . . . ٢٥
- ٣ - الفتح الإسلامي . . . . . ٣١
- ٤ - الفتن الصقلية في فترة الانتقال من يد الأغالبة . . . ٣٩
- إلى الكليبين . . . . . ٥٩
- ٥ - صقلية تحت حكم بني أبي الحسين الكليبين . . . ٤٤
- ٦ - أمراء الطوائف . . . . . ٤٨
- ٧ - الحكومة الإسلامية بصقلية . . . . . ٤٩
- ( ب ) الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية . . . . .
- ١ - طبيعة الفتح العربي . . . . . ٦١
- ٢ - أهل الذمة . . . . . ٦١
- ٣ - الأجناس التي دخلت صقلية . . . . . ٦٤
- ٤ - الأنظمة المالية والتفاوت في الثروة . . . . . ٦٨



صفحة

٧٢	٥ - النهضة الزراعية والصناعية
٧٥	٦ - الدين والأخلاق
	( > ) الفصل الثالث : الحياة العقلية
٨٥	١ - صقلية والصلات الثقافية
٨٧	٢ - المدارس والمعلمون
٩٢	٣ - هجرة الكتب إلى صقلية
٩٥	٤ - الفقه والحديث والقراءات
١٠٥	٥ - النواحي اللغوية
١١٣	٦ - الزهد والتصوف
١٢٠	٧ - علوم الأوائل
١٢٥	٨ - نظرة إجمالية

### الكتاب الثاني

#### صقلية الإسلامية في عهد العصر النورمانى

١٢	الفصل الأول : افتتح النورمانى
	الفصل الثانى : الحياة الاجتماعية للجماعة الإسلامية
١٣٧	١ - العلاقات الخارجية وأثرها فى مسلمى صقلية
١٤٠	٢ - أثر الإقطاع فى الجماعة الإسلامية
١٤٤	٣ - الإدارة الإسلامية
١٤٥	٤ - الصبغة الإسلامية فى الدولة
١٤٧	٥ - المسلمون بين التسامح والاضطهاد
١٥٧	الفصل الثالث : الحياة العقلية - مجالاتها الجديدة ونصيب المسلمين فيها

## الكتاب الثالث

### حياة الشعر العربي في صقلية الإسلامية

صفحة	
١٦٧	الفصل الأول : المكونات الكبرى للشعر الصقلي في العصر الإسلامي .
١٨٩	الفصل الثاني : الشعر الصقلي في العصر الإسلامي بين القوة والضعف
٢٠٧	الفصل الثالث : ابن الخياط شاعر صقلية في العصر الإسلامي .
٢٢٧	الفصل الرابع : أثر الفتح النورمانى في همزة العالم والشعر إجمالاً .
٢٣٣	الفصل الخامس : ابن حمد يس أثر من آثار الفتح النورمانى .
٢٦٣	الفصل السادس : الشعر الصقلي في العصر النورمانى . . . . .
٢٨٥	الفصل السابع : همزة الشعر العربى إلى صقلية النورمانية . . . . .
٢٩٧	خاتمة : فى العلاقة بين الشخصية الصقلية والشعر « . . . . .
٢٢٣	مصادر البحث . . . . .



الكتاب الأول  
صقلية في العصر الإسلامي



## الفصل الأول

### الحياة السياسية

- ١ - لمحة جغرافية
- ٢ - صقلية في العهد البيزنطي
- ٣ - الفتح الإسلامي
- ٤ - الفتن الصقلية في فترة الانتقال من يد الأغالبة إلّا، بنى أبي الحسين .
- ٥ - صقلية تحت حكم بنى أبي الحسين الكلبيين
- ٦ - أمراء الطوائف
- ٧ - الحكومة الإسلامية بصقلية



## لمحة جغرافية

فى ذات يوم من أيام الربيع خرجت برسيفونة الجميلة ابنة ربة الحصب  
تخطر فى المروج الصقلية الخضراء ، وتمتع طرفها بالنظر إلى الجداول المترققة  
ومن حولها صواحها يقطفن الأزهار ، واقترب منها رب الجحيم والعالم الأدنى  
فى خفة واختطفها وانحدر بها إلى عالمه .

أسطورة قديمة من تلك الأساطير الكثيرة التى أوحى بها الطبيعة الصقلية  
ولكن الحقائق الجغرافية من وراء رموزها لا تزال جديدة ، فربة الحصب لم  
تتخذ مقامها فى تلك الجزيرة عبثاً ، والجحيم لا يزال قابلاً فى ناحية من نواحي  
الجزيرة تحت بركان إتنا الجبار ، ولا يزال مرده الحدادين يضربون بمطارقهم  
صفائح الحديد تحت ذلك البركان — الذى كان لغز القرون حتى الفتح  
الإسلامى — ليعدوا منها صواعق لرب الأولب . وما تزال سكالا الوحشية تعوى  
عند الحجاز المسبنى عواء لا ينقطع وتتقاتل مع خاربديس قتالا كانت تجار منه  
سفن القرون الوسطى بالشكوى .

نعم قد تكون بعض المظاهر الطبيعية والاقتصادية تغيرت فى الجزيرة  
التي كانت عرشاً لربة الحصب ، ربما اختفت منها أنواع من المزروعات وقلت  
غابات البلوط التي يذكرها ثيوقريطس ، واختفت مدن وقلاع كثيرة  
جنى عليها تتابع الهجرات وتغير الحكام — كل ذلك قد يخضع للتغير ولكن  
المظاهر الأساسية لا تزال هنالك — فالحصب لم يفتأ يتكشف عن القمح  
الذى كانت تعيش عليه روما ، والكرمة والزيتون اللذين جلبهما اليونان ، والليمون  
والبرتقال اللذين جلبهما العرب وأشجار اللوز والتين ، وأنواع الأزهار . ولا تزال  
الأرض التي أوحى لثيوقريطس أغاني الرعاة مسرحاً للأغنام السائمة فى السهول



والربى : ولولا أن الغابات فيها قليلة وبعض الجبال قد أصبح عارياً مجرداً من زينتته الخضراء لتقدمت فيها حرفة الرعى وصناعات الألبان . وتزدان هذه الطبيعة بالحدائق والعيون والفوارات والحمامات وكلها كانت في يوم ما موضوعات للأساطير .

أما إتنا الشامخ على كل ما حوله في الجزيرة فإنه يهدر منذراً بالويل ، وقد تلفع بعمامته الثلجية ، وتضرم جوفه بالنار ، فإذا به ذلك السيد الرحيم القاسى في آن ، الذى يستطيع أن يجمع معجزة القرون الوسطى في شخصه ، لأنه يمزج « العنصرين » في كفه . وإذا ثارت حممه غطى الأرض بطبقة خصبة ، وفزع الآمنين .

والحقائق الجغرافية هي التى رسمت للجزيرة حياتها الداخلية : مرتفعات وهضاب في الداخل لا تسمح للأراضى بالانبساط الواسع وتتباين تبايناً واضحاً في ارتفاعاتها وأشكالها نحو السواحل ، فترسم مواقع الموانئ . وعلى أعلى أجزائها بنيت المدن الداخلية لتكون حصينة ، وكان لذلك أثره في توجيه كل فتح ، وبنيت المدن الساحلية عند خير المواقع صلاحية للملاحة ، وهيأت السواحل حظوظاً متفاوتة لتلك المدن . فالشاطئ الغربى والجنوبى الغربى المقابل لأفريقيه أقلها أهمية ، وموانيه قليلة الصلاحية للملاحة ، ونادراً ما تصل المرتفعات فيه إلى البحر إلا في نوء واضح يبرز عند شنت ماركو . والساحل الشمالى يكاد يكون مستويا وفيه تقع ثمة وجفلوذ وبارم ، ووراء هذه الأخيرة تنحسر الجبال مكونة سهلاً من أخصب السهول . وفي الساحل الشرقى ذى الميزات الطبيعية والتاريخية تقع سرقوسة وطبرمين ، وفيه سجل للتاريخ اليونانى والحضارة اليونانية . كما أن الساحل الشمالى شهد بدوره أروع الحضارات السامية .

وموقعها الجغرافى شارك شخصيتها الجغرافية في تدوين تاريخها وتلويدها ، فوقعها في البحر جعلها ابنة لهذا البحر لا يحوزها إلا من قهره ، ولذلك كانت اقوى المتصارعة في ذلك الميدان المائى تلتقى فيها وجهاً لوجه حتى تقرر تلك السيادة ، وتوسطها بين أوروبا وإفريقية جعلها محط النزاع بين أقوام

الشمال والجنوب، وضيق مجاز مسينة قرن تاريخها بتاريخ أوروبا، وعند سواحلها كانت تنكسر أمواج الغزاة المتدحرجة في شبه الجزيرة الإيطالية . ومواجهة بعضها لليونان وفينيقيا ، ومواجهة بعضها لأفريقية أنشأ تفاوتاً في أجزائها . فتاريخها إذن هو تاريخ الشعوب ذات الحضارات في حوض البحر المتوسط فهو جزء من تاريخ اليونان والفينيقيين والرومان والقوط والبيزنطيين والعرب — من يد القوط أخذها بلزار يوس قائد جستنيان ، ومن أيدي البيزنطيين انتزعها قادة بني الأغلب بعد جهاد عنيف .

## ٢

## صقلية في العهد البيزنطي

لم يلق بلزار يوس قائد جستنيان عناء في الاستيلاء على صقلية من يد القوط حينما دخلها بجيشه سنة ٥٣٥ م ، فقد عهد إليه الإمبراطور بفتح الجزيرة إن كان ذلك أمراً ميسوراً لا يكلفه جهداً ، ولا يستغرق منه زمناً طويلاً . ووجد بلزار يوس كل ما يهيئ له البلوغ إلى غايته — وجد صقلية تكاد تكون خالية من الحاميات القوطية ، وتلقاه السكان فرحين مرحبين يريدون التخلص من حكم القوط ، فاستولى على قطانية ، وفتحت له سرقوسة أبوابها ، ولم يلق مقاومة إلا في بلرم لأنها كانت مطمئنة إلى مناعة أسوارها وقوة الحامية القوطية فيها ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى أصبحت كل الجزيرة في قبضته دون أن يزهق نفساً<sup>(١)</sup> .

وعد القوط هذا التقلب في عواطف السكان وترحيبهم بالبيزنطيين نكراً للجميل . إذ كان الصقليون قد رجوا ثيودريك القوطي أن يُعنى بلدهم من الحاميات والفرق العسكرية ، فأجابهم إلى طلبهم ، وترك شؤونهم في أيديهم ،

وكانت عاقبة هذا التسامح أن خذلوا القوط وتنكروا لهم أمام الفاتح الجديد ، فلم تدافع مدينة عن نفسها ، ولم يحاول أحد أن يشترك حتى في مناوشة ، ولم يتظاهر السكان بأنهم مغلوبون على أمرهم . بل لأنهم حالما شهدوا تلك القلة الضئيلة يقودها بلزاريوس ، نكسوا كل علم قوطي وتنافسوا فيما بينهم في إظهار الولاء لبلزاريوس وسيده ، فجرحوا بذلك شعور القوط جرحاً عميقاً ظلوا يتلمسونه ويتألمون منه على مر الأيام ، حتى إذا أمكنتهم الفرصة أيام توتلا كان أول عمل قاموا به الانتقام لأنفسهم من صقلية الخائنة المتقلبة<sup>(١)</sup> .

ولم تطل الفرحة بالصقليين فسرعان ما وجدوا أنفسهم يدفعون الضرائب الفادحة لخزينة الإمبراطور ، وعين جستنيان للجزيرة بريثوراً Praetor من الدرجة الثانية ، وجعل منها ومن دلماتيا ولاية واحدة<sup>(٢)</sup> .

وخضعت صقلية للأنظمة التي فرضها جستنيان على ما فتحه في الغرب ، تلك الأنظمة التي جرت ألوان التعاسة على أفريقية وإيطالية . ويرى بروكوبيوس (في تاريخه السري) أن البلاد أقفرت من سكانها ، ونحلت الولايات دون حماية ، وأصبح حكمها سيئاً ، ورزحت تحت عبء الضرائب والأضطهاد الديني والثورات العسكرية ، ومهما يكن في كلامه من مبالغة ففيه أيضاً جانب كبير من الحق<sup>(٣)</sup> .

أما حال الجيش فخير ما يصور لنا بؤس صقلية حينئذ أن العساكر البيزنطية كانت كالمجتمع نفسه أخلاطاً من شعوب ، لا يمكن أن تنب في صدورهم محبة الوطن . وضعف الإغريق الذين كانوا عَصَبَ الجسم في الإمبراطورية ، وغرقوا في الخرافات والأساطير وأخذوا يتهربون من الجندية ، ويدفعون الفدية عن أنفسهم ، فأصبح التجنيد وفقاً على البرابرة وسكان الحدود ، ولم تكن الموارد الاقتصادية تكفي لتمد الجيوش بما يقوم بحاجاتهم ، فلجأ القادة

Hodgkins : Italy, vol, 4, p. 8. (١)

Cambridge Med. History, vol. 2, p. 20-21. (٢)

Cambridge Med. History vol 2, p; 20-21. (٣)

والحكام إلى طرق خطيرة النتائج ، فكان القائد مثلاً يعهد بأرضه إلى جماعة من الجنود كي يفلحوها ويفيدوا من حاصلاتها<sup>(١)</sup> . ودخل في صفوف الجيش جماعة من الفقراء الذين رضوا أن يتقاضوا أجراً قليلاً ، وحل هؤلاء بجهلهم محل العسكريين أصحاب الدربة القديمة<sup>(٢)</sup> . وهكذا تحول الجند إلى حاشية للقائد ، ولم يعودوا أداة لكبح جماح الطغيان بل أصبحوا أداة لإحلال طغيان محل آخر<sup>(٣)</sup> .

وأما في الضرائب فكانت صقلية كغيرها من ولايات الدولة فريسة لجشع المصلين تدفع ضريبة على الأملاك ، وأخرى على الرؤوس ، وإتاوات على التجارة والصناعة ، وزيادات إضافية على الضريبة الأولى ، وضرائب للجند ، وأخرى للملاحين وأموالاً يبتزها الموظفون ويزيدون بها الحمل ثقالاً<sup>(٤)</sup> . وكانت الحال سيئة في أيام القوط فزادت سوءاً أيام السادة البيزنطيين حتى إن أحد الجبابرة في نهاية القرن السادس أجبر الرعايا العاجزين عن دفع المال على تقديم أبنائهم ، واستطاع موظف تافه الشأن في صقلية أن يصادر الممتلكات بالقوة ، ويقول القديس جريجوريو : « نحتاج إلى مجلد لفصل الجور الذي سمعنا به من هذا القبيل »<sup>(٥)</sup> .

ولم تكن الدولة هي المستغل الوحيد لصقلية بل كانت الكنيسة تشاركها النفوذ والسلطان لكثرة أملاكها فيها ، فكان لكنيسة روما وميلان ورافنا اقطاعات كثيرة (Patrimori) وكانت أملاك كنيسة روما موزعة في أنحاء الجزيرة حول سرقوسة وقطانية وميلاص وبلرم وجرجنت ، وكان يديرها رئيسان أحدهما في سرقوسة والثاني في بلرم<sup>(٦)</sup> .

(١) Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia vol, 2p. 339

op. cit., p. 340 (٢)

op. cit. p. 341 (٣)

Amari : S. D. M. vol, 2 p. 332 (٤)

op. cit., p. 333 (٥)

op. cit., p. 125 (٦)

وكان في الأراضي الكنسية فلاحون يسمون الكولونيين Coloni وهم طبقة من الناس تشبه العبيد في ارتباطها بالأرض وتدفع الضرائب نقداً أو محصولات<sup>(١)</sup>.

وظلت صقلية - كما كانت من قبل - «أهراء روما» يسافر منها كل عام أسطولان محملان بالقمح، مرة في الربيع وأخرى في الخريف، وإذا غرقت المون في البحر أو نهبت قبل وصولها، طوّل الكولونيون بالتعويض<sup>(٢)</sup>. هذا بالإضافة إلى أن جامعي المحصول كانوا يتلاعبون بالمكيال ويزيدون في نسبة الضريبة المقررة. فلما اعتلى جرجوريو الأول كرسي الباباوية سنة ٥٩٠ م ورأى سوء الحال حاول أن يصلحها جهده. وفي الثمانية عشر شهراً الأولى من رئاسته كتب أربع عشرة رسالة إلى وكيل له بصقلية اسمه بطرس يحاول أن يذكره بضرورة النظر في ظلمات الناس وإنصافهم وتحقيق العدالة فيهم<sup>(٣)</sup>. فهو يأمره أن يرجع نسبة الضريبة إلى الحد المقرر، ويكسر المكيال الكبيرة، ويصدر لكل فلاح في أراضي الكنيسة دفتر ضمان Libellus securitatis يقيد فيه ما يدفعه من ضريبة مشروعة<sup>(٤)</sup>. ومن هذه الرسائل يتبين لنا الخيف الذي كان يصيب طبقات الفلاحين.

وكان المشرفون على أراضي القديس أبولنارس حامى رافنا يبعثون كل سنة سفناً محملة بمئات القناطير من القمح والفواكه والخضروات والجلود المدبوغة باللون الأرجواني، ومحملة بالحرير اللازوردى والمواد الصوفية وغيرها وكلها كانت توفر للكنيسة دخلاً هائلاً<sup>(٥)</sup>.

وفي أواخر القرن السابع أصبحت الجزيرة حصناً يدفع العدوان عن الجناح الغربى للإمبراطورية وثغراً بين عدوين قويين، وسمح لها أن تستقل نوعاً في

Gregorovius : History of Rome vol, 2 p. 57 (١)

Gregorovius : History of Rome vol, 2 p. 57 (٢)

Hodgkins : Italy and Her Invaders vol, 5 p. 310 (٣)

op. cit. 313 (٤)

Gregorovius : vol, 2, p. 365 (٥)

تنظيم قوتها العسكرية ، فأصبح لحاميتها تحت رئاسة قائدها الأعلى Strategos نفوذ واسع ، ولكن هذه الحامية كانت غريبة تدافع عن غير وطنها ، ولم يشترك فيها الشعب الصقلي ، بل عاش ضحية لها أو متفرجاً يرمقها بأنظاره وحيناً يصفق وحيناً آخريلعن ويبكى ، ولكنه لم يبادر إلى حمل السلاح أبداً<sup>(١)</sup> تلك هي حال الجزيرة بين أطماع الحكومة والكنيسة وفساد حال الجيش ، ومن ثم لم يكن المجتمع الصقلي في ظل الدولة البيزنطية مجتمعاً سعيداً ناهضاً مكفول الحرية — كانت الجزيرة تضم خليطاً من الأجناس ، أهم عناصره الإغريق والطلليان ، وإلى جانبهم جماعات من اليهود تميزوا منذ البدء بانكماشهم على أنفسهم ، وبكره الأجناس الأخرى لهم ، ولكنهم لم يكونوا كثيرى العدد<sup>(٢)</sup> . وقد حاول جرجوريو أن ينصفهم ويدفع عنهم الاضطهاد . كما حاول أن يغريهم بالتنصر حين كلف وكيله في صقلية بحط الضرائب عنهم إن هم فعلوا<sup>(٣)</sup> . ولما استولى أسقف بلرم على معبد للهود وحوله إلى كنيسة ، عد جرجوريو هذا العمل خيافاً ، وأمر الأسقف بأن يدفع ثمن المعبد ، إذ كان رده في حاله الأولى قد أصبح عسيراً<sup>(٤)</sup> . وأضافت الحكومة إلى هذه الأجناس بعض المنفيين ، إذ كانت تعتبر صقلية منقياً للمدنيين والمحرمين والعساكر المتمردين .

وامتلاأت الجزيرة بقطعان العبيد الذين كثروا بما انضم إليهم من أسرى ومن ملاك صغار عجزوا عن الفلاحة لما بهظتهم الضرائب . فهربوا واتمسوا لهم منازل في مزارع الأغنياء ودفعوا حرياتهم ثمناً لذلك . وبعد زمن أخذ يقل تردد اسم العبيد في سجلات الأرض ويحل محله اسم الكولونيين<sup>(٥)</sup> . ولم تحاول الكنيسة أن تصلح من حالهم بل إن جرجوريو شد وثاقهم في أملاك البابا ،

( ١ ) Amari, S. D. M. vol, I pp. 341-342

( ٢ ) Amari, S. D. M. vol, P. 324

( ٣ ) Hodgkins, vol, 5 p. 316

( ٤ ) Freeman : Sicily, p. 351

( ٥ ) Amari, S. D. M. vol, I, p. 326

إذ صرفته شهوة الطموح السياسي عن أن يعمل شيئاً في سبيل أولئك التعساء حين ظن أن تحريرهم يقلل الوارد إلى خزينة البابا، ولم يكفه أنه أقر عبودية الأرض بل حرم عليهم أن يزوجوا أبناءهم من جنس آخر<sup>(١)</sup>.

وكانت الخرافات تسيطر على حياة تلك الأجناس حتى مزجها الناس بالدين ، فعبدوا القديسين وأخذ البابا يخص أهل الخطوة بشيء من بقايا رفاتهم، ويرسل إلى الكنائس النائية هدايا من زيت القناديل التي تضاء عند قبور الشهداء ، أو يبعث بقطن غمس في ذلك الزيت ثم حفظ في زجاجة كتب عليها اسم أحد القديسين . ويؤكد جرجوريو نفسه أن لمس هذا الزيت يفعل المعجزات . وانضاف إلى عبادة الرفات إيمان بالخرافات الشائعة وقيام الأموات من قبورهم ورؤية الهالات المطيعة برعوس القديسين ، والرؤى التي يتمثل فيها الشياطين ، ومن الغريب أن نجد رجلاً مثل سان جرجوريو يؤمن بهذه الأباطيل وتكشف « حوارياته » عن إيمانه بكل خرافات عصره ، حتى إنه لما دشن إحدى الكنائس باسم القديسة (إغاثة) حامية قطانية من غضب بركان إتنا ، قص سنالك أنه بعد الاحتفال رأى الشيطان قد تمثل خنزيراً وأخذ يروح ويحيى بين أرجل المصلين إلى أن فسحوا له وخرج . وهذه الحواريات ترجمت إلى العربية في القرن الثامن<sup>(٢)</sup> .

وفي النصف الأول من القرن الثامن أذاع ليو في الناس منشوراً يحرم به الصور في الكنائس ويأمر بإزالتها . وعارضه البابا في حركته هذه وأرسل إليه رسائل شديدة اللهجة . ولما شاء ليو أن ينتقم من البابا أرسل أسطولا إلى صقلية استولى على ما له من أملاك فيها<sup>(٣)</sup> . ثم زاد الضرائب على صقلية وقلورية ، وأمر بتسجيل المواليد لكي يضمن للجزية سجلاً لا يخطئ ، وكانت ضربته

(١) op. cit. pp. 327-329

(٢) Gregorovius, vol, I pp. 73-80

(٣) يقدر ثيوفانس أنها كانت تدر على الكنيسة ٣ ١/٢ تلت ( ٣٥ ألف قطعة ذهبية ) ولكن

الأستاذ أماري يشك في صحة هذا الرقم Amari S. D. M. vol, I p. 125

الأخيرة في هذا السبيل أن اقتطع صقلية وقلورية والبريا من قبضة البابا وضمها إلى بطريركية القسطنطينية<sup>(١)</sup>.

وفي عهد خلفائه نسمع عن اضطهادات في الجزيرة وعن ضحايا كثيرين من أهل صقلية غير أن الحالة كانت هادئة في النصف الثاني من القرن الثامن لأن عدد الجيش والقلاع لم يكن يسمح بالثورة<sup>(٢)</sup>.

وقد كان بعد الجزيرة يغرى طامحاً بعد آخر بالاستقلال<sup>(٣)</sup> وقامت غير محاولة من هذا القبيل كانت آخر واحدة منها سبباً في دخول المسلمين صقلية . وجملة القول أن صقلية البيزنطية فقدت - كما يرى الأستاذ أماري - شخصيتها ومقومات الحياة العمرانية فيها ، واختنق فيها كل شعور بالرفعة الإنسانية ، وبلغت من الانحطاط درجةً ليس ثمة ما هو أدنى منها .

### ٣

## الفتح الإسلامي

ولم يكن الفتح العربي نتيجة لشعور الشعب الصقلي بأن حالته سيئة وأن تغير الحاكم قد يؤدي إلى تحسن في الأحوال ، ولا كان استمراراً للموجة الإسلامية في اندفاعها الأول الذي كان من نتيجته فتح العراق وسورية ومصر وشمالى أفريقية والأندلس ؛ فليس يمثل ذلك الاندفاع في صقلية إلا بضعة غزوات قام بها المسلمون ، ولم تثبت لهم في الجزيرة قدماً . ولم تكن تلك الغزوات من أجل الغنيمة دائماً ففي ١٢٢ هـ نزل حبيب بن أبي عبيدة ، حفيد عقبة فاتح أفريقية ، أرض صقلية ومعه ابنه عبد الرحمن ، وفي نيته أن يمضى في

E. J. Martin : Hist. of the Iconelâsts pp. 77 78 (١)

Amari, S. D. M. vol, I pp. 345-46 (٢)

Bury : Hist. of the Eastern Roman Empire p. 295 (٣)



الفتح حتى يستولى على الجزيرة كلها ، غير أن قيام ميسرة السقاء بثورة في إفريقية اضطره إلى العودة وأحبط سعيه . وكانت الحوادث في أفريقية مشغلة للمسلمين ، فحولت جهودهم عن صقلية . والحق أن تلك الغزوات أضافت إلى خزينة الدولة شيئاً من المال ولكنها كانت إحدى العقبات في سبيل الفتح حين جاء أوانه ، لأنها نهبت الروم إلى مدى الأطماع في نفوس العرب الفاتحين ، وجعلتهم يتخذون من صقلية قاعدة لحماية الإمبراطورية عند حدودها الجنوبية ، فعمروا فيها الحصون والمعقل ، حتى لم يتركوا جبلاً إلا وبنوا عليه حصناً وصاروا يخرجون في كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها ، وربما صادفوا تجاراً من المسلمين فأخذوهم<sup>(١)</sup> .

إنما كان الفتح نتيجة لحادث من تلك الحوادث المتكررة على مسرح السياسة بصقلية ؛ فإن رجلاً اسمه فيمي Euphemius ثار على قسطنطين بطريق صقلية ، لأن الطريق أراد أن يقبض عليه ويعذبه بأمر من حكومة القسطنطينية . وسواء أكان فيمي طامعاً من أولئك الطامعين ، ثار في سرقوسة وأخفق ، فلجأ إلى المسلمين ، أم أنه اختطف فتاة جميلة كانت قد لجأت إلى دير وشكاه أهلها إلى الإمبراطور ، أم أنه أحب هومونيزه Omoniza الجميلة واغتصبها منه صاحب صقلية<sup>(٢)</sup> ، فذهب يستعين بالقيروان عليه - سواء كان هذا السبب أو ذاك ، فالذي حدث فعلاً أن فيمي لجأ إلى بني الأغلب ، يطلب منهم المعونة .

وكانت بين أفريقية وصقلية هدنة لم تنقض مدتها ؛ ولذلك جمع زيادة الله وجوه أهل القيروان وفقهاءها ، وفيهم أسد بن الفرات وأبو محرز القاضيان وسحنون الفقيه ، واستشارهم في الأمر وجلس المجتمعون يقررون مصير صقلية ، أتظل هذه الجزيرة للإمبراطور أم تكون لخليفة بغداد ؟ أتبقى قطعة من القارة الأوروبية أم تصبح جزءاً من أفريقية ؟ وانقسم الناس فريقين : أقلية معتدلة

(١) ابن الأثير ٨٩/٥ والمكتبة الصقلية : ٢٢٠ .

(٢) انظر أمارى S.D.M. المجلد الأول : ٣٦٧ - ٣٨١ عن الأسباب المقترنة بثورة فيمي .

متريثة لا ترى الغزو ولا تشير به ، فيها سحنون الذى سأل المجتمعين كم بينها وبين بلاد الروم ، قالوا : يروح الإنسان مرتين وثلاثة فى النهار ويرجع قال : ومن ناحية أفريقية ؟ قالوا يوم وليلة قال لو كنت طائراً ما طرت عليها<sup>(١)</sup>. وفريق متطرف متحمس ، ينظر أفراداً إلى الأمر نظرة دينية ، ويعدون القيام به جهاداً فى سبيل الله ، وإعزازاً لدينه ، وُغلبَ سحنون على رأيه ، وبقي للأيام أن تظهر بُعدَ نظره ، وأن صقلية فى موقعها لا يمكن أن تكون جزءاً من إفريقية، وبقي للأيام أن تثبت مرارة الجهاد عند من تحمسوا له ، وبقي أيضاً شىء واحد لم يكن له لولا الحماسة الدينية من حل : هو الهدنة وكيف يستبجح الفقهاء أن يفتوا زيادة الله بنقضها ؟ وعرض الأمر على أسد وأبى محرز وعاد التطرف والاعتدال يقفان موقفهما من تلك المشكلة . فأما أبو محرز فأثر التريث ، وأما أسد فرأى أن يسأل رسل الصقليين ليعرف هل لديهم فى صقلية أسرى من المسلمين . قال أبو محرز : وكيف نقبل قول الرسل عليهم أو دفعهم عنهم ؟ فقال أسد : بالرسل هادناهم وبالرسل نجعلهم ناقضين . قال الله عز وجل : ” فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون “ فكذلك لا نتماسك به ونحن الأعلون<sup>(٢)</sup>.

وحلت العقدة ، أو تحلل زيادة الله من الهدنة ، حين أقر الرسل بوجود الأسرى من المسلمين فى صقلية ، وأذن بالغزو وعهد بالقيادة إلى أسد ، وأقلع الأسطول من مدينة سوسة يوم السبت ، النصف من شهر ربيع الأول سنة ٢١٢ فى نحو مائة مركب ، سوى مراكب فيمى<sup>(٣)</sup> وأعاد التاريخ نفسه : هذه هى صقلية تغزى مرة ثانية من شمال أفريقية كما غزيت أول مرة على يد الفينيقيين ، وهذا هو جيش أسد بن الفرات يدخل صقلية من الجهة التى دخلها منها الفينيقيون أيضاً ، وها هى الجموع السامية تقاثل كما قاتلت من قبل

(١) النويرى فى المكتبة : ٤٢٧ - ٤٢٨ .

(٢) رياض النفوس فى المكتبة : ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) النويرى فى المكتبة : ٤٢٨ .

وتحمل دينا آخر تريد أن تبسطه على الجزيرة <sup>(١)</sup>. وتختلف المصادر في عدد الجيش الذى خرج مع أسد ، ولكنها تتفق في أنه كان مكوناً من أشراف أفريقية من العرب والحنند - ومعظمهم من الفرس الخراسانيين <sup>(٢)</sup> - وأسد واحد منهم - ومن البربر والأندلسيين وأهل العلم والبصائر <sup>(٣)</sup> . ولم يرتح أسد لاشتراك فيمى وأصحابه معه في القتال ، فأمرهم أن يعتزلوا المسلمين <sup>(٤)</sup> ، واستطاع - في وقت قصير - أن يستولى على عدة حصون بينها مازر ، وأن يغنم غنائم كثيرة ، غير أنه عاد فوقع في خطأ من جاءوا قبله ، حين حاول فتح سرقوسة . حقاً إنه استطاع أن يضيق عليها ويحرق مراكبها ويقتل جماعة من أهلها ، مستعيناً بأمداد من أفريقية والأندلس <sup>(٥)</sup> ، ولكن أسطولا من القسطنطينية وصل لنجدتها وكان الوباء قد تفشى في المسلمين وهلك من جرائه كثيرون فيهم أسد نفسه <sup>(٦)</sup> . وكان أسد قد ترك في كل حصن استولى عليه حامية تضبطه فقل عدد جيشه . ولما رأى المسلمون شدة الوباء نزلوا في مراكبهم فنعهم الروم من الخروج ، وعندئذ أحرق المسلمون مراكبهم ، ورحلوا إلى مدينة ميناو Mineo فحسروها ثلاثة أيام وتسلموا الحنين <sup>(٧)</sup> .

ونستطيع أن نجمل القول بأن الفتح العربى كما دون في كتب التاريخ غير ملطف بجو أسطورى ، أو مزوق بشيء من التهويل ، ولكنه على واقعيته التى يتسم بها يكاد يبلغ حد المغالاة في تصوير المثابرة والنفور من الاستسلام ،

(١) أول من أشار إلى هذه الفكرة المؤرخ Grote ثم اعتنقها Freeman وأسهب في بيانها. انظر الفصل الأول من كتابه Hist. of Sicily المجلد الأول .

(٢) Amari, S. D. M. vol, I, p. 394

(٣) ابن عذارى في المكتبة : ٣٥٥ .

(٤) ابن الأثير ١٣٧/٦ والمكتبة : ٢٢٢ وأمرهم أسد أن يحملوا على رؤوسهم سيا يعرفون بها ليلا ( انظر المكتبة ١٨٥ عن رياض النفوس ) .

(٥) ابن عذارى في المكتبة : ٣٥٥ .

(٦) يقول ابن خلدون إنه دفن في بلرم والنص يفيد أن بلرم كانت قد فتحت وهو نص غريب ، إذ يقول بعد قليل ان بلرم فتحت بالأمان سنة ٢١٧ ( انظر المكتبة : ٤٦٧ ) .

(٧) ابن الأثير ١٣٨/٦ والمكتبة : ٢٢٣ .

والذهاب إلى الغاية في التضحية بالنفس ، وقد كانت الأوبئة والجاعة والخسارة في الأرواح كافيةً لأن تخلق اليأس في نفوس الجند المحاربين ، ولكن يشبه أن يكون فتح صقلية عناداً مستمداً من قوة النفسية التي خرج بها أسد فاتحاً أكثر من كونه سعيّاً وراء غنيمة أو كسب . وكان مما يزيد المحاربين حرجاً انشغال زيادة الله بفتنه في الداخل وغزاة من الخارج . ولما أصبح في مقدور زيادة الله أن يمدّهم بالجند فتحوا بلرم سنة ٢١٦ هـ .

وكان فتح بلرم خطوة كبيرة أدت إلى الاستيلاء على سائر الجزيرة ، فلم يعد المسلمون في حاجة إلى الانحياز في معسكرات أو قلاع صغيرة ، وكانت بلرم مدينة بحرية جيدة الميناء ، واتصالها بأفريقية سهل ، ولذلك أصبح في استطاعتهم أن يعتمدوا على مدد دائم من أفريقية ، وأن يحصلوا على المؤن باستمرار . ثم إن المنطقة حول بلرم خصبة يمكنها أن تزود عساكرهم بمؤن كثيرة<sup>(١)</sup> . ولذلك اتخذها المسلمون قاعدة لهم كما فعل الفينيقيون من قبل ، وأخذوا يزحفون منها على النواحي الأخرى من صقلية فإذا قضوا مهمتهم عادوا إليها . وأخذت السرايا تخرج كل يوم فتغير في أنحاء الجزيرة ، وترجع محملة بالرقيق والغنائم . وكان من أثر عمليات النهب هذه أن ضعفت روح المقاومة عند كثير من المدن والقلاع ، فاستأن كثير منها إلى المسلمين<sup>(٢)</sup> وبثت السرايا الرعب حيثما اتجهت . وعلى هذه الأعمال التمهيدية اعتمد الفتح في كثير من الأحيان ، وكان حرق المزروعات خطة مقصودة لتوهين الناحية الاقتصادية ومن ثم إضعاف روح المقاومة عند السكان . إذ كانت المقاومة التي يلقاها المسلمون مزدوجة ، فهم يواجهون القوات المحلية التي يقودها بطريق صقلية ، ويواجهون الجيوش والأساطيل التي ترسلها حكومة القسطنطينية لتدافع عن الجزيرة . وكانت أعنف مراكز المقاومة ثباتاً هي قصر بانه وسرقوسة وطبرمين ومنطقة دمنش ، ولذلك كانت السرايا المبتوثة تحاول في يأس أن تعمل شيئاً . واستولى المسلمون على مسينة

(١) انظر أماري S.D.M. المجلد ١ ص ٢٦ .

(٢) ابن الأثير ٦ / ٢٠٢ والمكتبة : ٢٢٨ .

فانفتحت أمامهم الطريق إلى جنوبي إيطاليا . والظاهر أن جهودهم هذه حولت انتباههم عن بقية صقلية ، وأتاحت للمدن فرصة تتقوى فيها . لكن أعمال السرايا القائمة على التخريب لم تنقطع فكانت تخرج في الصيف والشتاء .

وانضم إلى هذه الأعمال الابتدائية عامل ساعد على الفتح ، وبه أمار الركن الثاني من المقاومة — ذلك هو الحيانة المحلية فبمساعدها تم الاستيلاء على قصر يانة في ولاية العباس بن الفضل . ففي سنة ٢٤١ أقام العباس ثلاثة أشهر حول قصر يانة ، يقتل ويصيب ويغنم ، وكان ممن أسره المسلمون رجل كان له عند الروم قدر ومنزلة<sup>(١)</sup> فلما رأى هذا الرجل أنه مقتول ، طلب إلى العباس أن يستبقيه ووعده بأن يسهل للمسلمين فتح قصر يانة — كان الوقت شتاء والثلج قد غطى البقاع ، وأهل قصر يانة آمنون من قصد المسلمين وغير مستعدين للقاء ، فأرسل العباس مع الرومي نحو ألفي فارس من عسكره ، فدلم على المدخل إلى المدينة ، فدخلوا ووضعوا السيف في الروم وفتحو الأبواب ، ولما دخلها العباس بنى فيها في الحال مسجداً ونصب فيه منبراً وخطب فيه الجمعة ، وقتل من فيها من المقاتلة وأسر من فيها من بنات البطارقة بحلين ، وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه ، وأهدى من سبيها للمتوكل وبسقوطها ذل الشر يومئذ بصقلية ذلاً عظيماً<sup>(٢)</sup> . وارتجت المعنويات واهترت لسقوطها القسطنطينية ، وأرسلت أسطولا ليثأر لها ففجأه المسلمون وقضوا عليه .

ولم تعرف صقلية بالهزيمة لأن قسمها الشرقى وهو أقربها إلى القسطنطينية كان لا يزال ممعناً في المقاومة بتحريض من الإمبراطور ، بل إن كثيراً من القلاع التي استسلمت للمسلمين انتقضت عليهم سنة ٢٤٦ ولم يجد الوالى المسلم بداً من تحصين قصر يانة ، لتكون ملجأ يلوذ به المسلمون كما يلوذ الروم بسرقة . بل إن العباس حاول التحرش بسرقة نفسها ولكن منيته أدركته عند غيران قرقة ، وطويت بموته صفحة من البطولة والشجاعة والجهاد

(١) ابن الأثير ٢٠/٧ والمكتبة : ٢٣٢ .

(٢) ابن الأثير ٢٠/٧ والمكتبة : ٢٣٢ - ٢٣٣ .

الدائب، فدفنه المسلمون هناك وجاء الروم فنبشوا القبر وأحرقوا جثته (١). وسار خلفاؤه على سبته في بث السرايا وتخريب المزارع ، والاستفادة من الحياة المحلية ، وبواسطتها سلمت نوطس ، واستأمنت رغوس، وظلت سرقوسة ممتنعة وقصارى كل وال أن ييـث في أرضها السرايا فيغنم ويحرق . وكاد المسلمون يستولون على طبرمين بعون من الحياة سنة ٢٥٥ ولكن البطء في تنفيذ الخطة عاقهم عن ذلك (٢) .

وبعد عشرين سنة من سقوط قصر يانة جاء دور الركن الثالث من أركان المقاومة وأمير صقلية يومئذ جعفر بن محمد . وظلت سرقوسة التي ظن أسد ابن الفرات أنه يستطيع فتحها تقاوم مائة تزيد على خمسين سنة؛ ولم تهـن عزيمتها إلا حين استطاع جعفر أن يملك بعض أرباضها ، ووصات إليها مراكب الروم فأصابها المسلمون ، وتمكنوا من حصر المدينة واستمر الحصار تسعة أشهر عانى فيها السكان شدة وضيقا ، ويحدثنا ثيودوسيوس في رسالة كتبها يصف فيها حصار المسلمين لبلده وكيف قاومت وكيف سقطت Epistolae de expugna-tione Siracusarum ، يحدثنا أن المسلمين أعدوا لحصار سرقوسة كل ما قدروا عليه من آلات الحصار (٣) . ثم نفذت المؤن من المدينة وانتشرت المجاعة بين الناس، ويقول ثيودوسيوس الراهب الغرماطيقى في لهجة حزينة: لقد أتينا على كل الدواجن واضطررنا أن نأكل ما كانت تحصله أيدينا ، دون أن نرعى فروض الصوم ، لأن الحبوب والأعشاب والزيت كانت كلها قد نفذت ، وأما صيد السمك فوقف منذ أن قبض العدو على زمام الميناء . وكان المقدار الضئيل من القمح — إذا تيسر — يسوى مائة وخمسين بيزانته ذهبية ( الواحدة — ١٠ شلنات ) ومن الطحين مائتين ، وأوقيتا الخبز ببيزانة واحدة، ورأس حصان أو حمار يباع بخمسة عشرة أو عشرين، أما الفرس فلا يتيسر شراؤها بأقل

(١) عن ابن الأثير ٢١/٧ والمكتبة : ٢٣٤ .

(٢) عن ابن الأثير ٣٤/٧ والمكتبة : ٢٣٦ .

(٣) انظر أمارى S.D.M. المجلد الأول : ٥٣٧ .

من ثلاثمائة . . . (١) وكان لا بد لجيش اختلطت فيه ألوان كثيرة من الجنود أن لا يكون مثاليا في تصرفاته حين يستولى على إحدى المدن ولكن ثيودوسيوس لا ينكر حدوث ما يدل على المعاملة الحسنة والنظام بين الجنود والطاعة لأوامر قائدهم الأعلى . وفي النهاية جعلت سرقوسة تهاً من الخرائب، ولم تبق فيها نسمة حياة، ولم يكن هنالك ثيوقريطس أو ابن حمديس ليكي مصرع وطنه (٢) . وأخلى المسلمون المدينة ونقلوا الأسرى والغنائم إلى بلرم (٣) وكان على هؤلاء الأسرى أن يستطعموا مرارة أخرى سوى مرارة الأسر ، تلك هي رؤيتهم مدينة بلرم التي كانوا يرون من الحطة أن يقيموا لها وزنا - رؤيتهم بلرم تحنهم تحت نيرها . وثارت في نفوس أولئك الأسرى تلك المنافسة البلدية ولم يستطيعوا أن يفرقوا بين بلرم التي كانت عاصمة لولاية بيزنطية وبين بلرم عاصمة الحكومة الإسلامية (٤) . ويحدثنا ثيودوسيوس بأنه نقل مع الأساقفة ورؤسهم صوفرونيوس بعد خمسة أيام إلى الأمير الأعلى ، ويعني به والي صقلية ، فوجدوه « جالسا في رواق وقد احتجب عن الأعين خيلاء وجبروتا » . وتحدث الأمير إلى رئيس الأساقفة والمترجم بوجه الحديث بينهما في جدل ديني قصير ، ثم أذن لهم فانصرفوا (٥) .

كان سقوط سرقوسة نهاية محاولات طال مداها ، ولكن لم ينته به كل عناء . فقد بقي أكثر القسم الشرقي غير خاضع للمسلمين ، وظل الروم يحددون محاولاتهم لاسترداد ما فقدوه، وظلت قطنانية وطبرمين وغيرها من المدن الشرقية شوكة في جنب المسلمين ، وكانت الروح الدينية في هذه المنطقة ذات أثر في إذكاء نار المقاومة . وظل والي بلرم يخرج بجيشه أو يبعث سراياه ويفسد الزروع والثمار ويحرق الكروم . ولما قرر إبراهيم بن الأغلب الخروج في

(١) المصدر نفسه : ٥٣٩ - ٥٤٠ .

(٢) Amari, S. D. M. vol, I pp. 547-48.

op. cit. p. 548. (٣)

op. cit. p. 549. (٤)

Amari : S. D. M. vol, I, p. 549 (٥)

جهاد متسع الأطراف سنة ٢٨٩ استطاع فتح طبرمين وكان وقع الخبر على سماع الإمبراطور مؤلماً<sup>(١)</sup> ، وارتكزهم إبراهيم في منطقة دمنش ، ولكن منيته لم تمهله ليتم فتح هذه المنطقة، وأخذت الفتن المحلية تشغل بال المسلمين، ووافق ذلك ظهور العبيدين وسقوط الأغالبة ، وكان هم أول وال عبيدى على صقلية أن يحارب دمنش، ولكن استمرار الفتن مدة طويلة أراح شرق الجزيرة من إلحاح الجيش الإسلامى ، حتى طبرمين التى افتتحها إبراهيم عمرت من جديد واضطر أحد ولاة الكلبيين على الجزيرة أن يعاود فتحها سنة ٣٥١ هـ ، ويهدمها . وبقيت المنطقة الشرقية غير معترفة تماماً بسطان المسلمين إلى آخر أيامهم في الجزيرة . وقنع منها الولاة بالجزيرة ووجهوا همهم إلى الفتح في جنوبي إيطاليا أو إلى صد الروم عن إنجاح محاولاتهم للاستيلاء على شىء في الجزيرة .



### الفتن الصقلية في فترة الانتقال من يد الأغالبة إلى بنى أبي الحسين الكلبيين

طال عهد الشقاق والفتنة بصقلية عند تغير الحكومة في أفريقية بزوال دولة الأغالبة وقيام العبيدين ، وربما كانت تلك الفتن المتكررة ( ٣٠٠ - ٣٢٧ ) تعبيراً عن محاولات للاستقلال ، وشعوراً داخلياً من شيوخ الجزيرة بكرهمم للتبعية لأفريقية ، ولكنها لم تكن كذلك في كل مظاهر العصيان ، بل كانت أحياناً أخرى مسببة عن كره بعض الولاة للحكومة الشيعية الجديدة وميلهم بعواطفهم إلى الخلافة العباسية ، ومنذ هذا الحين نجد صقلية أولاً ، وشمال أفريقيا ثانياً ، مسرحاً للتنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، وكانت الفتن في أحيان أخرى نتيجة ظلم الولاة واعتبارهم صقلية كترّاً يغتربون منه ما يملأ جيوبهم وخزائن دولتهم بالمال . وضرب الصقليون في هذه الفترة أمثلة كثيرة في التقلب وعدم الثبات على حال ، وفي فرغهم إلى العدو الخارجى يستغيثون

(١) عن ابن الأثير ٩٤/٧ والمكتبة : ٢٤١ .



به ، كأنما كانت تسيرهم المصلحة العاجلة وحدها دون بعد في النظر ، وسيظل هذا هو الداء العضال الذي تشكوه صقلية ، بحكم موقعها ، وسيكون هذا الداء سبباً في القضاء على السيادة الإسلامية في أرجائها .

ونستطيع أن نتصور التبعية المطلقة التي كانت تدين بها صقلية لأفريقية أيام الأغالبة ، إذا عرفنا أن المهدي ، حال تسامحه المقلد ، أرسل إليها بوال وقاض من قبله ، ولا نعرف أنه حاول عندئذ أن يرى رأى صقلية في المسألة ، ولا أنه حسب لامتناعها عليه حساباً ، فأعد لإخضاعها أسطولا إن هي حاولت أن تقف موقف المعاند الجريء .

ولم يثر الصقليون على أول ولاية المهدي ، إلا حين أساء السيرة فيهم ، واعتذروا إلى المهدي مما فعلوه فقبل عذرهم ، وولى عليهم والياً آخر ، فلما أنسوا منه ليناً وضعفاً ، عزلوه وولوا عليهم أحمد بن قهرّب<sup>(١)</sup> . ومن الطريف أن أحمد هذا كان كارهاً تولى الأمر فهوهم من الصقليين وتوارى عنهم في غار<sup>(٢)</sup> . غير أن إلحاح وجوه البلد عليه وتعهدهم له بأن لا يخذلوه جعله يقبل . والحقائق التي نستطيع جمعها عن هذا الولي الجديد تصوره رجلاً بعيد الطموح ، ولكن يشك في بعد نظره — كان يفهم طبيعة الصقليين فهماً تاماً ، ويعرف أن العنصر الصقلي قد قوى إلى حد لا يستطيع إخضاعه أو قهره بالعسكر الصقلي نفسه ، إذ كان من السهل أن يتفاهم الشعب والجيش على خصومة الولي الأجنبي عنهم . وكان يعلم أن أهل بلرم خاذلوه دون اكتراث كثير لأيمان أو سهود ، ومع ذلك فقد قام بعدة محاولات فيها ما يناقض هذا الفهم فأسرع بنفسه إلى الهاوية ووقع فريسة لتقلب الصقليين .

حاول ابن قهرّب أن يغير العاصمة فأرسل ابنه إلى طبرهين لفتحها ويجعلها حصناً يأوي إليه هو وأبنائه وعبيده وأمواله ، ونسى أن طبرهين امتنعت على كل قائد من قبله ، وغفل كذلك عن أن طبرهين في منطقة مسيحية لا تتجاوب

(١) ابن الأثير ٢٣/٨ والمكتبة : ٢٥١ .

(٢) ابن عذارى في المكتبة : ٣٦٤ .

معه في العواطف ، وأنها لا تصلح حتى أن تكون ميناء يهرب منه إلى المشرق .  
وعند أسوار طبرمين ثبت لابن قرهب فعلاً أن الجند الصقلي كان قد أصبح  
أداة فاسدة ، إذ اختلفوا على ابنه أثناء الحصار وكرهوا طول الإقامة ،  
وأحرقوا خيمته ، وكادوا يفتكون به ، لولا أن حماه العرب <sup>(١)</sup> .  
وحماية العرب له تدل على أن ابن قرهب كان قد انحاز إلى الفئة القليلة ولم  
يكن ذلك يرضى الصقليين .

والظاهر أن ابن قرهب لم يكن في بادئ الأمر يفكر في الخروج على  
المهدي ؛ وشاهد ذلك أنه كتب إليه يقول : إن أهل صقلية يكثر الشغب على  
أمرائهم ولا يطيعونهم ، وينهون أموالهم ، ولا يزول ذلك إلا بعسكر يقهرهم  
ويزيل الرياسة عن رؤسائهم <sup>(٢)</sup> . فثقل هذا القول يدل على إخلاصه  
النصح للخليفة العبيدي ، ولا ندري ما الذي غيره عن هذه الطريقة فإذا به  
يستميل أهل صقلية ، ويقتنعهم بالثورة على المهدي والدعوة لبني العباس ، وإذا هو  
يطمئن إلى الصقليين وينسى سرعة تقلبهم . وأجابه الناس إلى طاعة المقتدر  
فخطب له بصقلية وقطع خطبة المهدي <sup>(٣)</sup> . وكتب إلى المقتدر ببغداد أن يكون  
داعياً له وقائماً بأمره بجزيرة صقلية ، فأنفذ المقتدر ذلك له ، وبعث إليه بألوية سود  
وخلع سود وطوق ذهب ، ولما وصل إليه ذلك سرّ به ، وأظهر الحزم والجحد في  
في أمره <sup>(٤)</sup> ، فبدأ بالمقاومة العملية فأحرق أسطول المهدي بمرسى لمطة وقتل  
قائده وأسر من أصحابه نحو ستمائة رجل ، وبلغ الأمر عبيد الله فأرسل جيشاً يدافع  
عن الأسطول ، ظناً منه أنه لا يزال يمكن إنقاذه ، فظفر ابن هرقب بأصحابه  
وغنم ما معهم . ثم اتسعت خطة ابن قرهب فأراد أن يغزو المهدي في عقر داره  
فبعث بأسطول إلى أفريقية ، ولكن أسطول المهدي انقضض عليه ، وأخذ مراكبه ،

(١) ابن الأثير ٢٣/٨ والمكتبة : ٢٥٢ .

(٢) ابن الأثير ٢٣/٨ والمكتبة : ٢٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢٣/٨ والمكتبة : ٢٥٢ .

(٤) ابن عذاري في المكتبة : ٣٦٤ .

وطارت أحلام ابن قهرّب في لحظة .

واستيقظ أهل صقلية من سحر ابن قهرّب ، ورأوا أن الوقت حان لإعلان العصيان ، وكان البادىء بذلك أهل جرجنت فكتبوا إلى المهدي ، وتبعهم في ذلك أهل البلاد الأخرى ، وثارت صقلية كلها على ابن قهرّب ودعوته العباسية ، ولم تنفعه خلع المقتدر وألويته . وحاول مداراة أهل البلد وملايئتهم فلم تثمر محاولته ، ثم فكر في النجاة إلى الأندلس واكترى مراكب وشحنها متاعاً ، فحال أهل صقلية بينه وبين ما أراد ، وانتهبوا ما كان له وأسروه هو وابنه وقاضيه ابن الخامى<sup>(١)</sup> . وبعثوا بهم إلى المهدي فقتلهم وصلبهم وانتهت بذلك هذه الحركة الخطيرة .

ولم يكن أهل صقلية جادين في تحويلهم نحو العبيديين ، كانوا يريدون الخلاص من ابن قهرّب فتم لهم ذلك ؛ ثم أرادوا أن تكون الحكومة في أيديهم وأن لا يكون للمهدي إلا الاسم ، فأرسلوا يطلبون منه واليا وقاضياً ، ويظهرون عدم احتياجهم إلى رجال أو مدد<sup>(٢)</sup> ، ويشترطون شروطاً خاصة ، وكانوا ينوون من ذلك أن تظل المبادرة في أيديهم ، وأن يتحكموا في الولى كيفما طاب لهم ، ولكن ابن قهرّب لم يمت قبل أن يفضى للمهدي بسر حالهم ، وعرف المهدي كيف يؤدهم ، فجهز إليهم جيشاً من الكتاميّين أنصاره الخالص ، وأخرجهم في أسطول فأظهرت بلرم الامتناع ، فحاصرها القائد بجيشه وقتل جملة من أهلها ، وأحال كتامة على من ألقى في أرباض المدينة من النساء والذرية فعبثوا بهم واقترع الجوارى الأبركار<sup>(٣)</sup> . وعندئذ طالب أهل صقلية الأمان ودفعوا لقائد المهدي المحرضين على الفتنة ، فأمنهم وهدم سور مدينتهم وأخذ سلاحهم وخيلهم وضرب عليهم مغرمًا ، وبعث بمن أخذ منهم إلى عبيد الله في مراكب فانكفأت بهم في البحر<sup>(٤)</sup> . وأتاه كتاب من المهدي يأمره بالعفو

(١) المصدر السابق : ٣٦٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٦٥ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه : ٣٦٦ .

عن العامة<sup>(١)</sup> . وولى صقلية سالم بن أبي راشد وجعل له حرساً من كتامة . وكان سالم مثال الوالى الظالم العسوف ، فعهد بحكم المدن إلى ولاية غلاظ قساة ، وحاك بالناس ظلم أخرجهم عن طورهم وأدى بهم إلى الاستماتة فى مقاومة ذلك العسف ، فثارت جرجنت<sup>(٢)</sup> واقتدت بها بلرم فأرسل سالم إلى الخليفة القائم يعرفه أن أهل صقلية خرجوا عن طاعته وخالفوا عليه ، فأمدّه بجيش على رأسه خليل بن إسحاق . واستقبل الناس خليلاً بالشكوى ، وخرج إليه النساء والصبيان يبكون ويشكون ، حتى رق الناس لهم وبكوا لبكائهم<sup>(٣)</sup> . وتذمروا من سالم وسياسته ، وظنوا أن الخلاص سيكون على يدى خليل ولكن سرعان ما كذبهم الظنون فإن سالماً خلا بهم وأفهمهم أن خليلاً جاء ليستقم منهم بمن قتلوا من عسكره ، وتحقق لديهم صدقه حيناً أخذ خليل يهدم أسوار بلرم ، ويبنى عند المرسى مدينة ويحصنها ، وهى التى سماها « الخالصة » وأرهب الناس فى أعمال البناء ، فخاف أهل جرجنت ، وحصنوا مدينتهم واستعدوا للحرب ، فسار إليهم خليل سنة ٣٢٦ هـ وحاصره ثمانية أشهر ولم يخل يوم واحد فيه من قتال ، ولما حل الشتاء رحل عنهم إلى الخالصة .

وسعى أهل جرجنت فألبوا عليه المدن الأخرى ، وفى السنة التالية ثارت جميع القلاع وأهل مازر . وكاتب الجرجنتيون ملك القسطنطينية يستنجدونه فأمدهم بالمراكب فيها الرجال والطعام . وفزع خليل ورأى أن صقلية تؤول إلى الانفلات من قبضة العبيدين فاستنجد بالقائم فأمدّه بجيش كبير ، فأخذ يحاصر القلاع ، حتى انقضت سنة ٣٢٧ وضيق على جرجنت ، وظل يحاصرها حتى سنة ٣٢٩ ، فسار كثير من أهلها إلى بلاد الروم ، وتنصر أكثرهم ، وطلب الباقون الأمان فأمنهم على أن يتزلوا من القلعة ، فلما نزلوا غدر بهم وحملهم إلى المدينة ، ولما سقطت زعيمة الثورة أدعنت سائر القلاع ، وهذأت

(١) ابن الأثير ٢٤/٨ والمكتبة : ٢٥٣ .

(٢) كان والى جرجنت من قبل يسمى ابن أبي حمران ، المكتبة : ٤٣٧ عن النويرى .

(٣) ابن الأثير ١٠٨/٨ .

صقلية بعد أربعة أعوام قضائها خليل في حرب وحصار . ولما عاد إلى أفريقيا أخذ معه وجوه أهل جرجنت وفي عرض البحر خرق بهم السفينة فغرقوا . وذات يوم كان خليل في أحد المجالس وحوله جماعة من وجوه الناس . والحديث بينهم ينتظم ويفترق ، ولما بلغ القوم الحديث عن صقلية قال خليل مفتخراً « إني قتلت ألف ألف يقول المكثّر ، والمقلل يقول : مائة ألف في تلك السفرة » ثم قال : لا والله إلا أكثر ؛ فرد عليه واحد من الجماعة بقوله : يا أبا العباس لك في قتل نفس واحدة ما يكفيك » (١) .

## ٥

### صقلية تحت حكم بني أبي الحسين الكلبيين

ولم تحب صقلية ولاية من قبل الخليفة الشيعي كما أحببت بني أبي الحسين . ففي سنة ٣٣٦ هـ تولى أمرها الحسن بن علي بن أبي الحسين من أسرة الكلبيين وكانت هذه الأسرة من أخلص أعوان العبيديين ، ولأفرادها مواقف جليلة في خدمة الدولة الفاطمية أثناء ثورة أبي يزيد ؛ وتقديراً لخدمات الحسن كافأه الخليفة المنصور بولاية صقلية ، وتلقته بلرم كما كانت تتلقى من قبله من الولاة ، إذ كانت أطماع الرؤساء المحليين لا تزل مصدرراً للقلق في المدينة . وكان آل الطبري هم زعماء المقاومة فيها . ولم يكن مع الحسن حينما نزل صقلية جيش يعتمد عليه في مقاومة المشاغبيين ، ولكنه استطاع بدهاء فذ أن يفسد خططهم . ووجد في بلرم جماعة قد سئموا كثرة التقاب ورغبوا في السلامة فانضحموا إلى الولي الجديد وانحاز إليه أصحاب الدواوين وكل من يريد العافية (٢) . ومال

(١) انظر تفصيل الأخبار عن خليل بن إسحاق عند ابن عذارى في المكتبة : ٣٦٨ والحلة السيرة ، المكتبة : ٣٣٠ وانفرد النويري بالقول إن أهل صقلية أطاعوا خليل بن إسحق فأكرمهم وعزل عنهم عمال سالم ثم سكت عما ورد في المصادر الأخرى .

(٢) ابن الأثير ١٥٦/٨ والمكتبة : ٢٥٨ .

إليه كل منحرف عن بى الطبرى . ورأى أهل المدينة بشائر عدله حين قتل غلاماً له اتهم بالتعدى على أهل البلد<sup>(١)</sup> فتأكدوا أن هذا الوالى يختلف عن سبقوه ، واستبشروا به . ولما ثبتت قدمه فى المدينة قبض على أهل الفتنة وصادر أموالهم<sup>(٢)</sup> .

وظل الحسن فى صقلية خمس سنين . ولما توفى حزن عليه أهل صقلية حزناً عظيماً لما كان قد أجرى الله على يديه من العدل وظهور الخير<sup>(٣)</sup> .

وتعاقب على صقلية من الكليبيين عشرة ولاة فى مدى خمس وتسعين سنة شهدت فى أثناءها تقدماً فى الحياة العمرانية وفى العلوم والآداب ، كما شهدت جهادهم المستمر فى جنوب إيطاليا وفى مقاومة أطماع الروم فى الجزيرة . وأخذت صقلية إلى الهدوء وجنت من ذلك خير الثمار . وكان من أسباب هذا الهدوء انشغال الجند فى أكثر الأوقات بالحروب فى جنوب إيطاليا ، وإخلاص الكليبيين فى الدفاع عن صقلية ، واعتبار أنفسهم مستقلين استقلالاً داخلياً فى شئون الجزيرة . وقد استطاعوا منذ البدء أن يرضوا الطامعين المحليين فى سنة ٣٤٧ سار أحمد بن الحسن الكلبي ثانى ولاة الجزيرة من أسرة بنى أبى الحسين ومعه ثلاثون رجلاً من وجوه الجزيرة إلى المعز بأفريقية فباعوه وخلع عليهم المعز<sup>(٤)</sup> وفى نسخة كبريدج العربية من تاريخ صقلية أن الذى ذهب بهم إلى أفريقية هو الحسن الوالى الأول ( سنة ٣٤٦٩ = ٩٦٦م ) وينص هناك صراحة على أنه أدخلهم فى مذهب أمير المؤمنين وكثر مقتناهم وأفضالهم<sup>(٥)</sup> .

ومعنى ذلك أن العناصر القلقة التى كانت تطالب لنفسها الزعامة قد أرضيت بالمال والتقرب من الخليفة ، وأن الوجوه دخلوا فى المذهب الشيعى ولا

( ١ ) المصدر السابق

( ٢ ) المصدر نفسه والمكتبة : ٥٩ .

( ٣ ) Gentenario المجلد الثانى : ٤٧٧ عن أعمال الأعلام . والاختبار عن وفاة الحسن فيها شئ من الاضطراب فأكثر المصادر أنه هاجر من صقلية وعند ابن خلدون أنه توفى من شدة فرجه عند ما جاءته الأخبار بانتصار المسلمين على الروم .

( ٤ ) أبر الفداء ، حوادث سنة ٣٣٦ ، ٩٦٢/٢ والمكتبة : ٤٠٨ .

( ٥ ) تاريخ جزيرة صقلية لمؤلف مجهول ، نسخة كبريدج العربية ، فى المكتبة الصقلية : ١٧٥ .

ندرى بعد هذا الخبر كيف كان حال التشيع فى الطبقات الأخرى. وابن حوقل وهو داعية من دعاة الفاطميين ينحى بالذم الشديد على الصقليين لكثرة ثورتهم على السلطان، فهل يفهم من هذا أن طبقات الشعب كانت تكره الخلافة الفاطمية ؟

واستدعى المعز الأمير أحمد ففارق صقلية بجميع أهله وماله وأولاده وإخوته فركبوا فى ثلاثين مركباً ولم يبق منهم بصقلية أحد<sup>(١)</sup> ، وولى الجزيرة يعيش المولى ففشل فى تهدة فتنة ثارت بين كتامة والقبائل<sup>(٢)</sup> . وتطاول أهل الشر من كل ناحية ونهبوا وأفسدوا على أهل المراعى، واستطالوا على أهل القلاع الآمنة<sup>(٣)</sup> . فأعيد الأمر إلى واحد من الكلبيين وتولى أبو القاسم الحكم سنة ٣٥٩ هـ. وأبو القاسم هو الملقب بالشهيد لأنه استشهد فى غزاته الخامسة بجنوب إيطاليا سنة ٣٧٢ هـ . وكان حسن السيرة فاضلاً محبباً للعلماء والصالحين<sup>(٤)</sup> .

ولعل الجزيرة لم تشهد عهداً كعهد الأمير أبى الفتح يوسف الملقب بثقة الدولة (٣٧٩ - ٣٨٨) فقد عهد إليه أبوه بولاية صقلية وأتاه سجل من العزيز من مصر بذلك، فضبط الجزيرة وأحسن إلى الرعايا<sup>(٥)</sup> وأنسى بجلالته وفضائله كل من كان قبله من بنى أبى الحسين<sup>(٦)</sup> . وكانت أيام الناس بصقلية فى مدته على أفضل ما يشتهون . وقد ضبط البلد ضبطاً عظيماً وأداخ الروم واستقامت له الأمور ، وظهر من كرمه وجوده على سائر الناس ما لا يحيط به وصف<sup>(٧)</sup> . وكان بلاطه فى بلرم مقصد العلماء والأدباء وظل قائماً بالأمر خير قيام حتى أصابه فالج عطل نصفه الأيسر فتنازل لابنه جعفر .

(١) النويرى فى المكتبة : ٤٤١ .

(٢) ابن خلدون ٢٠٩/٤ والمكتبة : ٤٨٢ .

(٣) ابن الأثير ٢٠١/٨ والمكتبة : ٢٦٧ .

(٤) Centenario ٤٧٧/٢ .

(٥) النويرى ، المكتبة : ٤٤٢ .

(٦) ابن خلدون ٢١٠/٤ والمكتبة : ٤٨٣ .

(٧) Centenario ٤٧٩/٢ - ٤٨٠ .

وأول وهن حدث في حكم الكلبيين اختلاف أفراد منهم فيما بينهم على الإمارة، فقد ثار على جعفر الملقب بتاج الدولة أخوه على<sup>١</sup>، واستفاد من الخلاف العنصرى في الجزيرة فاستمال إليه البربر والعبيد، وقام بين الأخوين قتال مرير راح فيه كثير من مشايعى على، وأسر على نفسه فقتله أخوه ونفى من بالجزيرة من البربر بأسرهم، فلم يبق منهم أحد وأمر بقتل العبيد فقتلوا عن آخرهم.

وكان انتصار جعفر فاتحة خذلان جديد فإنه حين قضى على البربر والعبيد اتخذ جنده من أهل صقلية، فطمعوا فيه وزادهم تمادياً تغاضيه عن كاتبه حسن بن الباغانى الذى صادر الناس وعاملهم بسوء واستحدث بدعاً في جباية الضرائب<sup>(١)</sup> وتكرت قلوبهم له حين استخف بأهل صقلية وشيوخ بلادها واستطال عليهم<sup>(٢)</sup>، فخرجوا عليه وحاصروه وعندئذ خرج إليهم أبوه في محفة وكانت له منزلة في نفوسهم، فلما رأوه هدأت ثائرتهم وطلبوا إليه أن ينصفهم من ابنه، فوعدهم بنزعه من ولايته فوقع اختيارهم على الأكحل أخيه.

وبر يوسف بما وعد فارتحل مع ابنه جعفر إلى مصر، وترك صقلية في يد الأكحل. وتسلم الصقليون حسن الباغانى فقتلوه وطافوا برأسه وأحرقوه بالنار<sup>(٣)</sup>. وهدأت نفوسهم الحاقدة لما رأوا الأكحل يأخذ الأمور بمجد وحزم. وكان إذا خرج في الغزو استخلف ابنه جعفرًا فحاول جعفر أن يوقع التفرقة بين العناصر ونجح في فصل الصقليين عن الأفريقيين والتميز بينهما في المعاملة فحمى الأفريقيين وأخذ يتقاضى الخراج عن أملاك الصقليين وحدهم<sup>(٤)</sup>، وعندئذ لم يعد الصقليون يطيقون تلك الحال، وذهبوا إلى المعز بن باديس سنة ٤٣٧ هـ يطلبون مساعدته وإلا سلموا الجزيرة إلى الروم<sup>(٥)</sup>.

(١) النويرى، المكتبة : ٤٤٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه : ٤٤٤.

(٤) انظر تفصيل ذلك في المكتبة : ٤٤٤ - ٤٤٥ عن النويرى.

(٥) النويرى، المكتبة : ٤٤٥.



واستجاب المعز للصقليين وأرسل معهم ابنه عبد الله بجيش عدده ثلاثة آلاف فارس ، ومثلهم رجال ، فسار إلى الجزيرة وقاتل الأكحل وحاصره في قصره بالخالصة . ثم اختلف أهل صقلية وانحاز بعضهم إلى الأكحل ، فقتله الذين استقدموا ابن المعز غدراً ، ثم اجتمع الصقليون على الندم لإدخال جيش غريب في بلدهم ، وتذكروا لابن المعز وحاربوه ، فانهزم . وأخيراً ولي أهل صقلية عليهم الصمصام أخا الأكحل<sup>(١)</sup> .

## ٦

## أمراء الطوائف

وانتهى عهد الكليين في الجزيرة بإخراج الصمصام من بلرم وسيطرة المشايخ على المدينة ، ثم ظهور جماعة من الزعماء الطامعين يحققون لأنفسهم شيئاً من السلطة ، ويحققون للمدن المتنافسة نوعاً من الاستقلال . أما مازروط رابنش والشاقة ومرسى على فاستقل فيها القائد ابن منكود ، ووقعت قصر يانة وجرجنت من نصيب القائد ابن الحواس على بن نعمة . ثم ثار طامع يسمى محمد بن إبراهيم بن الثمة فاستولى على سرقوسة وتلقب بالقادر بالله . ويقول ابن خلدون : إن أهل بلرم ولوه على أنفسهم حيناً أخرجوا الصمصام<sup>(٢)</sup> وهكذا انقسمت الجزيرة إلى ولايات متعددة .

ويزعم التاريخ أن فتح العرب لصقلية كان من ورائه مشكلة امرأة ثم تأني المصادر العربية أن تغلق صفحاتها على صقلية الإسلامية دون أن تجعل

(١) انظر تفصيل هذه الفتنة عند النويري في المكتبة : ٤٤٥ وابن خلدون ٤/ ١١٠ والمكتبة ص ٤٨٤ والنص عنده مختلف إذ يجعل عبد الله بن الحواس (بدلاً من علي) مستبدًا بمازروط رابنش وهو سهو على الأغلب لأنه صحح التسمية بعد سطرين ويزيد اسم شخص آخر هو ابن المكلاقي الذي استبد بقطانية ثم غلبه ابن اثمة وقتله سنة ٤٣١ .

(٢) ابن خلدون ٤/ ٢١٠ والمكتبة : ٤٨٤ .

للمرأة نصيباً في الإسراع بصقلية إلى نهايتها المحتومة . فتقص علينا هذه المصادر أن ابن الثمنة تزوج من ميمونة أخت علي بن نعمة؛ وذات يوم سكر وتشاجرا فأمر بفصدها، ولولا ابنه للقيت حتفها، فإنه استدعى لها الأطباء فعالجوها حتى شفيت ، وفي صحوه اعتذر لها من فعلته ، فأظهرت قبول عذره ثم استأذنته في الذهاب إلى أخيها فأذن لها ، وقصت على أخيها ما كان من زوجها فحلف أنها لا ترجع إليه ، وألح زوجها يطلب رجوعها ، واشتد أخوها في منعها ، فقامت الحرب بين الأميرين ، ولما انكسر فيها ابن الثمنة ذهب يستنجد بالنورمان سنة ٤٤٤ هـ ، وبدخول النورمان ضاعت السيادة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

وبعد أن تمت هذه الأحداث في صقلية بقليل لقيت القيروان مصيرها السيئ على أيدي العرب . فإن المعز بن باديس الذي كان متردداً في إعلان ولائه للعباسيين حسم في الأمر سنة ٤٤١ هـ فأزال اسم الخليفة العبيدي من السكة ونقش فيها (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين<sup>(٢)</sup>) فانتقم منه المستنصر بأن حرض العرب على الجواز إلى الغرب فتوجه منهم خلق كثير، وهاجموا القيروان وخربوها ، فهاجر كثير من أهلها إلى صقلية .

## ٧

### الحكومة الإسلامية بصقلية

افتتحت صقلية الإسلامية عهداً بأسد بن الفرات والياً وقاضياً، ولكن هذا الجمع بين الوظائف لم يدم طويلاً ، فما كاد المسلمون يحتلون بلرم ويتخللونها عاصمة لهم حتى أصبح والي والقاضي شخصيتين متميزتين . ويحدثنا الرشاطي

(١) انظر ابن خلدون ٢١٠/٤ - ٢١١ والمكتبة : ٤٨٤

(٢) Centenario ٤٥٥/٢ عن أعمال الأعلام وانظر عن فتك المعز بالشيعية في المغرب كتاب الاستبصار لمجهول كريم ، ص ٥٥ ط . فينا . وفي الذخيرة ٤ المجلد الأول : ٦٨ أن المعز عام ستة وأربعين صرف خطبته إلى صاحب مصر ونبة العباسية وهو خير مستغرب .

أن زيادة الله بن إبراهيم الذي فتحت صقلية في زمنه ولي على صقلية ابن أخيه أبا الأغلب قطيعة له - فكانت له بجميع ما فيها - وركب إليها من سوسة في مراكب كثيرة ومعه خيل ورجال أتوا من نواحي أفريقيا لما يعلمون من كرمه وجوده<sup>(١)</sup>. ونستطيع أن نتصور من حال زيادة الله نفسه أن والى صقلية ربما قلده في اتخاذ مجلس استشاري من حوله، وهو الذي كان يسمى في القيروان « الجماعة » ولذلك نسمع في تاريخ صقلية دائماً عن شيوخ المدينة ( بلرم ) . ولا ننظر أن هؤلاء كانوا مجرد زعماء وإنما المعتقد أنهم كانوا يزاوون بعض السلطان إلى جانب والي . وكان لا بد من وجود هذه الصبغة الإدارية في الجماعة لأن والى صقلية في أيام بني الأغلب لم يكن يزيد على قائد عارف بفنون القتال ، مستعد للغزو والجهاد ، وكثيراً ما كان الجيش ينتخب والي دون أن ينتظر مجيء وال جديد من أفريقيا . على أنه لا بد أن نلاحظ أنه ليس من الواضح لدينا إن كان الذي بولي والي هو الجيش أو شيوخ البلد أو الفريقان معاً . ولا نسمع عن وال في العهد الأغلبي لم يكن يخرج في الغزو إلا عن الأمير محمد ابن عبد الله بن الأغلب فإنه كان مقياً ببلرم لم يخرج منها وإنما كان يخرج الجيوش والسرايا فتفتح وتغنم . وتحدثنا المصادر أن العباس بن الفضل لما وقع عليه الاختيار أخذ يث السرايا وهو مقيم في بلرم ، فلما جاءه التصديق على ولايته من أفريقية قاد الجيش بنفسه . وربما أشار هذا إلى أن قيادة الجيش كانت هي الصفة الأولى التي تفترض حكومة القيروان توفرها في والي . وكان أكثر الولاة في الدولة الأغلبية من أسرة بني الأغلب أو من أقربائهم . وليس بين أيدينا مادة تصور شخصيات الولاة أو تميزهم سوى كثرة الحرص على الجهاد والغزو ؛ إلا ما كان من أمر أبي مضر زيادة الله فإنه كان في أثناء ولايته على صقلية عاكفاً على اللهو وشرب الخمر ولم يرض هذا أباه فعزله . وقد رأى الراهب ثيودوسيوس والي بلرم - وهو يومئذ جعفر بن محمد - ووصفه بأنه

متكبر متجبر، واستدل على ذلك من جلوسه وراء حجاب . ولم يكن الوالى يستند إلى حرس خاص ولذلك نسمع عن وثوب أهل صقلية به وعزله أو إخراجه من بينهم .

وكان الوالى يسكن القصر فى بلرم ويودع فيه المال والسلاح والكساء<sup>(١)</sup>. ومن قصره ذاك كان يشرف على نواحي المدينة وكان له أن يعين من قبله ولاية على المدن يخضعون له مباشرة .

وظل الحال كذلك فى أيام الكليبيين إلا أن الاستقرار وخضوع أكثر أجزاء الجزيرة للمسلمين مكن الوالى من توسيع سلطانه الإدارى والاهتمام به . ومنذ أن بنى خليل بن اسحاق الخالصة أصبحت هى مركز الوالى بدلا من القصر القديم، ومن حوله الخالصة . وأصبح كل وال بعد ابن قرقب يتمتع بحماية حرس غريب عن الجزيرة . فلم يعد فى إمكان أهل صقلية أن يطردوه بسرعة، إذ صار فى إمكانه أن يتحصن منهم ويقاثلهم فى مدينتهم . ومحك الخبرة عنده أن يتمكن من إقرار التوازن بين العناصر فلا يتظاهر بتفضيل عنصر على آخر وأن لا يمس المسائل المالية بتغيير يضر بصالح الأهالى . إلا أن بعض الولاة كان يطلق يد أعوانه فى صقنية فيستبيحون لأنفسهم الغلو فى تقاضى الأموال . وارتبطت صقلية فى أيام الكليبيين بالخلافة الفاطمية فى أفريقية وأصبح يدعى على منابرها للخليفة الفاطمى<sup>(٢)</sup> وبذلك أصبح الوالى الصقلى ممثلا للخليفة ثم انتقل الفاطميون إلى مصر ، ولا شك أنه كان فى جيش جوهر الصقلى كثير من الصقليين ، فالعنصر الصقلى فى جيش العبيديين وأساطيلهم أقدم من ذلك ومنذ سنة ٣٠٧ هـ نجد أسرى صقليين فى مصر، وقد منّ عليهم حاكمها بالإطلاق بعد تغلبه على جيش أخرجه صاحب أفريقية لقتاله<sup>(٣)</sup> . وبارتباط صقلية

(١) انظر Centenario ٤٧٦/٢ .

(٢) هذا هو الشيء الطبيعى والنص صريح فى مسالك الأبصار ج ٣ المجلد الأول الورقة ١٢٨

بأنه خطب لهم بجزيرة صقلية .

(٣) الكندى: الولاة والقضاة : ٢٧٦ نشر جست .

بمصر أصبحت تآثرها في أساليب الحياة ويهاجر إليها طلاب العلم وتقوم فيها الأنظمة الحكومية على غرار ما هي في مصر .

وكان الولى في صقلية يدين بنوع من التبعية للقاهرة ، ويستمد منها القوة الإدارية والحربية ، ولا بد أن يكون في يده سجل بولايته من الخليفة ، وأن تصله منه الخلع والألقاب والتشريفات . وأصبحنا نسمع في صقلية ألقاباً مثل ثقة الدولة وتاج الدولة وتأييد الدولة وصمصام الدولة ولعل هذه الألقاب استحدثت منذ أيام الخليفة الحاكم أو قبله يقليل<sup>(١)</sup> ولم تنفك مصر عن هذه المراسيم بتقليد الولاية حتى كانت آخر خلع وصات من مصر للصمصام<sup>(٢)</sup> .

ولم يكن الخليفة يكتفى بهذا النوع من التدخل ، أو يقنع بهذا القدر من العلاقة بينه وبين الولى في صقلية ، بل كثيراً ما كان يتدخل في الشؤون الداخلية معتبراً صقلية جزءاً من مملكته ، له حق التصرف فيه ؛ فكان يعقد الصلح مع الروم على شروط نافذة في صقلية ، دون أن يأخذ رأى واليها ولم يكن للولى إلا أن ينفذ ما يراه سيده مناسباً وإن كره ذلك وكرهه الناس . عقد المعز صلحاً مع الروم سنة ٣٥٨ هـ على أن يخلى المسامون رمطة وطبرين وأرسل إلى الأمير أحمد في صقلية بتنفيذ ذلك فصدع بالأمر على غير رغبة من المسلمين<sup>(٣)</sup> . وقد يقال إن هذا كان يحدث قبل الإذن للولى بالاستقلال وأن استقلال والى صقلية لم يتم إلا بعد هذه السنة في عهد الأمير أبي القاسم ؛ ولكن حتى بعد إحراز هذا الساطان لم يكن الحاكم يسلم من تدخل الخليفة تدخلا قد يفقده أجزاء من ولايته ، ففي ولاية جعفر بن محمد الكلبي (٣٧٣ - ٣٧٥) كتب إليه العزيز أن يدفع إلى الراهب أخى جاريته السيدة العزيزة قلاها من بلاد صقلية فيها بنقش (؟) وطبرين ورمطة وأن يدفع إليه كل سبي عنده قديم وحادث<sup>(٤)</sup> ، ولولا ماطلة جعفر وتلويحه لسيده بالعصيان لاقتطعت

(١) أول من تقرر المصادر اسمه باللقب هو الأمير يوسف الملقب بثقة الدولة (٣٧٩ - ٣٨٨) .

(٢) انظر أنباه الرواة ، ٥٨٢/١ وقد وصلت الصمصام ألقاب كثيرة .

(٣) النويرى ، المكتبة ص ٤٤١ .

(٤) Centenario ٤٧٩/٢ .

هذه الأجزاء من ولايته وأصبح لصقلية واليان .

وظلت صقلية إلى عهد متأخر ملكاً لسلطان مصر ، على حد تعبير ناصر خسرو<sup>(١)</sup> ونكاد نجزم بأنها كانت تدفع مبلغاً معيناً من المال سنوياً للدولة الفاطمية ، وهذا واضح من قول ناصر خسرو : « وتغادرها كل سنة سفينة تحمل المال إلى مصر<sup>(٢)</sup> » وفي مرآة الزمان<sup>(٣)</sup> أن السبب في استقدام النوردان إلى صقلية عجز وال يسمى ابن البعباع عن دفع المبلغ المطلوب لصاحب مصر مما أدى بالوالى إلى أن يستنجد بالفرنج . وهذا الخبر المتأخر نسبياً ليس له في المصادر الأخرى وجود ، وربما لم يكن فيه من الصحة إلا دلالة على وجود علاقة بين صقلية ومصر تفرض على الجزيرة أداء مبلغ من المال كل سنة .

وكان القاضى أكبر شخصية فى الجزيرة بعد والى وانفصل القضاء عن الإمارة منذ أول الأمر . ولقضاة صقلية فى العهد الأول صورة واضحة قائمة على المثالية والصدوف عن متاع الدنيا فالقاضى رجل زاهد ، أو إن شئت فقل إنه يختار عمداً من بين الزاهدين الذين صدقت ظواهرهم وبواطنهم أو من الفقهاء الصالحين كابن أبى محرز وميمون بن عمرو وسليمان بن سالم الكندى . وكثيراً ما كان القاضى يجمع بين القضاء والتدريس ، وكان بعض المتعنفين لا يتقاضى راتباً فقد خرج أبو عمرو ميمون بن عمرو المعلوم<sup>(٤)</sup> من سوسة للقضاء بصقلية فلم يخرج معه إلا كساء وفروة وخُرُج فيه كتبه وجارية سوداء تخدمه ومعها جبة وكساء وكانت السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك . ولما مرض ودخل عليه الناس يعودونه وجدوا كل ما لديه من أثاث وسادتين محشوتين تبنا وحصيرة من البردى . وعاد إلى سوسة بما خرج به منها ولم يزد

(١) ناصر خسرو ، سفر نامه ترجمة الدكتور الحشاش ص ٤٥ ط . لجنة التأليف ١٩٤٥

(٢) سفر نامه ، ص ٤٥ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، المكتبة : ٣٣٦ .

(٤) فى الأصل الملعون والتصحيح عن تعليقات الأستاذ نلينو على تاريخ أمارى ج ٢ / ٧ من التعليقات .

عليه شيئاً<sup>(١)</sup>. ومن أمثلة هؤلاء القضاة المتقشفين سليمان بن سالم الكندى وكان يقضى ويدرس، ونقرأ أنه لما مات لم يوجد له مال<sup>(٢)</sup> وهذه إشارة قد يفهم منها أنه كان يتقاضى راتباً .

وقد لحظنا من قبل أن القاضى كان يجيء صقلية من الخارج وظل ذلك كذلك مدة طويلة فى أيام الدولة الفاطمية . وفى أيام الخليفة الحاكم أضيف إلى قاضى القضاة بمصر أحكام صقلية مع بلدان غيرها<sup>(٣)</sup> . ولا نسمع عن قاض من صقلية نفسها إلا فى أيام ابن حوقل . ونحن مدينون له بمعرفة قاض ورع من صف القضاة الأولين ليس له فى المصادر الأخرى ذكر وذلك هو عثمان بن الخراز . وقد أراد ابن حوقل — كما هى طريقته فى الذم — أن ينفذ إلى الخط من الجماعة الصقلية فى حديثه عن القضاء فيها، فصور لنا القضاء فى حال انحطاط حين انحدر إلى أيد صقلية ، فالقاضى ممن له سابقة فى قبض الرشا ، والشهود الصقليون يستسهلون شهادة الزور حتى إن ابن الخراز لم يكن يقبل شهادتهم « وصارت أكثر أحكامه جارية على الصلح وشك فيهم فلم تثنه إليهم رغبة ولا رهبة، إلى أن هلك بينهم وحضرته المنية، فقال ليس بجميع البلد من يوصى إليه، ودفع ديوانه إلى رجل كان بها من الغرباء يعرف بالغضائرى من أهل القيروان وكان يزكيه<sup>(٤)</sup> » أما ابن الماجلى القاضى الصقلى الأصل فهو فى نظره معلم برقجاني لم يكن ممن يستحق تولي القضاء وله فصول فيه مضحكة، وكثيراً ما كان يمد يده إلى الحصوم بالضرب<sup>(٥)</sup> . وربما استنتجنا من هذا أن صقلية كانت قد سئمت استقدام القضاة من الخارج وأخذت تشعر أنها مسلووبة السلطان فتزعت إلى أن تعهد بالقضاء لأناس منها كما أنفت مصر ذات يوم أن يكون قاضياً غريباً عنها<sup>(٦)</sup> حين شاءت الدولة

(١) رياض النفوس ، المكتبة : ١٩١ - ١٩٢ .

(٢) عن المعالم ١٣٦/٢ - ١٣٧ .

(٣) الكندى ، الولاة والقضاة : ٦١١ .

(٤) ابن حوقل ١/ ١٢٥ .

(٥) المصدر نفسه (٦) الكندى : ٣٦٩ .

العباسية أن تعاملها بقريب من معاملة الفاطميين لصقلية .  
 وكان للقضاء كتبة ودار خاصة في بلرم منذ عهد مبكر . ونسمع أن  
 ميمون بن عمرو لما وصل المدينة قيل له هذه دار القضاء تنزل فيها فقال " هذه  
 دار عظماء ايش أعمل فيها " فنزل في دويرة لطيفة<sup>(١)</sup> .  
 أما الوظائف الحكومية الأخرى فكان ينهض بها أصحاب الدواوين والموظفون  
 فيها وقد عدت المصادر من الدواوين :

١ - ديوان الخمس

٢ - ديوان الصناعة

٣ - ديوان الخاصة

٤ - ديوان الإنشاء .

أما ديوان الخمس فإن متوليه كان يسمى « صاحب الخمس » وشخصيته  
 ذات شأن في تاريخ صقلية وأدبها، فهو يتولى أمر البلد حين لا يكون لها  
 وال، وهو بحكم مركزه مقصد الأدباء والشعراء . وقد ذكرت المصادر أسماء بعض  
 ممن تولوا هذا الديوان منهم عمران الذي قتل في بلرم سنة ٦٤٢١ = ٩١٣<sup>(٢)</sup>  
 ونخليل الذي ضبط المدينة حين خلت من واليها سنة ٣٩٨<sup>(٣)</sup> . ومنهم ابن

(١) رياض النفوس، المكتبة ص ١٩١ ، ١٩٢ ، وقد جمعت أسماء أربعة عشر من قضاة  
 صقلية هم أسد بن الفرات (٢١٣+) ابن أبي محرز (٢٢١+) هـ ، سليمان بن سالم (+)  
 ٢٨٩) انظر طبقات علماء أفريقية ص ١٤٨ ، محمد بن محمد خالد القيسي الطارقي (آخر دولة بني الأغلب)  
 أبو القاسم الطرزي كان موجوداً في أول ظهور المهدي وقد أهانه بالضرب (انظر المعالم ٨/٣) والطرزي  
 بق قاضياً في صقلية مدة عشر سنين ، إسحق بن المنهال (المصار نفسه) أول قاض أرسله المهدي  
 لصقلية ، ابن الحامي قاضي ابن قرقب ، أبو عمرو ميمون بن عمرو (٣١٦+) محمد بن أبي صبيح  
 (+ ٣٣٤) وقد حمل معه الملح إليها تورعاً ، عثمان بن الخزاز (قبل ابن حوقل) ، إسحاق الماسجلى  
 (كان في القضاء سنة ٣٦٢) ، أبو إسحاق إبراهيم بن مالك المافري (كان في القضاء سنة ٣٧٥) ،  
 أبو الفضل الحسن بن إبراهيم الشامي الكتاني (في القرن الخامس) ، محمد بن قاسم بن زيد اللخمي  
 الكاتب القاضي في أيام أمراء الطوائف ، عاصر ابن الحواس ومدحه وليس هناك ما يؤيد أنه زاول  
 القضاء وربما كانت لفظة القاضي لقباً .

(٢) نسخة كبرج العربية ، المكتبة : ١٦٨ .

(٣) النويري ، المكتبة : ٤٣٥ .



الرقباني<sup>(١)</sup> وابن الشامي صاحب الخمس أيام صمصام الدولة . أما الخمس نفسه فهو ضريبة معينة عدها ابن حوقل من جملة ما تحصله خزينة الدولة بصقلية ولكنه لم يوضحها . ويظهر أنه من الصعب تعيينها بدقة لأنها تضمنت غير دلالة واحدة . ويرى الأستاذ أماري أنها خمس الغنيمة والأرض التي أخذت عنوة<sup>(٢)</sup> . ويقول دوزي : صاحب الخمس هو متولى الأرض التي أصبحت ملكاً للدولة في مدن افتتحت عنوة<sup>(٣)</sup> ويعرف المقریزی<sup>(٤)</sup> الخمس بأنه الضرائب المختصة بالتغور أى هو ما يؤدى في مصر مثلاً من تجار الروم الواردين في البحر عما معهم من البضائع ، بمقتضى ما صولحوا عليه ، وربما بلغ ما يستخرج منهم ما قيمته مائة دينار ومائتان وخمسة وثلاثون ديناراً وربما انحط عن عشرين ديناراً ، ويسمى ذلك خمساً ومثل هذا المعنى الأخير محتمل وجوده في صقلية لموقعها البحري لولا أن ابن حوقل يميز بين ثلاثة أنواع من الضرائب هي الخمس ومال البحر وقبالة الصيود .

وأما ديوان الصناعة فليس هناك شيء واضح عنه وكل ما نعرفه هو ما ذكره ابن سعيد في ترجمة أبي الحسن علي بن المعلم إذ قال إنه صاحب ديوان الصناعة<sup>(٥)</sup> . وأما ديوان الخاصة فيذكره المقریزی والفاكشندى باسم ديوان الخاصي . وفي مختصر الدرة أن ميمون بن أبي بكر الوراق الشاعر مدح على ابن القطاع المتقلد ديوان الخاصة<sup>(٦)</sup> وربما كان هذا الديوان خاصاً بالإشراف على إقطاعات الوالى وشئون قصره ، وفي أيام المقریزی كان يشمل دار الضرب<sup>(٧)</sup> .

(١) مختصر الدرة الورقة ١٠٢ وقد وصفه بأنه كان ملجأ للقصاد والرواد أما ابن الشامي فسيتردد ذكره عند الحديث عن الشعر في صقلية .

(٢) Amari : S. D. M. vol, 2, p. 169.

(٣) Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes وهاش أماري ١٦٩/٢ من

إضافات الأستاذ نالينو ، رقم ٣ .

(٤) المواعظ والاعتبار ١/١٧٦ .

(٥) انظر الترجمة رقم (١٢٠) في مجموعة الشعر الصقلي .

(٦) مختصر الدرة الورقة ١٠١ .

(٧) المواعظ والاعتبار ١/١٧٨ .

وأحفل هذه الدواوين بالصبغة الأدبية ديوان الإنشاء إذ لم يكن يتولاه إلا أجل الكتاب بلاغة، وعلاقته بالوالى متينة، وليس يحجب عنه أبداً، ومن أصحابه فى صقلية ابن الطوبى وابن الودانى وغيرهما من مشاهير كتابها . ونجد فى العهد النورمانى ديوانين آخرين هما ديوان الطراز وديوان التحقيق . والأرجح أن هذين كانا موجودين فى العصر العربى وربما كان ديوان الطراز هو ديوان الصناعة نفسه إلا إن فرضنا أن هناك خطأ نسخياً وأن ديوان الصناعة هو فى حقيقة الأمر دار الصناعة ، وكان عمل ديوان التحقيق المقابلة على الدواوين جميعاً<sup>(١)</sup> ، وله فى مصر الفاطمية وجود، ومن ثم لا يستبعد وجوده فى صقلية الإسلامية .

---

(٤) المواظ والاعتبار ٢/٢٤٢ : والقلقشندى ٣/٤٩٣ .



التصل الثاني

الحياة الاجتماعية

١ - طبيعة الفتح العربي

٢ - أهل الذمة

٣ - الأجناس التي دخلت صقلية

٤ - الأنظمة المالية والتفاوت في الثروة

٥ - النهضة الزراعية والصناعية

٦ - الدين والأخلاق



## طبيعة الفتح العربي

في طبيعة الفتح العربي - كما أجملته في فصل سابق - ما يفسر طابع المجتمع الصقلي من نواح عدة . فهذا الفتح هو الذي أضاف إلى العناصر الصقلية القديمة عناصر جديدة تجمعها غاية عسكرية أو وحدة دينية ، وتفرق بينها نزعات عنصرية . والخط البياني لسير الفتح يرسم توزيع المجتمع الجديد ، ويشير إلى انحسار العناصر القديمة أو انزاعها . وعلى أساسه تعلق الفوارق التي قامت بين الجهات الشرقية وغيرها من صقلية . وبعبارة موجزة إن الفتح خط قوى عميق يكاد يفصل بين صقلية في كل ما عرفت من حضارات وبين صقلية الإسلامية ، لأنه الحركة الخارجية التي استطاعت أن تغير النظم الاجتماعية وتبسط على الجزيرة قيما جديدة ودينا جديداً ؛ نعم لم يكن الفتح خيراً كله لأن صقلية شقيت به حيناً بالقتل والسبي والتخريب وحرق المزارع وقطع الكروم ، وانهزمت أمامه بعض الحريات ، والمعتقدات القديمة ، ولكننا حين نتحدث عن الفتح يجب أن لا ننسى أننا نستعيد صورة من صور القرون الوسطى وكل هذا لا ينفي أثره في الهيئة الاجتماعية الأصلية : في الثقافة وفي نظام الطبقات وفي الحياة العمرانية .

## أهل الذمة

ويظهر أن الفاتحين جعلوا صقلية ولايات ثلاثا هي ولاية مازرونوطس ودمنش وإن يكن هذا الظن يفتقر إلى شواهد تؤيده<sup>(١)</sup> . وفي هذه الولايات عاش السكان الأصليون الذين سموا ذميين على أربع أحوال - وخاصة في الفترة الأولى من العهد الأغابي - فكان فيهم المستقلون الذين يصرفون شئونهم

(١) ليس في الوثائق المتخلفة من العهد النورمانى الأول ذكر صريح إلا لولاية دمش أنظر  
Amari : S. D. M. vol. I p. 607.

الداخلية حسبما يريدون ، ويدبر أمورهم سلطات بلدية كما كان الحال قبل الفتح ، وهم ممتنعون وراء الأسوار ، خاضعون في كثير أو قليل للإمبراطور البيزنطي ، ويتآمرون معه على المسلمين ، وإذا رأوا المصلحة في السلام عقدوا معهم معاهدات لا تزيد فترة إحداها على عشر سنين<sup>(١)</sup> . وانتهى استقلال أكثرهم حين خرج إبراهيم بن الأغاب في الجهاد سنة ٢٨٩ هـ وفتح طبرمين عنوة فهرب كثير من أهلها إلى البيزنطيين ووقع الباقيون في السجن<sup>(٢)</sup> . وتمخض جهاد إبراهيم عن نقص في الجنسين الإغريق والإيطاليين في شرق الجزيرة وأصبحت البقية الباقية منهم تحيا حياة ضنك وشدة وخطر ، وتحولت المدن التي كانت مستقلة إلى مدن تدفع الجزية ، وانفصمت علاقاتها الوثيقة ببيزنطة ، وزادها انفصاما ذلك السلام الذي قام بين البيزنطيين والفاطميين<sup>(٣)</sup> . وكان من سياسة إبراهيم في جهاده أن يرفض الجزية من المدن التي تغلب على أمرها ، وأن يفرض على الذميين سياسة متشددة ، ويأمرهم بالتميز بعلامات فارقة . ولكن طبرمين عادت إلى وجودها شبه المستقل حتى فتحت عام ٣٥١ هـ في أيام الكلبيين وقبل أهلها النزول على حكم العبودية حتى منحوا الأمان<sup>(٤)</sup> . وفي هذه الفترة كانت الروح الدينية في ولاية دمنش تنمى نفسها بين السكان وتوجه حياتهم الحضارية ، وفي ظل تلك الروح قام القديسون يثون في الشعب الكراهية للفاتحين ويشجعونهم على المقاومة . ولا تزال منطقة دمنش إلى اليوم إغريقية الطابع إذا قورنت بغيرها من جهات صقلية .

وفريق آخر من الذميين هم أهل الجزية ولنا أن نقدر في هؤلاء تغير الناحية النفسية من قوم يتمتعون بقسط من الحرية إلى قوم مغلوبين ؛ وكان هؤلاء يعيشون في أمان إذا هم وفوا بما عاهدوا المسلمين عليه ، ودفعوا الضرائب المطلوبة منهم ، ولكنهم كانوا ينتهزون اختلاف المسلمين فيما بينهم أو يستجيبون للكره

(١) op. cit. p. 613

(٢) ابن الأثير ٩٤/٧ والمكتبة : ٢٤١ .

(٣) Amari : S. D. M. vol. 2 p. 250.

(٤) ابن الأثير ١٧٩/٨ في حوادث ٣٥١ هـ .

الدينى والروح القومية ، فيحطمون حدود المعاهدات ويتخطون شروطها<sup>(١)</sup> وكانت مدنهم يحض بعضها بعضا على الثورة فتضطر الجيوش الإسلامية إلى إخضاعها بالقوة ، وحينئذ لا تعود الجزية كافية مقنعة للمسلمين - ولياج وطبرمين أيام إبراهيم مثال على ذلك - بل يصبح أهل هذه المدن أشبه بجماعات العبيد التى لا تملك شيئاً من الحرية . وقد شاع الولاء فى المناطق الإسلامية مثل ولاية مازر . وهذا ما يجعلنا نفهم قول ابن حوقل فى الصقليين « والغالب عليه الرعاع . . . » وأكثرهم برقجانة وموال يدعون وللاء قوم افتتحوها وقد هلكوا<sup>(٢)</sup> .

والطبقة الرابعة من الذميين هم العبيد وقد أحدث فيهم الفتح أكبر أثر مباشر وقد رأينا العبيد وكولونى الأرض فى العصر البيزنطى وعرفنا سياسة السادة نحوهم والحيف الذى صبّه جرجوريوس عليهم ، فلما شاهد هؤلاء جيوش الفاتحين وجدوا طريقاً للخلاص من قيودهم القديمة ، وأملوا أن يجدوا فى أسيادهم الجدد قلوباً أرحم ومعاملة ألطف ، فنبذوا دينهم القديم ، وتعلقوا بالأسيااد الجدد باعتناق دينهم الجديد ، ليكفلوا لأنفسهم شيئاً من الرفق فى المعاملة ، وأصبح الأرستقراطية القدماء ينظرون بحيرة إلى مزارعهم وهى خالية من عبيدهم الابقين<sup>(٣)</sup> .

وأصبح العبيد فى المجتمع الإسلامى طبقة كبيرة وزاد عددهم بكثرة الأسر والسبي والشراء ، وهى لهم الفتح حرفة جديدة تدر عليهم دخلاً معقولاً ، إذ دخلوا فى صفوف الجيش ، وكان النىء لهم مورداً من الرزق منظماً ، إلا أن الجيش شقى بهم فيما بعد حتى أصبحوا عنصراً خطراً قابلاً للثورة ، وتضخم عددهم بعد الفتوحات فى قلورية ، وأضاف إليهم إبراهيم بعض الذين نفاهم من أفريقية . وفى أيام جعفر بن ثقة الدولة اتحدوا مع البربر وأيدوا علياً أخا جعفر وكان من من نتيجة ثورتهم هذه أن قتل العبيد عن آخرهم<sup>(٤)</sup> وهو خبر لا نفهمه إلا إن

(١) Amari : S. D. M. vol. 2. p. 614.

(٢) ابن حوقل ١/٢٢٤ .

(٣) Amari : S. D. M. vol. I. p. 627

(٤) النويرى المكتبة ص ٤٤٣ .



قدرنا أن الذين قتلوا هم العبيد في الجيش . ومن كثرة العبيد والعناصر المحلية في الجيش أصبح الولى في أيام بنى الأغلب عاجزاً عن أن يسوسه أو يتحكم في أمره وزاد عنف الجنود وتحكموا في شئون السياسة حتى جاء ابن قرهب فنصح الخليفة الفاطمي بأن يكبح من جماح العسكر الصقلي بجيش خارجي ، وأصبحنا نسمع في صقلية بجيش الأفريقيين وأغلبهم من كتامة . ثم كان من أسباب فساد الجيش أيام الكلييين إعطاؤهم اقطاعات بدلا من النقود .

## ٣

## الأجناس التي دخلت صقلية

تلك هي حال الذميين أما العناصر الإسلامية الجديدة التي دخلت الجزيرة فاتحة أو مهاجرة ، أو منفية ، أو لاجئة ، فكانت خليطاً ضخماً من جنسيات عدة منها ما ينسب إلى أصول بلدية كالشامي والسوسي والباغاني ، ومنها ما ينسب إلى أصول قبلية كالكلبي والقيسي والكنامي واللواتي ، ومنها ما ينسب إلى الحرفة كالوثافي والغضائري والحراز . وكانت بلرم تعكس صورة هائلة من هذا الخليط المتموج المتحرك ، منذ أول عهدها بالفتح العربي . وقبل ابن حوقل بمائة عام تقريباً وصفها الراهب ثيودوسيوس بقوله : « حافلة بالناس من أهلها والغرباء حتى كأنه قد اجتمع فيها كل المسلمين من شرق إلى غيب ومن شمال إلى جنوب ، وبين أهلها من صقليين وإغريق ولبارديين ويهود ترى العرب والبربر والفرس والتتار والزنوج ، بعضهم يرتدى العباءة والعمامة ، وبعضهم يلبس الجلود وفيهم أنصاف عراة وثمة وجوه مستطيلة أو مربعة أو مستديرة من كل سحنة وهيئة ، ولحي من كل لون طويلة أو قصيرة »<sup>(١)</sup>.

وقد أضاف ابن حوقل إلى هؤلاء ذكر الصقلية وكان لهم في بلرم حارة مستقلة ، أما اليهود فكانوا مستقلين أيضاً بجارتهم ، وربما كان المركز التجاري

الجزيرة يهيئ لهم مقاماً نافعاً . ونسمع عن صلات كانت لهم يهود المشرق وخاصة في فلسطين . وهناك رسالة بعث بها يوشع روش يشيبا إلى المجامع القاطنة في المدن الصقلية يطلب فيها مساعدات مالية من يهود صقلية ، وقرئت الرسالة في معابد الجزيرة ووعد المصلون بالدفع ، ولكن قبل أن يتمكنوا من جمع شيء وقع اليهود تحت طلبات جديدة بهظتهم بها الحكومة وأعجزتهم عن الاكتتاب في سبيل إخوانهم ، واضطر بعضهم إلى الهرب من صقلية ، وأبى شيوخ الجماعة ( ولعلمهم شيوخ بلرم ) أن يردوا على رسالة يوشع دون أن يرفقوا لجابتهم بشيء من المال . وربما كانت هذه الرسالة في زمان الخليفة الحاكم <sup>(١)</sup> . وظل اليهود بصقلية في العصر النورمانى ولما زار بنيامين التطيلي صقلية ( ١١٦٩ م ) في أيام غليالم الثانى وجد في مسينة مائتى يهودى وفى بلرم ألفا وخمسمائة <sup>(٢)</sup> . وربما كان لبعض هؤلاء اليهود نشاط علمى إلى جانب نشاطهم المالى .

وتدل أسماء الأعلام والأماكن الصقلية على الأجناس والقبائل التى كانت تملأ الجزيرة ، وهى تثبت أن صقلية اكتظت بأناس من جميع الشعوب الساكنة في الإمبراطورية الإسلامية ومن هؤلاء عرب عدنانيون وقحطانيون ، ومن القحطانيين وهم الأكثرية الغالبة من الجنس العربى همدانيون وكليبيون ، وجاء الفتح إلى صقلية بالحراسانيين وغيرهم من الفرس ، ودخلوها من إفريقية في القرن الثامن ، وربما كان ركمويه زعيم السفهاء في إحدى الفتن فارسى الأصل ، كما أن بنى الطبرى من أعيان بلرم تشير نسبتهم إلى طبرستان ، وتدل عين السندى وبلهرا على مهاجرين من أصل هندى ، وهذه الأسماء والمنازل تعين النواحي التى نزلها المسلمون وخاصة بلرم والشاطئ الممتد منها إلى طرابنش .

ودخل الجزيرة جماعات كثيرة من البربر سكنوا النواحي الشمالية من ولاية

Mann : The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimids, vol. I, ( ١ )

pp. 73-7

The Travels of Rabbi Benjamin of Tudela in Early Travels in Palestine, ( ٢ )

ed. wright, p. 124.

( ٥ )

مازر ، وكانت جرجنت عاصمة للجماعات البربرية ، وأسماء الأماكن الواقعة بين مازر ولقطة تدل على القبائل البربرية فهناك اندرائي ، وقرقود ومززينو وحجر الزناني ومليلي وكلها أسماء أماكن تشير إلى القبائل البربرية ، إنداره ومزينة وزناته ، ومليلة ، وفي أيام الفاطميين امتازت كتامة ودخلت مع خليل ابن إسحاق إلى صقلية ، وغير هذه القبائل قبائل بربرية أخرى كثيرة .

وكانت هذه العناصر تتحرك بالفتن فيما بينها حتى انصبغت الثورات أيام لأغلبة بمظهرين : ثورات بين شيوخ المدينة وبين الأغلبية والدافع إليها التنافس على انتخاب الوالى ، وثورات بين العرب والبربر ، ويمكن أن يقال إن البربر الذين منحوا الإقطاعات أجوراً لهم هم الذين اشتهروا بخلع الطاعة لأنهم لم يكونوا يطبقون الإخلاد إلى حياة الزراعة وإنما كانوا يفضلون أخذ الفتي أجوراً لهم<sup>(١)</sup> أما العرب فبرزوا أيام الكلبيين وخاصة اليمنية منهم ، ولكننا لا نسمع لهم بعصية ظاهرة إلا أيام ابن قرهب ، ولا نجد لحسن الحظ خلافاً بينهم على أصول القيسية واليمنية لأن القيسية فيما يظهر كانوا قليلي العدد . وحيثما كان العرب والبربر يتحدون تحت اسم الأفريقيين ويواجهون الصقليين ، ولما دخلت كتامة أرض الجزيرة . وأصبحت مستند الوالى خفت صوت الصقليين لضعفهم النسبي إزاء العناصر الأخرى . ثم كانت فتنة صقلية الأخيرة عودة لسيادة العناصر الصقلية بعد قتل العبيد ونفى البربر .

ولما وقعت الهدنة بين الخليفة المعز والإمبراطور البيزنطى كتب المعز إلى والى صقلية - الأمير أحمد - يعرفه بالصلح ويأمره ببناء أسوار المدينة وتحصينها ويعلمه أن البناء اليوم خير من غد ، وأن يبني في كل إقليم من أقاليم الجزيرة مدينة حصينة وجامعاً ومنبراً ، وأن يأذن أهل كل إقليم بسكنى مدينتهم ، ولا يتركوا متفرقين في القرى ، فسارع الأمير أحمد إلى ذلك وشرع في بناء سور المدينة وبعث إلى جميع الجزيرة مشايخ ليقفوا على العمارة<sup>(٢)</sup> . وينفرد

(١) انظر تاريخ أمارى (S.D.M.) المجلد الثاني من ٤٩ - ٥٥ والتعليقات في ٥٣ - ٥٥

(٢) النويرى ، المكتبة : ٤٤١ .

النويرى بهذا الخبر الطريف وحديثه عن سور بلرم يوافق قول ابن حوقل بأن سور بلرم من حجارة مانع شامخ ، ويتفق مع الاصلاحات التى ينسبها الرحالة للأمير أحمد فى أبواب المدينة<sup>(١)</sup> . أما بقية الخبر فلا نستطيع أن نفهمه إلا بنوع من التأويل . ويرى الأستاذ أمارى أن « أهل كل إقليم » ليس من الضروري أن تعنى كل السكان مسيحيين كانوا أو مسلمين ، أحراراً أو ذميين أو عبيداً ، نبلأ أو وضعاء ، بل ليس من الضروري أن تعنى كل المسلمين ويستنتج أن الإقليم فى الاصطلاح يعنى منطقة عسكرية ، وأن أهل الإقليم ندل على الجند وحدهم . ويفترض أمارى أن الولى كان يقسم على الجنود—وخاصة فى ولاية دمنش— إقطاعات بدلا من النقد ، فأصبح الجند مشتتين فى القرى يفلحون أرضهم ، وانتشر على آثارهم جامعو الضرائب ، وكان هذا سبباً فى الفوضى وفى وقوع الحيف على الدمييين<sup>(٢)</sup> وكان من ذلك صدور الأمر من المعز إلى الأمير أحمد .

أما الجامع والمنبر فقد كانا تأييداً للخليفة فى كل مدينة بالجزيرة وتبشيتا للدعاء له . وأضاف المعز إلى هذه السياسة من تألف الصقليين ما أنفق على أهلها سنة ٣٥١ هـ فى إعذار بعض الأمراء من بنيه وقد حذل فى هذه المناسبة إلى صقلية سوى الخلع والثياب خمسون حملاً من الدنانير ، كل حمل عشرة آلاف دينار . وختن من أهل صقلية وحدها خمسة عشر ألف صبي<sup>(٣)</sup> ولم يعف أولاد المليون والدميين من الختان . وهذا الرقم لا يستطيع أن يدل على نسبة معينة فى سكان الجزيرة ، ويقدر ابن حوقل عدد سكان بلرم بثلاثمائة ألف نفس . ولا شك أن خليل بن إسحاق أهلك بأعماله الحربية ثلث سكان ولاية مازر الإسلامية . ولعل عدد سكانها سنة ٩٣٨ م مع بلرم كان مليوني نسمة ، المسلمون منهم أقل من النصف<sup>(٤)</sup> . وأكثر السكان الصقليين القدماء

(١) ابن حوقل ١٢٢/١ والمكتبة ص ٨ ، ٧ ، ٤ .

(٢) انظر توضيح هذه النقطة فى تاريخ أمارى المجلد الثانى ص ٣١٤ - ٣١٧ .

(٣) المقرئى ، اتعاظ الخنفا : ١٣٦ نشر الدكتور الشيال .

(٤) Amari : S. D. M. vol. 2, pp. 251-62 .

الذين انحازوا إلى ولاية مازر كانوا يضمون بعض الأحرار وكثيراً من أهل الموالى والعبيد، وكان بعضهم مسيحيين وبعضهم يهوداً، وكان معظمهم يعيش في المدن وأقلهم في القرى<sup>(١)</sup>.

## ٤

### الأنظمة المالية والتفاوت في الثروة

خضع السكان على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم للأنظمة الإسلامية في الضرائب، فوضع العشر على أراضي المسلمين، وخضعت بعض الأراضي التي يملكها غير المسلمين لخراج مؤقت، كما فرض على بعضها خراج دائم وبقيت أملاك أخرى كالحبوس والأوقاف تطبق عليها أنظمة خاصة<sup>(٢)</sup>. والحقيقة أننا لا نملك وثائق عن هذه الأمور نستبين منها حال صقلية بالذات، وأقصى ما يمكننا عمله أن نقيس صقلية بما كانت عليه الحال في أفريقية والأندلس ونتعرف إلى طرق الجباية وأنواع الضرائب والإقطاعات فيها ثم نحاول أن نقول إن الأمر في صقلية كان كذلك، وليس هذا مما يقدم البحث كثيراً لأن الهدف المنهجي الأول أن ندرس صقلية نفسها بكل ما تهيئه من معلومات، قلة وكثرة.

والنص القديم الوحيد الذي نملكه عن الضرائب بصقلية هو ما أورده ابن حوقل إذ يقول إن الضرائب تضم: «خمسها ومستغلاتها ومال اللطف والجوالى المرسومة على الحمام ومال البحر والهدية الواجبة في كل سنة على أهالي قلورية وقبالة الصبيد وجميع المرافق...»<sup>(٣)</sup> ولا تزال بعض هذه الضرائب غامضة مثل المستغلات، فهل تدل على نوع محدود من الضريبة؟ ومال اللطف، هل هو

(١) op. cit.

(٢) Amari: op. cit. p. 33.

(٣) ابن حوقل ١/١٣٠.

المال الحاصل من هدايا خاصة في مواسم معينة ؟ أما الخمس فقد بينت المعاني التي يتحملها ، وأما الجوالى المرسومة على الجماجم فهي مال الجزية المفروضة على غير المسلمين . والجزية في أيام المقریزی تسمى الجوالى ويقول القاضى الفاضل في متجددات سنة ٥٨٧ إن الجوالى قلت جداً لكثرة إظهار النصارى للإسلام <sup>(١)</sup> وهذا يقطع بأن الجوالى هي الجزية . وأما مال البحر فهو ما يحصل على السفن الراسية في الموانئ الصقلية . والقبالة نوع من الضمان أى أن المصايد كانت تعرض على متقبلين بمبالغ معينة وقد يكون المتقبل هو المباشر للعمل أو يتتدب له من يريد <sup>(٢)</sup> وإذا لم تكن « المرافق » كلمة عامة فهي تدل على ما يحصل من مال على المراعى والمنتجات المحلية . وكانت المرافق في مصر تشمل المال الهلالى أيام ابن المدبر ثم أسقطها أحمد بن طولون وأحيائها العبيديون وأصبحت تعرف بالملكوس <sup>(٣)</sup> . ولا شك أن الضريبة العشرية كانت على أراضى من اعتنق الإسلام من المسيحيين وأكثرها كان يحصل من ولاية مازر في القرن التاسع ثم من ولاية نوطس ودمنش في القرن الذى يليه <sup>(٤)</sup> . وكان بعض الولاة يطلق يد العشارين فيجرون على الناس . وفي نسخة كمبردج العربية <sup>(٥)</sup> أن ابن سالم أتى سنة ٢٤٣٥ = ٩٢٧ م بشيخين استغروا أهل صقلية وكرر هذا العمل سنة ٣٤٤٠ = ٩٣٢ م ولا نستطيع أن نفهم من هذا الخبر إلا استهانة بعض الولاة بأهل البلاد مع أن التهاون في النواحي المالية كان من أكبر الأسباب الحافزة للسكان على الثورة . وفي خبر من أواخر العهد الإسلامى أن ابن الباغانى الكاتب غير الضريبة على أهل صقلية ، فجعل الأعشار من طعامهم وثمارهم وإنما كانت العادة أن يؤخذ على الزوج البقر شئ معلوم ولو أصاب ما أصاب . والخبر يدل على الطريقة التي كانت متبعة في صقلية لعهد

(١) المقریزی ، المواعظ والاعتبار ١/١٧٣ .

(٢) المصدر السابق ١/١٣١ - ١٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ١/١٦٧ .

(٤) A mari : S. D. M. vol. 2 pp. 40-41 .

(٥) المكتبة الصقلية : ٤٤٣ .

(٦) النويرى ، المكتبة : ٤٤٣ .

طويل . ولما أخذ جعفر بن الأكحل بالتضريب بين العناصر الصقلية والأفريقية حمى أملاك الأفريقيين وأخذ الخراج على أملاك الصقليين فأعلنوا الثورة . غير أن أهم أثر أحدثته النظم الإسلامية في الأرض هو طرق توزيعها ، فقد كان الجرح العميق الذي تشكو منه صقلية هو الإقطاعات الكبيرة ؛ وفي فترة قصيرة قضى نظام الإرث الإسلامي على هذه الإقطاعات . وفي القرن الثاني عشر نجد في ولاية مازر أسماء عربية كثيرة تملك مساحات صغيرة من الأرض ولكن النظم الإسلامية لم تكد تنفذ صقلية من الإقطاعية الكبيرة حتى عادت هذه إليها مع الفتح النورمانى <sup>(١)</sup> .

وليس معنى ذلك أن الإقطاعات الكبيرة فقدت في العهد الإسلامى بل ظلّ الأمراء والخاصة يحتفظون لهم بإقطاعات واسعة واحتكارات خاصة تدر عليهم أموالا طائلة . وقدم إلى أحد العباد في القيروان كمك فردة ، وقال : لست آكل سكر صقلية وعلل امتناعه عن أكله بأنه يعمل من ضياع اقتطعها السلطان <sup>(٢)</sup> . وكان الحليد مستغلا لبعض بنى الأغلب ثم انتقل إلى أيدي بنى أبي الحسين ، ومنه كانت تعمل مراكب السلطان وقرسطياته <sup>(٣)</sup> وكان جزء من البردى محتكراً لعمل طوامير للسلطان خاصة .

وفي هذه البيئة قام التفاوت البين في الثروة بين الطبقات . ومع أننا نعلم مثلاً أن أبا القاسم الكلبي لم يخلف ديناراً ولا درهماً ولا عقاراً لأنه وقف أملاكه كلها على الفقراء وأبواب البر <sup>(٤)</sup> إلا أننا نعرف كذلك أن ثقة الدولة ارتحل إلى مصر ومعه ٦٧٠ ألف دينار و ١٣ ألف حجرة سوى البغال وغيرها <sup>(٥)</sup> — كل هذا الثراء بينما الفرد العادى من الطبقة التى عاشرها ابن حوقل لم يملك بدرة عين ولا رآها إلا عند سلطان ، إن كان ممن يدخل إليه ، ومحل محل من يؤذن

(١) Amari : S. D. M. vol. 2, pp. 40-41.

(٢) المكتبة الصقلية ، الملحق الأول : ٣ .

(٣) ابن حوقل ١٢٣/١ .

(٤) ابن الأثير ٥/٩ المكتبة ص ٢٧٠ .

(٥) النويرى المكتبة ص ٤٤٤ .

له عليه<sup>(١)</sup> وكان المهاجرون إلى صقلية في النصف الأول من القرن العاشر أهل حرف أو جنوداً أو لاجئين<sup>(٢)</sup>. ولدينا ما يفيد أن أحد الأفريقيين ورث من أخ له مات بصقلية أربعمائة دينار أعانه عليها إبراهيم بن أحمد الأمير<sup>(٣)</sup>. وتحت عنوان الفقر تستطيع أن تسلك طبقة المعلمين، ولم يكن يزيد دخل بعضهم عن عشرة دنائير في العام، ومثلهم بعض الشعراء، وتسمع عن شاعر يسمى الرزيق كان محدوداً محارفاً وقد بره مرة بعض الولاة بدنانير فلما عاد إلى بيته وجد اللص قد استصنى ما فيه<sup>(٤)</sup>، وكذلك كان كثير من العلماء فقراء. والحقيقة التي لاحظها ابن حوقل أن هناك فقراً شاملاً إلا لأقلية معينة، واستتبع هذا الفقر وقلة المال في أيدي الناس رخصاً في الحاجات وقلة في النفقات. وبما زاد الرخص كثرة العرض في السلع وخاصة الزراعية منها لحصب الجزيرة وهو الموضوع الذي تقف منه المصادر العربية وقفة المعجب. ومنذ القرن التاسع نسمع الاصطخري يقول بأن في صقلية من الحصب والزرع والمواشي والرقيق ما يفضل سائر مدن الإسلام المتاخمة للبحر<sup>(٥)</sup>. ولكن لا بد من أن نقر بأن الجذب كثيراً ما كان يعترى الجزيرة وفي سنة ٣٤٤٤ = ٩٣٦ م جاءت ريح عاصف قبلية حرقت الدوالي والثمار ولم يكن في تلك السنة قطاف<sup>(٦)</sup>. وبعد الحروب المهلكة التي قام بها خليل انتشرت المجاعة في المدينة والبوادي « حتى أكلوا الوالدون أولادهم<sup>(٧)</sup> ». واشتدت المجاعة كثيراً حتى خربت قلاع صقلية وبواديها. وكثيراً ما كانت الفتن تجعل الناس يغفلون عن العناية بمحاصيلهم فيسوء حالهم. ويحدثنا ابن حوقل أنه لما دخل صقلية كانت قد استحال جميع أمورها من الحصب إلى الجذب<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن حوقل ١/١٣٠.

(٢) Amari : S. D. M. vol. 2, p. 252.

(٣) رياض النفوس في المكتبة : ١٩٠.

(٤) الحرية ١١ الورقة ٤٤ ومجموعة الشعر رقم ٤٣ :

(٥) الاصطخري « مسالك الممالك : ٧٠ ط. بريل ١٨٧٠ والمكتبة : ٣.

(٦) تاريخ جزيرة صقلية، نسخة كبرديج العربية، المكتبة ص ١٧١.

(٧) المصدر نفسه : ١٧٣.

(٨) ابن حوقل ١/٢٣٠.



## النهضة الزراعية والصناعية

ومن أسباب رخص الحاجيات وكثرتها أيضاً النهضة بالزراعة والأساليب الزراعية واستغلال كل أرض صالحة لأن تفلح ، وتهيئة الأرض لأنواع جديدة من المزروعات . ففي أيام البيزنطيين كانت صقلية تهتم بالقمح والكرمة وتعتمد في الزيتون والزيت على شمال أفريقية ، ويظهر أنها ظلت تستعملهما من هناك في العصر الإسلامي أيضاً ؛ لأن صاحب كتاب الاستبصار لا يزال يقول في زيت سفاقس « وعليه معول أهل صقلية وإيطالية وأنكبورده وقلورية »<sup>(١)</sup> وفي أخبار الفتوح نسمع عن الكروم حول طبرمين وكلاماً مهماً عن الزروع . أما المسلمون فإنهم أدخلوا إلى صقلية كثيراً من أنواع الزراعة جاءوها بالليمون والبرتقال والقصب والأرز والنخيل والقطن والبردى حتى نشأت في صقلية أساليب زراعية تلائم بيئتها وأصبحنا نسمع في كتاب الفلاحة بما يسمى طريقة صقلية في زراعة البصل مثلاً<sup>(٢)</sup> أو عادة أهل صقلية في زراعة القطن<sup>(٣)</sup> أو طريقتهم الخاصة في عمل معنب من عصير العنب الحلو<sup>(٤)</sup> . وأكثر الناس من زراعة الخضروات وبعض أنواعها أدخله المسلمون إلى الجزيرة . وكانت بلرم وضواحيها عامرة بالبساتين والأجنة والطواحين على وادي عباس<sup>(٥)</sup> . وكانت الأراضي السبخة القريبة منها مزروعة بالقصب الفارسي وبالمقاني الصالحة ، وكان في خلال أراضيها بقاع قد غلب عليها البربر وهو البردى المعمول

(١) الاستبصار : ٧ ط . فينا ، والمؤلف مجهول ولكنه كان يعيش في عصر أبي يوسف أمير المؤمنين .

(٢) ابن العوام ، الفلاحة النبطية ، المكتبة : ٥٤٥ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه : ٥٤٦ - ٥٤٧ .

(٥) ابن حوقل ١/ ١٢٣ والمكتبة : ٥ .

منه الطوامير وأكثره يقتل حبالا للمراكب وأقله يعمل للسلطان منه طوامير لا يزيد على قدر كفايته<sup>(١)</sup>. ويذكر المقدسي كثرة الفواكه والخيرات والأعشاب في بلرم وضواحيها<sup>(٢)</sup> وتتردد في الشعر بساتين المعسكر ومنتزهاته وفواراتها؛ ولم يغير الفتح النورمانى كثيراً من عمران صقلية ولذلك نستطيع أن نعتد على ما كتبه الأديسي لتتصور الحالة الزراعية بصقلية في العصر الإسلامي . وليس هنالك من بلد مذكور في نزهة المشتاق لا يقترن به ذكر البساتين والمنازه والمياه والمزارع الطيبة — كذلك كان الحال في بلرم وجفلوذ ومسينة وقطانية وقارونية ولنبیاده وبثيرة وجرجنت وسائر القلاع والحصون ، داخلية كانت أو ساحلية . وحول شنت ماركو خاصة كان يكثر البنفسج ذو الرائحة الفاتحة العطرة<sup>(٣)</sup>.

وشملت النهضة أيضاً الحياة الصناعية ، وكانت هذه ذات أصول في العصر البيزنطي . وقد مر بنا أن الجلود الأرجوانية اللون والحرير اللازوردی وبعض الصوف كانت مما يحمل من صقلية إلى رافنا . ولكن الصناعة في العصر الإسلامي كثرت وتقدمت وشمل الإتقان عدة أنواع منها . واعتمدت الصناعات على الحاصلات النباتية والحيوانية والمعدنية فقامت صناعة السفن على الخشب من حول جفلوذ<sup>(٤)</sup> وعلى الحديد من بلهرا<sup>(٥)</sup> وكان القطن الذي يزرع حول جطين<sup>(٦)</sup> يصدر بكثرة إلى بلاد أفريقيا<sup>(٧)</sup> ومن ميلاص يتجهز بالكتان الكثير الطيب<sup>(٨)</sup> ، وكان الكتان الصقلی ذا شهرة واسعة . ويذكر ابن حوقل أن ثياب الكتان فيها لا نظير لها جودة ورخصاً ، ويبيع مستعملها مما يقطع قطعين من الخمسين رباعياً إلى ستين رباعياً فيزيد على ما يشتري من أمثاله

(١) المصدر نفسه ١٢٣/١ والمكتبة : ٨ - ٩ .

(٢) أحسن التقاسيم ٢٣١ والمكتبة الملحق الأول : ٥٥ .

(٣) نزهة المشتاق ، المكتبة : ٣٢ .

(٤) نزهة المشتاق ، والمكتبة : ١١١ .

(٥) ابن حوقل ١٢٣/١ والمكتبة ص ٩ .

(٦) المكتبة الصقلية : ١١٠ .

(٧) المصدر نفسه : ١٥٩ .

(٨) نزهة المشتاق : ٣٣ .

بمصر بالخمسين والستين ديناراً كثيراً<sup>(١)</sup> . وفي خطط المقرئى أنه وجد لعبدة بنت المعز فى جملة ما وجد فى خزائنها ثلاثون ألف شقة صقلية<sup>(٢)</sup> . وربما دلت هذه الشهرة المبكرة فى الكتان على رسوخ صناعته فى العصر الأغلبى إن لم يكن قبله . ويقول المقدسى : ومن صقلية تحمل الثياب المقصورة الجيدة<sup>(٣)</sup> ويقول ناصر خسرو : ويجلبون منها كتاناً رقيقاً وثياباً منقوشة يساوى الثوب منها فى مصر عشرة دنانير مغربية<sup>(٤)</sup> .

ولا ننس بجانب المنسوجات صناعات أخرى قائمة على المواد الحيوانية كالجلود ، لشهرة صقلية بالموشى كما فى أشعار بندار . أما تلك التى يذكرها ثيوقريطش فى قصائده فهى أنواع من المعزى وبعض المعزى الموجودة فيها اليوم من ذوات الأذن المتدلية مما يرجح أن العرب هم الذين جلبوها<sup>(٥)</sup> . وكان لحيول صقلية فى العصر البيزنطى شهرة واسعة إذ كانت تربي بكثرة فى إقطاعات البابا ويستمد الباباوات خيولهم منها . ولما دخل العرب صقلية دخاتها الحيول العربية وطمست شهرة الحيول المحلية ، وكذلك جاء المسلمون بالجمل إلى صقلية ولكنه انقرض منها .

وقد مر بنا أنه كانت تصنع فيها الحبال والطوامير والسكر ، ويذكر ابن حوقل صناعة الخمور وتحضير القند<sup>(٦)</sup> . كما كانت تعتمد صادراتها على مستخرجات الثروة المعدنية كالكبريت والشب والزفت والقطران ، وعلى ثروة الغابات وخاصة من جبل إتنا الذى يؤخذ منه الجوز والقسطل وخشب الأرز<sup>(٧)</sup> أضف إلى ذلك مستخرجات البحر والأنهار كسمك التن والمرجان . أما الواردات

(١) ابن حوقل ١٣١/١ .

(٢) الخطط ١٦٤/٢ .

(٣) أحسن التقاسيم : ٢٣٩ المكتبة الملحق الأول : ٥٧ .

(٤) سفر نامه ص ٤٥ .

(٥) Freeman : History of Sicily vol. I p. 93 .

(٦) أراد ابن حوقل أن يقلل من قيمة صقلية فى المنتجات فقال : إنها لم تختص بوجه من نضائل البلدان غير القمح والصوف والشعير والخمر وصباغة من القند إلى شئ من ثياب الكتان ١٣١/١

(٧) المكتبة : ١١٨ ، ١٤٥٠ .

إليها فكانت تشمل كل ما تدفع إليه الحاجة من سائر الطلبات<sup>(١)</sup>. واستدعت النهضة الصناعية تعدد الحرف في أيدي الناس . وفي بلرم وحدها عد ابن حوقل أصنافاً كثيرة منها وذكر أن لكل أهل حرفة سوقاً . فبين مسجد ابن سقلاب والحارة الجديدة كانت تقع أكثر الأسواق كسوق ” الزياتين ” بأجمعهم والدقاقين والصيارفة والصيادنة والحدادين والصياقلة وأسواق القمح والطرازين والسماكين والأبزاريين وطائفة من القصبايين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة والريحانيين والحرارين والخبازين والجدالين ، وطائفة من العطارين والجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والحشابين خارج المدينة . وبلرم طائفة من القصبايين والحرارين والأساكفة وبها للقصبايين دون المائتي حانوت لبيع اللحم والقليل منهم برأس السباط ويجاورهم القطانون والحلاجون والحذاءون<sup>(٢)</sup> . وهذه الفقرة الإحصائية غنية بالدلالة على حال السوق في بلرم أثناء العصر الإسلامي .

## ٦

### الدين والأخلاق

ونجد ابن حوقل يصف الصقليين<sup>(٣)</sup> بقلة المروءة، وبإقبالهم على شهادة الزور ، ويرميهم بقلة الفطنة وكلال الفهم وحدة الجهل وسرعة الطيش وموت اليقظة وبراعة اللؤم ، ويصل بين هذه الصفات فيهم وبين أغلبيتهم السيئة ومطاعهم المنتنة وخاصة إكثارهم من أكل البصل – الأمر الذي بلد إحساسهم؛ ويصممهم بغلظ الطباع وسوء الخلق وغلبة الجفاء وطول المراء . وهذا الوصف منصرف إلى أهل بلرم. أما أهل بواديهما وأرباب تلك البوادي فتغلب عليهم

(١) ابن حوقل ١٢١/١ .

(٢) ابن حوقل ١١٩/١ .

(٣) هذه الأوصاف مجموعة من مواطن متفرقة . انظر ابن حوقل ١٢٣/١ - ١٣١ .

بهيمية غامرة لألبابهم، وغفلة عن الحقوق والواجب ظاهرة في معاملاتهم، وقول من الحق بعيد، وشأن للغريب والطارئ عليهم عظيم شديد، لا يألون ولا يؤلفون، وهم في كرههم للغرباء يشبهون أهل بلرم حاضرتهم فقد طبع أهلها على بغض التجار والغرباء المجهزين، مع جفاء معدوم النظير في أجنى الجلبين، مع أن مصالحهم تعتمد على الجلابين، وهم محتاجون إلى المسافرين لقيام حياتهم على التجارة.

وليس من الضروري أن نصدق ابن حوقل في كل ما يقول لأنه يصور أخلاق قوم كرههم، فليس من السهل أن نأخذ ما يقوله في هذه الناحية بالتسليم وبخاصة لأنه يتحدث عن أمور اعتمد في تصويرها على الشعور فأشبه بذلك الشاعر الذي يهجو. ثم إن الأخلاق نسبية تتغير من إقليم إلى إقليم ولا شك أنه كانت بين العراق وصقلية فوارق في الحياة الاجتماعية جعلت ابن حوقل يكره من صقلية ما لم يكن عراقى الصبغة، وكذلك حال ابن حوقل في الأندلس فإنه لم يستغ فيها أشياء كثيرة، وهذه الفوارق نمت مع الزمن وصورها ابن سعيد في المفاضلة بين المشرق والمغرب<sup>(١)</sup> وهي أمور يلمحها الغريب. وقد انتقد ابن جبير الرحالة أشياء في الشاميين وجدها تخالف ما عليه حال الناس في بلده وأحس بالكره لها. والأساس الذي يبنى عليه ابن حوقل قلة المروءة والبلادة في الصقليين فاسد، ونحن اليوم نمر بهذه الثورة على البصل مبتسمين. أضف إلى ذلك أن ابن حوقل كره صقلية لأنه غريب لم يجد فيها التقدير الذي يتطلع إليه غريب مثله، وهو عندئذ ذو حساسية خاصة بما يلقى من معاملة، وإذا صح أن الصقليين كانوا يكرهون الغرباء فإن من السهل أن نعلن ثورة ابن حوقل على صقلية. ثم هو قد كره صقلية لأنها كانت تثور على السلطان وتنقض الطاعة، ومن مهمته في رحلته أن يؤكد الناس ولاءهم للسلطان وخضوعهم له، وهو كذلك قد وجد فيها قوماً يشتمون أهل العراق ويستهجنون

(١) انظر هذه المفاضلة والرد عليها في مسالك الأبصار لأدري المجلد الأول، الجزء الثالث من نسخة دار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ معارف عامة.

مبادئهم في القدر والإرجاء . وتدلل رحلته على أنه لم يختلط إلا بطبقات معينة ، وأنه كان يألف الغرباء ويطمئن إليهم أكثر من أهل الوطن . وفي هذه الفترة نسمعه ينحى بالذم على أهل البوادي التابعة لبلرم ولكن أترأه زارها ؟ وإن كان زارها فأين الوصف الدقيق الذي سجلته عينه النفاذة وجرائته النفسية ؟

ومهما ننكر مما قاله ابن حوقل في ذم أخلاق الصقليين لا نستطيع أن ننكر أنه زار صقلية حين لم تكن تنعم إلا ببوادر الهدوء والطمأنينة في ظل الكليبيين ، وكانت قد مرت بها سنوات عصيبة ، حتى إن ابن حوقل وجدها قد حالت من الخصب إلى الجذب . كما لا نستطيع أن ننكر أن أهل البلاد الأصليين ، إن كان يعينهم ابن حوقل بالتسمية الصقلية ، كان أغلبهم من الموالى والعبيد ، ولم يدفع هؤلاء إلى الإسلام إلا الرغبة في التخلص من بعض القيود الاجتماعية والمادية . ويحددنا ابن حوقل أنه كتب كتاباً مستقلاً في صقلية جعله عشرة أبواب ، بدأ فيه بذكر ما يتفاخر به أهل الأمصار والقبائل والبلدان وما يلحقهم من الفضائل وكيفية لحاقها بالكور والمدن والرياض المقصرة ببعضها عن الفخر والطيب والحسن ، ووسمه بكتاب صقلية ولم يترك لهم من فضيلة ورذيلة إلا ذكرها وسمى فيه معلمهم وذكر فتنهم وخلعهم للسلطان وطاعته وبعض فرقهم الدينية<sup>(١)</sup> ولا شك في أن هذا الكتاب الذي ذكرت فيه الفضيلة إلى جانب الرذيلة أثنى من تلك الصفحات التي جعلها فصلاً من كتاب « صورة الأرض » . وخير ما يظهر لنا انحياز ابن حوقل إلى جانب المساوي ما ذكره جغرافي آخر وصف أهل صقلية بقوله : « وأهلها مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال ، متميزون بالجميل في الناس وحسن الصور والقصد في المعاش إلى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة »<sup>(٢)</sup> .

ومن مستغرب ما ذكره ابن حوقل عن أهل صقلية كرههم للغريب وهو شيء شاذ في بيئة تجارية تعتمد على الغرباء والجلالين ، ولعل هذا الكره نشأ

(١) ابن حوقل ١/١٢٩ .

(٢) المكتبة الصقلية : ١٣ .

في نفوسهم أولاً نحو المهاجرين ، ثم عم حتى شمل كل الغرباء المقيم منهم والعاير ، وأصبحوا يظنون أن كل غريب فإنما جاء ينافسهم في بلدهم ويستولى على أرزاقهم . أما الجفاء فهو أمر نسبي ولكننا نجد ابن قلاقس يلمسه حين زار صقلية فهو يقول في قصيدة أرسلها إلى أبي الفتح بن خلف الصقلي :

وقمت لي من جفاء في صقلية بلطف مصر عليه ظرف بغداد

غير أن ابن جبير لم يلحظ في البلاد حين زارها إلا اللطف في المعاملة ، ولعل الفرق بينه وبين ابن حوقل وابن قلاقس أنه كان مشمولاً بالعطف الديني على مسلمي الجزيرة وأنه مغربي وهما مشرقيان ، يحسان بفرق واسع في الطباع بين المشرق وصقلية .

على أي حال صور لنا ابن حوقل بهذه الأوصاف مجتمعاً صقلياً منحللاً ضعفت فيه الروابط الخلقية إلى حد غير قليل وتعارضت مقاييسه وقواعد الدين الإسلامي أحياناً . فقد وجد الرحالة فيها « رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالرياء والنفاق والبطالين والفساق متمردين شيوخ وأحداث أغاث رثاث قد عملوا السجادات ، منتصبين لأخذ الصدقات وقذف المحصنات ، نقم منزلة وبلايا شاملة وحتوف مصبوبة منصوبة وأكثرهم يقودون ومنهم من لا يرى ذلك لشدة الرياء والسمعة ، وأكثرهم بالزور تطوعاً يشهدون ، مع جهل لا يفرق فيه بين فرض الوضوء وسنته ، ويقصدهم من أعوزه المكان لبطالته والموضع ليعارته فيؤونه ، وربما شاركوه بتافه من المأكول على أحوال يقبح ذكرها »<sup>(١)</sup> . ماذا نفهم من هذه العبارات على غموضها ؟ وما معنى الذين اتخذوا السجادات ؟ أكانوا يبتزون أموال الناس بإظهار الصلاح ؟ وما معنى قوله : ومنهم من لا يرى ذلك لشدة الرياء والسمعة بعد قوله وأكثرهم يقودون ؟ لقد أراد ابن حوقل - فيما يظهر - أن يصور في هذه العبارة جانباً مظلماً من حياة بعض الجماعات في بلرم ، وهي طبقة من الناس احترفت البطالة وأقامت في رباطات على ساحل

(١) ابن حوقل ١٢١/١ وفي المكتبة الصقلية : ٧ اختلاف قليل جاء فيه « وأكثرهم يقودون ويلوطون وإنما أورا إلى هناك لمجزهم وعدم السكنى ومهانة أنفسهم » .

البحر ، تحاول أن تكسب عيشها بشتى الطرق ، وكلها دنىء خسيس قائم على إهدار الكرامة وعلى النصب والاحتيال .

ومن أهم ما لحظه ابن حوقل فى صقلية فرقة ذات مذهب خاص تسمى المشعمذين والىها ينتمى أكثر أهل الحصون والبوادر والضياح أى هى منتشرة فى الأرياف ، وخاصة بين طبقات الموالى والعبيد . « ورأى هؤلاء التزويج إلى النصرارى على أن ما كان بينهم من ولد ذكر لحق بأبيه من المشعمذين ، وما كانت من أنثى فنصرانية مع أمها — لا يصلون ولا يتطهرون ولا يزكون ولا يحجون ، وليس فيهم من يصوم شهر رمضان أو يغتسلون إذا صاموا من الجنابة ، وهذه منقبة لا يشركهم فيها أحد ، وفضيلة دون جميع الخلق أحرزوا بها فى الجهل قصب السبق ، ولقد أعرت كتابى هذا بذكرهم <sup>(١)</sup> . » ومن هذا الوصف يتبين لنا إلى أى درجة تقبلت نفوس الصقليين الدين الجديد ، وهى نفوس أقوام من الفلاحين والجنود والأرقاء . وهذه ناحية تفسر فى الواقع أكثر مظاهر الحياة العقلية والأدبية وقصورها على فئات المهاجرين . وإذا قرأنا كتب التراجم وجدنا فيها صورة غير هذه ، تمثل لنا لونا من التشدد فى المحافظة على الدين ومقاييسه فى الفضائل . ألم يكن فى تلك الطبقة من العباد والحجاج والمصلين — ألم يكن فيهم صقليون أصليون ؟ إن من الظلم لصقلية أن نؤمن بأن الفضل كان وقفاً على جماعات المهاجرين من عرب وبربر وغيرهم ، ولكن ابن حوقل بعد ذلك إنما يؤرخ ما شاهده فى فترة معينة مما قد لا ينطبق على صقلية من بعده . ومن العبث أن نحاول رد من نعرف تراجمهم من الصقليين إلى أصولهم لنعرف أكانوا صقليين أصلاً أم صقليين من أصل غريب عنها لنثبت أن فيمن كانوا من صقلية أصلاً قوماً متدينين يحجون ويصلون ويزكون ويتطهرون . وليس معنى هذا أنى أدفع تهمة الانحلال الخلقى عن البيئة الصقلية فطبقات الموالى والعبيد كانت مطعونة فى نفسياتها ، وهى خصبة لنمو الرياء والملك والنفاق ، واختلاط الأجناس يعطى الفرصة لوجود ذلك الانحلال . ثم إن قيام الحياة



في المدن الصقلية على التجارة يدعو في الغالب إلى العناية بظواهر الأشياء أكثر من الاحتفال بالتربية النفسية ، ولا شك في أن كثرة المساجد ، حتى يكون منها في قرية قريبة من بلرم مائتا مسجد ، لا تدل دائماً على تدين . وفي مثل هذه البيئة ما يسمى مراعاة العواطف وخاصة في المآتم والأفراح ، وهذا الملق الظاهري يفسر السجادات ، والمصلحة الفردية تفسر للتطوع بشهادة الزور ، والفقر من وراء كل تلك الرذائل ، أى أن الاختلال في نظم الحياة الاقتصادية هو العامل الأول في تلك النقائص ولست أستطيع أن أتصور إلى أى درجة كانت كثرة الأجناس من ناحية وشعور الأقليات بالانكماش على نفسها من ناحية أخرى ، يمدّان الحياة الاجتماعية بتفكك في الروابط ، وانضاع في القيم ، وقصر ومحدودية في النظرة إلى النفع والضرر ، وخاصة أن مادة الخصام على أصول العصبية وغيرها كثيرة وفيرة .

وقد نلاحظ أن العصبية الإقليمية أوجت لابن حوقل بشيء كثير من الشنآن للمجتمع الصقلي ، وباعدت بينه وبينه ، وهي عصبية غير مستغربة حين نعرف أنها كانت تقوم بين بلدان صقلية نفسها ، وهي مشاعر ورثتها منذ العصر البيزنطي ، وقد رأينا كيف اغتاض السرقوسيون لما رأوا بلرم في أول العهد الإسلامي قد أصبحت تتحكم في مصايرهم بعد أن كانت مدينة لا يأبهون بها ، وفي أيام المسلمين كانت جرجنت مركز البرابرة تنافس بلرم عاصمة الأرسقراطية العربية . بل لا نستبعد أن يكون الانقسام الأخير في صقلية قام على أسباب من بينها تلك العصبية البلدية ، أى أن الأقاليم كانت تائرة على زعامة بلرم وصادف ذلك هوى في نفوس القواد المحليين ، فانهزوا الفرصة لما سنحت ، واستقلوا ، وكانت بلرم تمثل الحضارة رفعة ودنواً وهيئ لمن ينزل فيها كل ما يمكن أن تقدمه الحضارة من خير وشر . وكان قد نشأ بينها وبين المدن الأخرى تفاوت واسع حتى كانت مثالا يثير المنافسة والحسد ، وهذا الفرق في الترف نلمحه في صيحة ابن منكود صاحب مازر في وجه ابن البر اللغوى حين عرف أنه يشرب الخمر : « إذا كان ولا بد من شرب الخمر فهذا النوع

بيلرم وربما يعز وجوده هنا»<sup>(١)</sup>.

ولعل في هذا ما يدل على نزعة المفاضلة بين البلدان كما أنه يدل على ميل ابن منكود ليجعل من مازر ملجأ لما اعتقد أنه فضائل إسلامية ولكن روح الثدين شيء والسياسة شيء آخر ، وقد أثبتت الأيام أن ابن منكود كان محققاً في السياسة<sup>(٢)</sup>.

---

(١) انظر إنباء الرواة في ترجمة ابن البر ١٤٦/٢ وما بعدها .

(٢) انظر عن سوء تدبير ابن منكود بعد غروجه من صقلية : ٢٧٢ في المكتبة الصقلية .



## الفصل الثالث

### الحياة العقلية

- ١ - صقلية والصلاات الثقافية
- ٢ - المدارس والمعلمون
- ٣ - هجرة الكتب إلى صقلية
- ٤ - الفقه والحديث والقراءات
- ٥ - النواحي اللغوية
- ٦ - الزهد والتصوف
- ٧ - علوم الأوائل
- ٨ - نظرة إجمالية



## صقلية والصلات الثقافية

كانت صقلية تهتدى بالأنوار المنبعثة من القيروان ، وكان لكل حادث أفريقى هام صدى فيها ، وسر هذا ليس فى أن صقلية قريبة فى موقعها من شمال أفريقية فحسب ولكن لأن أهل أفريقية هم الذين افتتحوها، ومن ثم ظلت العلاقات قائمة بين المهاجرين وإخوانهم فى الوطن الأصلى ، وزاد هذه العلائق توثقاً تجدد الهجرة من أفريقية إلى صقلية ورحلة الصقليين إلى القيروان فى طلب العلم ، وهى ظاهرة نراها موجودة حتى بعد أن أصبح لصقلية فى النواحي العلمية اسم مذكور .

وفى أيام الكليبيين تمتعت صقلية بشيء من الاستقلال الذاتى مصحوب ببعض السيطرة الفاطمية ؛ وكان هذا الوضع السياسى ذا مظهرين : أما أولاً فقد تبلورت فى صقلية جهود علمية خاصة ، وأصبح الجيل الناشئ من أبناء الفاتحين صقل الروح والإنتاج ، إلى حد ما ، وأما ثانياً فقد أصبحت القاهرة تشارك القيروان فى توجيه الحياة الثقافية فى الجزيرة . وفى هذه الفترة أعلنت بلرم عن وجودها الثقافى والعقلى ، وأصبحت تذكر مع القاهرة والقيروان وقرطبة ، وأضحى لها علماء وأدباء يهاجرون إلى الأندلس ومصر وشمال أفريقيا . ونحسب أن كثيراً من هؤلاء المهاجرين كان يبحث عن الشهرة فى بلد كالقاهرة أو قرطبة إلى جانب بحثه عن وسائل العيش . وإلى جانب هؤلاء جماعة ممن كانوا يسافرون فى طلب العلم أو لأداء فريضة الحج ثم يعودون إلى ديارهم . وعلى هذا لم تكن صقلية تعيش فى عزلة تباعد بينها وبين غيرها من البلاد الإسلامية ولكن الحركة كانت بطيئة ، وكانت أخطار البحر تحد من نشاطها . ومع ذلك فقد كانت الأسواق الصقلية مجالاً لتبادل السلع والأفكار والرحلة

وعاملاً أكيداً في تفاعل الآراء ، كما كانت الرسائل المتبادلة بين أهلها وناس في خارجها حلقة من حلقات الربط الثقافي .

غير أن هذا الاتصال — لم يعم بحيث يفقد صقلية شخصيتها بل لعلمها احتفظت بعلامات مميزة وسمات خاصة رأينا لها أثراً في الزراعة والصناعة والعادات والمعتقدات ، ونحاول أن نتلمس لها وجوداً في النواحي الأدبية والعلمية وإن لم يكن من السهل أن نعثر عليها ، لأن صقلية في هذه النواحي كانت تستند إلى موروث تشارك فيه غيرها من البلاد الإسلامية ولأن روح المحافظة حالت بينها وبين التفرد الواضح . وإذا كانت هذه المميزات مما يخفى أثره فليس معنى ذلك انعدامها ، ولا يمكن أن يكون علم صقلية كله جلباً يرد إليها كما ترد السلع التجارية إلى موانئها فذلك يتنافى مع أبسط حقائق الأشياء .

ثم ما هو طابع الحياة العقلية لجزيرة تركز الحياة فيها على قاعدة من النشاط الحربي أولاً بينما النشاط المدني يجرى في المقام الثاني؟ سنرى بعد قليل أن الحياة العسكرية كانت ذات أثرين متناقضين التقيا في النهاية : فقد صرفت الناس صرفاً إلى الحياة الثقافية في بعض النواحي وكثرت عدد المدارس والمدرسين فزادت الكمية ولم تكن بالنوع ، وألقت بطلبة العلم إلى أيدي جماعة من المعلمين المتخلفين ، الذين اختفوا وراء الجلباب العلمي ليحميهم من حياة الجندية ، فتضاءل عدد الأكفاء من أهل التعليم . وصرفت الناس من وجهة أخرى عن الاستقرار والهدوء ورمت الأفكار بالقلق والتلملل ، فأفقدت الدراسات شيئاً من العمق ، حتى إن تلك الصفحات الدامية التي تطالعنا بها الكتب التاريخية لتجعلنا نعجب — كما عجب المؤرخ سكوت<sup>(١)</sup> — كيف أمكن للمسلمين أن يضربوا بسهم في الحياة العمرانية المدنية وكيف تأقلموا أن يعملوا في زراعة أو صناعة . غير أن الحرب لم تكن كل مظهر، ف وراء الأحداث التي نقرأها في تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والنويري مسرح جانبي ترتسم فيه معالم واضحة ، بعض الشيء ، للمسجد والسوق والبيت والمزرعة .

## المدارس والمعلمون

وفما كتبه ابن حوقل عن صقلية ما ينقل إلينا شيئاً عن النشاط الثقافي فيها أثناء فترة معينة . فقد سجل هذا الرحالة - حينما زار بلرم - ظاهرتين كانتا متلازمتين تقريباً هما كثرة المساجد وكثرة المعلمين ، فعرف أن في بلرم ما يزيد على مائتي مسجد ، وقرر أنه لم ير مثل هذا العدد في بلد من البلدان الكبار ولا سمع به إلا فيما يتذاكره أهل قرطبة . قال ” ولقد كنت واقفاً ذات يوم بها في جوار دار أبي محمد القفصى الفقيه الوثائقى فرأيت من مسجده في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصرى ومنها شئء تجاه شئء وبينها طريق (١) “ وعلة هذه الكثرة فيما استطاع أن يتعرفه من سؤال الناس ” أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يجب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه ، لا يجب أن يشركه فيه غير أهله وحاشيته ، وربما كان أخوان منهم متلاصقة دارهما متصابقة الحيطان ، فعمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده (٢) . “

وربما كان هذا التعليل الذى يقول به ابن حوقل صحيحاً لأن فيه ما يصور تلك الروح الفردية التى كانت تغلب على الحياة الإسلامية هنالك . غير أنا لانسى أن المسجد لازم استيطان المسلمين في كل بلد من بلدان صقلية حتى كان القائد يبنى المسجد والمنبر توأماً لئلا أثر استيلائه على بلد أو حصن ، وهى ظاهرة صاحبت الفتح الإسلامى في أقطار أخرى ، ولكنها كانت في صقلية أشد وأعنف ، لرسوخ المسيحية فيها عند الفتح ، فالإكثار من بناء المساجد

(١) المكتبة الصقلية : ٦ - ٧

(٢) المصدر نفسه : ٧ .



خير ما يقنع الجماعة الإسلامية بانتصارها على كل موروث صقلي ، وخير ما يطمئن الأذهان إلى تثبيت الصبغة الإسلامية في تلك البلاد ، وهي طمأنينة لازمة في بلد مجاور للعدو المتربص . وثمة شيء آخر وهو أن ابن حوقل إنما دهش لكثرة المساجد في بلرم وحدها لأنه لم يزر من صقلية بلداً آخر فيما يظهر ، وكانت بلرم يومئذ هي العاصمة ومجتمع أهل الأدب ومنتجع طلاب العلم من سائر أنحاء صقلية ، فنشاط الحركة التعليمية فيها كان سبباً في الاستكثار من المساجد وانضاف إلى هذا ما قاله ابن حوقل من التكاثر بها ، وأصبح غرض كل واحد من بناء المسجد « أن يقال مسجد فلان لا غير »<sup>(١)</sup>.

في هذه المساجد وفي المكاتب كثر المعلمون ، حتى كان منهم في بلرم ما لا يقل عن ثلاثمائة معلم . وفكرة ابن حوقل عن المعلم مستمدة من الصورة الساخرة التي رسمها الجاحظ ، وهي فكرة وجدت سبيلها أيضاً إلى الأندلس حيث نجدها عند أبي عامر بن شهيد حين يقول في تصويره ثقافة المعلم « وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون إلى فطن حمئة وأذهان صدئة سقطت إليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد البائس من الرقص والإيقاع »<sup>(٢)</sup>.

ويغلو ابن حوقل في حملته على المعلمين حتى ليأراهم يمثلون الجنون والصرع ويعتقد أن الناس أجمعوا على أن المعلم محكوم عليه بالنقص والجهل والخفة وقلة العقل . غير أن معلّم صقلية في نظره يتفوقون في هذه الصفات على معلّم كل بلد . ومما كثرهم فيها " فرارهم من الغزو ورغبتهم عن الجهاد ، وذلك أن بلدهم ثغر من ثغور الروم وناحية تحاذي العدو ، والجهاد فيهم لم يزل قائماً والنفير دائماً مذ فتحت صقلية " <sup>(٣)</sup> ولذلك لم يكن يعنى من الجهاد إلا

(١) المكتبة الصقلية : ٧ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة القسم الأول المجلد الأول : ٢٠٥ .

(٣) ابن حوقل ( الطبعة الثانية ) ١٢٦/١ .

المعلمون ، أو من بذل الفدية عن نفسه ، أو تخلف مع رابطة السلطان ، فكان من السهل على من يخشى لقاء العدو أن يتخذ التعليم حرفة له ولذلك نزع إلى التعليم بلهم وحسنه لديهم جهلهم»<sup>(١)</sup>.

هذه الكثرة في عدد المعلمين والمساجد والمكاتب تشير إلى نشاط تعليمي واسع ، ومهما تكن الأسباب التي أدت إلى كثرة المعلمين — وما ذكره ابن حوقل لا يعدو الحق — فالذي لا شك فيه أن المعلم في هذا العصر كان شخصية طاغية الأثر في حياة الناس . وكان أهل صقلية يخالفون ابن حوقل في نظرهم إلى المعلمين — كانوا يرون أنهم ” أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم ومحصلوهم وأرباب فتاويهم وعدولهم ، وبهم عندهم يقوم الحلال والحرام وتنفذ الشهادات وهم الأدباء والخطباء “<sup>(٢)</sup>. وقد رأى ابن حوقل من هؤلاء المعلمين من يتولى خطبة الجمعة ، وعرف منهم العدول ، وسمى من توصل من بينهم إلى منصب القضاء . فكان هؤلاء المعلمون هم الذين يوجهون الرأي العام في أمور الدين والدنيا ، ولعل تدخلهم في الأمور السياسية هو الذي جعل ابن حوقل يصبّ عليهم تقمته المريرة ويرومهم بكل نوع من أنواع الحسة والندالة ، دل على ذلك قوله فيهم « حتى إنهم المتكلمون على السلطان في سيره واختياراته . والإطلاق بالقبائح من ألسنتهم بمعايبه وإضافة محاسنه إلى مقابحه »<sup>(٣)</sup>. فمن هو السلطان الذي يعنيه ابن حوقل ؟ أهو حاكم صقلية أم الخليفة الفاطمي ؟ سواء أكان هذا أم ذاك ففي كلمات ابن حوقل دلالة على المقاومة التي كان يقودها جماعة المعلمين في وجه المذهب الشيعي .

ويفهم مما ذكره ابن حوقل أن حرفة التعليم لم تكن تدرّ خيراً كثيراً على أصحابها ، حتى كان فيهم من لا يصيب من طلابه على كثرتهم أكثر من عشرة

(١) المصدر السابق : ١٢٧ .

(٢) ابن حوقل ١/١٢٧ .

(٣) المصدر السابق : ١٢٦ .

دنانير في السنة<sup>(١)</sup> ويريد ابن حوقل أن يثبت من ذلك أن المعلم قد قنع باليسير هرباً من الجهاد، وأن الحرب من الجهاد نقص في الرجولة والمروءة، ولكن ابن حوقل نفسه يتحدث في مكان آخر عن فقر أهل صقلية - على كثرة خيراتها - وأنه ليس فيهم رجل تملك بكرة عين ولا رآها قط إلا عند سلطان إن كان ممن يدخل إليه ومحله محل من يؤذن له عليه<sup>(٢)</sup>. وهذا الفقر العام يفسر قلة ما كان يحصله المعلم، فإذا أضفت إلى الفقر كثرة المتنافسين في صنعة واحدة عرفت سر الضالة في الحصول. ولقد كان عبد الحق الفقيه إماماً من أئمة صقلية لا مدرساً في كتاب ومع ذلك فلم يجد بيده من المال ما يشتري به كتاباً، واضطر أن يبيع بعض ما يملك في سبيل شرائه. وربما كان النقد في أيدي الناس قليلاً لتعاملهم بالمقايضة والبدل، وهذا يجعلنا نظن أن المعلمين لم يكونوا يأخذون أجرهم نقداً دائماً، وإنما كان يصلهم من طلابهم محاصيل متنوعة على طريق الأجر أو الهدية.

ومع كل ذلك فقد كان يزاول مهنة التدريس كثير من أعيان البلاد، ويتخرج في المدارس كثير من أولاد السراة<sup>(٣)</sup>. وقد أطلعنا ابن حوقل على صورة راقية من صور الكتاب حين حدثنا عن واحد منها لم يكن ينفرد بالتعليم فيه معلم واحد بل يدرس فيه خمسة معلمين لهم من بينهم رئيس هو مدير الكتاب<sup>(٤)</sup>. ولم تعجب هذه الصورة ابن حوقل ووصفها بأنها من أرث ما رآه في صقلية وأغثه، وتهكم بأشخاص المعلمين فيه، وأزرى على خلقهم، وضحك من بكائهم على أحدهم حينما مات وخرج زملاؤه يشيعونه. وفي هذه المكاتب وفي حلقات الشيوخ بالمساجد كان الصقلي يتلقى علومه الأولى، فإذا نزعته به في مستقبل حياته نزعة علمية، غادر صقلية

(١) المصدر السابق : ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٧ .

(٣) المصدر نفسه وقد تحمل العبارة هناك على عمل آخر .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٣٠ .

إلى المشرق فدرس على أساتذة مشهورين، ورجع يحمل إجازات كثيرة ، أو كاتب هؤلاء الأساتذة دون أن يرحل ، واستجازهم كتبهم ، أو طمح إلى زيارة الكعبة فالتقى في رحلته بالشيوخ المشهورين ، فسمع منهم وتلقى عنهم ، وعاد إلى بلده ، فزادت الرحلة من مكانته ، واعتقد الناس أنه قد أصبح عالماً يقصد لعلمه . وكانت مصر مهبط كثير من هؤلاء الراحلين في طلب العلم لعلاقتها بصقلية ، ولنشاطها العلمي ، ولأنها على الطريق إلى الحجاز .

وإذا استأنسنا بما رواه المازرى عن نفسه في تأليف كتاب « المعلم » قدرنا أن المدرسين كانوا يلقون العلم إلى الطلبة إملاء ، وأن الطلبة كانوا يدونون ما يلقى إليهم من محاضرات ، ثم يكون من بعد ذلك كتاب ينتشر باسم الأستاذ الذي أملاه<sup>(١)</sup> .

وقد أشار ابن حوقل إلى أن صبيان المكتب كانوا كثيرين<sup>(٢)</sup> . وتحدثنا إحدى الروايات الموسومة بشيء من التفصيل أن عدد الطلبة كان يصل أحياناً إلى ثمانين طالباً في الحلقة الواحدة ، وأن هذا العدد كان يضم طلبة من بلدان مختلفة<sup>(٣)</sup> وهو عدد ضئيل إذا قارناه بما روى عن مجالس بعض الأعلام كالجويني فقد كان يجلس في حلقة درسه كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة ومن الطلبة<sup>(٤)</sup> .

ولم تكن علاقة التلميذ بأستاذه دائماً نوعاً من العرفان بالجميل فقد كان الطالب أحياناً ينشق على أستاذه ، وينبه على أوهامه ، ويعيب عليه بعض آرائه<sup>(٥)</sup> ، أو يسيء الأدب معه ويتتبع سقطاته<sup>(٦)</sup> .

(١) ابن الأبار ، التكملة رقم ١٥١٢ .

(٢) ابن حوقل ١٢٧/١ .

(٣) ابن بشكوال ، الصلة رقم ٣٥١ .

(٤) السبكي ، طبقات الشافعية ٢٥٥/٣ .

(٥) Centenario ٣٧٣/١ فقلا من كتاب ترتيب المدارك .

(٦) المصدر السابق : ٣٨١ .

## هجرة الكتب إلى صقلية

وكانت الكتب التي يتداولها الطلبة والأساتذة مما يرد على الجزيرة من بلاد المشرق والأندلس والقيروان أو مما يؤلفه الأساتذة أنفسهم . وإذا استطعنا أن نعرف الكتب الواردة التي راجت في صقلية ، أو أمثلة منها على الأقل ، كان ذلك خير معين لنا على تصور الثقافة السائدة في الجزيرة وعلى مدى الامتزاج والتفاعل في تلك الثقافة . وقد كانت الكتب ترحل كالناس في بطاء ، وتتحرك من مكان إلى آخر في أناة ، وربما كان انتقال كتاب من بلد إلى آخر حدثاً يستحق التأريخ . فليس بغريب أن يصرح ابن القطاع الصقلي حين سأله المصريون عن كتاب « الصحاح » للجوهري بأن الكتاب لم يصل إليهم في صقلية <sup>(١)</sup> . ويحدثنا ابن رشيقي أن أول من أدخل كتاب « اليتيمة » للثعالبي إلى القيروان هو أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي سنة ٤٣٩ هـ <sup>(٢)</sup> ، ولما رحل ابن البر الصقلي إلى المشرق كان كتاب اليتيمة أحد مروياته عن شيخه أبي محمد إسماعيل بن محمد النيسابوري ، وعنه تلقاه في صقلية تلميذه ابن القطاع <sup>(٣)</sup> .

وقد دخلت « المدونة » في الفقه المالكي عند فتح صقلية أو بعيد ذلك بقليل ، وكان كل نشاط الفقهاء يدور حولها اختصاراً وشرحاً ، وبياناً لما فيها من غريب ، ونسجاً على منوالها . وظل الأمر كذلك حتى آخر أيام العرب في صقلية . وبديهي أن الموطن كان يدرس في صقلية أيضاً ويقوم بتدريسه محدثون

( ١ ) القفطى ، إنباه الرواة ١/ ٤٣٦ .

( ٢ ) ابن بسام ، الذخيرة ٤ مجلد ١ ص ٦٨ .

( ٣ ) ابن ظافر ، بدائع البدائع على هامش معاهد التنصيص ١/ ٩٢ .

أعلام، مثل الفقيه السمنطاري، وكان الطلبة لكثرة دروج الاسم على أفواههم يلفظونه بغير همز. ويستعملون إلى جانبه كتاب «الملخص» وهو كتاب ألفه القابسي ونخص فيه ما اتصل اسناده من حديث الموطأ وكان الطلبة يسمونه الملخص بالفتح مع أن صاحبه سماه الملخص بالكسر<sup>(١)</sup>. وألف ابن جعفر القصري كتاباً سماه بكتاب «تجديد الإيمان وشرائع الإسلام» يشتمل على نيف وستين جزءاً وفيه بحث في المعجزات فدخل صقلية وقرأه الناس<sup>(٢)</sup>.

وفي القرن الخامس وردت إلى صقلية نسخة من كتاب «التحريب» وهو كتاب اختصر به البرالي البلسي (البرلي بخط ابن بشكوال) كتاب المدونة وجمع فيه أقوال أصحاب مالك حتى قال فيه بعضهم: من أراد أن يكون فقيهاً من ليلته فعليه بكتاب البرلي<sup>(٣)</sup> وقرأه عبد الحق شيخ فقهاء صقلية في عصره، وأراد أن يشتريه فلم يتيسر له ثمنه، فباع حوائج من داره واشتراه<sup>(٤)</sup>، فلما عرف أهل صقلية ذلك زادت قيمة الكتاب في أعينهم، فأقبلوا عليه وتنافسوا في اقتنائه.

وتحدثنا المصادر أن علي بن حمزة اللغوي راوية المتنبي ذهب إلى صقلية وعاش في بلرم وتوفي بها سنة ٣٧٥ هـ وربما روى عنه الصقليون بعض كتبه التي كانت في أكثرها ردوداً على الأئمة كالرد على ابن السكيت في إصلاح المنطق والرد على الجاحظ في الحيوان والرد على ثعلب في الفصيح... إلخ<sup>(٥)</sup> وربما استنتجنا بأنه درس هنالك ديوان المتنبي. وأيضاً كان الأمر فن المحقق أن صقلية عرفت ديوان المتنبي معرفة وثيقة إذ كان جزءاً من ثقافة عالمها اللغوي ابن البر، درسه علي ابن رشدين بمصر ثم أخذه عنه طلبته بصقلية<sup>(٦)</sup>. ولعل

(١) ابن مكي، تقييد اللسان نسخة الآستانة الباب ٣٦.

(٢) الصلة رقم ٣٧٩.

(٣) رياض النفوس في المكتبة: ١٩٤.

(٤) ابن فرحون الديباج المذهب: ١١٣.

(٥) ياقوت، معجم الأدباء ٢٠٨/١٣.

(٦) ابن الأبار، التكلة رقم ٣٦٧.

دواوين كثيرين من شعراء المشرق دخلت صقلية أيضاً فنحن نسمع أن المغنين فيها كانوا يغنون أشعاراً لقيس بن الخطيم ، وابن الرومي وذو الرمة وسحيم عبد بنى الحسحاس وكثير عزة وجريير وجميل والشريف الرضى وغيرهم<sup>(١)</sup>.

وفي الأسانيد ما يدل على أن طلبة ابن البر اللغوي رَوَوْا عنه « مقدمة ابن بابشاذ » في النحو . ومن الكتب التي درسها هذا العالم كتاب « أدب الكتاب » لابن قتيبة وعنه تلقاه تلميذه أبو العرب الصقلي ثم درسه في الأندلس حين ارتحل إليها<sup>(٢)</sup>.

ولا ننسَ أن كتاب كليله ودمنة من الكتب التي راجت في صقلية . ولما دخل ابن رشيقي إلى صقلية دخلها كتبه وخاصة كتاب « العمدة » ، وجرى تدريسه في مدينة مازر حتى لقد رأى القفطى على إحدى نسخ العمدة قراءة ابن منكود وإلى مازر لهذا الكتاب على مؤلفه<sup>(٣)</sup> . وقد اختصره فيما بعد أجد الصقليين وهو عثمان بن علي الخزرجي وكان في أيام يحيى بن تميم بن المعز<sup>(٤)</sup> . ويدلنا العمدة على بعض المصادر التي كان يستطيع أن يطلع عليها أهل المغرب ومن السهل أن ترتحل هذه الكتب إلى صقلية بعد أن تصل إلى القيروان ، أي أن أهل صقلية ربما عرفوا كتب قدامة بن جعفر والرواني والعسكري وغيرهم . وقد أثر قدامة في توجيه النقد في المغرب في غير ابن رشيقي ، ونسمع أن الشاعر المعروف بابن ميخائيل<sup>(٥)</sup> أحد شعراء المعز كان شديد الانتقاد للشعر على مذهب قدامة<sup>(٦)</sup> .

وعرفت في المغرب أيضاً كتب أبي حيان التوحيدي ورسائل إخوان الصفا

(١) ابن مكي ، تثقيف اللسان ، الباب الأربعون .

(٢) ابن الأبار ، التكلة رقم ٣٨٦ .

(٣) القفطى ، إنباء الرواة - ترجمة ابن رشيقي ١/٢٧٧ .

(٤) ياقوت ، معجم الأدباء ١٢/١٣٥ .

(٥) هو محمد بن الحسين بن أبي الفتح القرشي المغربي . انظر ترجمته في كتاب المحمدين من الشعراء للقفطى ( نسخة دار الكتب المصورة رقم ٢١٧٧ تاريخ الورقة ٧٦ ) .

(٦) المصدر السابق .

وكان أول من أدخل هذه الرسائل إلى الأندلس هو الكرمانى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ<sup>(١)</sup> ، ولعلها دخلت صقلية فى تاريخ مقارب .  
ولعل صقلية كانت تستمد بعض الكتب فى الطب من شمال أفريقيا فنداء العصر الفاطمى عرفت القبروان نشاطاً واسعاً فى الطب ، واشتهر فيها إسحاق بن عمران وابن سليمان الإسرائيلى وابن الجزار وقد ترك هذا الأخير ما يقرب من ثلاثين مؤلفاً ولا يعقل أن تكون هذه الكتب مجهولة كلها فى صقلية .

#### ٤

### الفقه والحديث والقراءات

استمدت صقلية من إفريقية ناساً يعمرونها بعد الفتح ، فذهب إليها هؤلاء بعقلياتهم وثقافتهم ومذاهبهم ، فإذا أردنا أن نتصور حياة ناحية ثقافية فى صقلية كان لابد لنا من أن نعرف إلى حالها فى إفريقية قبل ذلك .  
وفى الفقه كان يغلب على إفريقية فى القديم مذهب الكوفيين ومذهب الأحناف<sup>(٢)</sup> . ثم أخذ جماعة ممن درسوا مذهب مالك يحاولون نشره ، ولكن هذا المذهب لم يستطع أن يبسط ظله على إفريقية إلا أيام أسد وسحنون اللذين استمدا ثقافتهم الفقهية من المشرق .

وأصحاب سحنون هم الذين نشروا مذهب مالك فى صقلية فكان عبد الله ابن حمدون (أو حمدويه) الكلبي الصقلى أحد من سمع منه (توفى سنة ٢٧٠ هـ<sup>(٣)</sup>) من أوائل فقهاءها ، وكان من أصحابه أيضاً دعامة بن محمد الفقيه

(١) ابن أبى أصيبعة ، طبقات الأطباء ٤٠/٢ .

(٢) Gentenario p. 261. نقلا عن المدارك .

(٣) Gentenario المجلد الأول : ٣٦٩ .



الذى ولى فيها القضاء لبني الأغلب (توفى سنة ٢٩٧ هـ) <sup>(١)</sup>. ومنهم أيضاً محمد بن ميمون بن عمرو والأفريقي قاضى القيروان وأولاً قاضى صقلية (٣٢٠ هـ) <sup>(٢)</sup> وكان لقمان بن يوسف الغسانى يدرس المدونة ويأخذها فى اللوح مدة أربع عشرة سنة أقامها فى صقلية ، ويقال إنه كان عالماً باثنى عشر صنفاً من العلوم (٣١٩ هـ) <sup>(٣)</sup> .

وفى سنة ٢٨١ عين سالم بن سليمان الكندى للقضاء فى صقلية فسار فيها بسيرة العدل . وكان إلى جانب القضاء مهتماً بتدريس الفقه ، ولذلك انتشر عنه مذهب مالك فى صقلية وظل فى القضاء حتى سنة ٢٨٩ هـ وعرف فيه الناس حسن أخلاقه وتقشفه وبره بطلبة العلم ، ولعله أن يكون ألف فى صقلية كتابه فى الفقه الذى دعى « السلیمانية » نسبة إليه <sup>(٤)</sup> .

كل هذا يفيد أن مذهب مالك أخذ فى الانتشار فى صقلية قبل انتهاء القرن الثالث . فكيف نوفق بين هذا وبين قول المقدسى " والغالب على أهل صقلية أصحاب أبى حنيفة " <sup>(٥)</sup> ؟ إذا عرفت أن المقدسى كتب كتابه بعد قيام الدعوة الفاطمية فى إفريقية قدرنا أن يكون المذهب المالكى قد انهزم أمام هذه الدعوة فى صقلية كما انهزم فى إفريقية . ولكن لم يقبل الناس هنالك على مذهب أبى حنيفة ولا يأخذون بالمذهب الفاطمى ؟ ربما كان فى صقلية أقلية من أتباع أبى حنيفة فلما هزم المذهب المالكى ظهروا على غيرهم وربما لجأ المالكيون إلى مذهب أبى حنيفة فرارا من ترك السنة لأن بنى أبى عبيد كانوا متسامحين مع الأحناف متشددين مع المالكية . .

(١) المكتبة الصقلية ، الملحق الأول : ٥ ، نقلا عن البيان المغرب .

(٢) رياض النفوس فى المكتبة الصقلية : ١٩١ وانظر الديباج المذهب : ٣٣٤ .

(٣) رياض النفوس فى المكتبة الصقلية : ١٩٢ وانظر كذلك طبقات أبى العرب : ١٧١

(٤) Gentenario, vol., II, p. 108. نقلا عن المعالم الجزء الثانى : ١٣٦-١٣٧ وانظر

طبقات أبى العرب : ١٤٨ .

(٥) المكتبة الصقلية ، الملحق الأول : ٥٧ وأحسن التقاسيم ص ٢٣٨ .

وكان من المقاومة العنيفة التي واجه بها المالكية بنى عبيد ، ثم لإخفاق ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد التي كانت تعبيراً عن نقمة الفقهاء المالكيين على العبيديين - كان من ذلك أن هاجر كثير من الأفريقيين إلى صقلية لينجوا بأنفسهم من الاضطهاد المذهبي .

غير أن بلاط صقلية - وصاحبه فاطمي الهوى - كان يؤوى الفقهاء الذين يميلون إلى بنى عبيد أو الذين لا يقفون منهم موقف المتشددين ، لأن من كان متساهلاً من الفقهاء في نظريته إلى العبيديين ، لم يكن يقدره علماء القيروان المتشددون - كرهوا أبا إسحاق التونسي لأنه لم يُفت بكفر من يقول بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة<sup>(١)</sup> ، وكرهوا البرادعي (خلف بن أبي القاسم الأزدي) لأنه كان يصحب سلاطين القيروان ولأنه - فيما يقال - تمثل في بعض كتبه مشيراً إلى العبيديين :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن وعدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

فأفتوا بطرح كتبه<sup>(٢)</sup> فلما نبت به القيروان خرج إلى صقلية وقصد أميرها فحصلت له عنده مكانة - وهذا دليل على ترحيب البلاط الصقلي بمن كان يسلم المذهب والسياسة الفاطمية - وفي صقلية ألف البرادعي كتبه مثل كتاب التهذيب في اختصار المدونة وغيره. وطارت كتبه بصقلية حتى لقد قيل إن المناظرة في جميع بلدانها كانت بكتابه المسمى بالتهذيب<sup>(٣)</sup> . وواضح من مقدمة هذا الكتاب أنه ألفه تسهيلاً على الطلبة في دروس الفقه إذ يقول هنالك : " هذا كتاب قصدت فيه إلى تهذيب مسائل المدونة والمختلطة خاصة دون غيرها ، إذ هي أشرف ما ألف في الفقه من الدواوين ، واعتمدت فيها على الإيجاز والاختصار ، دون البسط والانتشار ، ليكون ذلك أدعى لنشاط الدارس ،

(١) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ١٥١/٢ .

(٢) ابن فرحون ، الديباج المذهب : ١١٢ .

(٣) المصدر السابق (الديباج) .

وأُسرع لفهمه وعدة لتذكرته . . . وجعلت مسائلها على التوالى حسبما هي في الأمهات ، إلا شيئاً يسيراً قدمته أو أخرته ، واستقصيت مسائل كل كتاب فيه ، خلا ما تكرر من مسائله أو ذكر منها في غيره ، فإنى تركته مع الرسوم وكثير من الآثار كراهية التطويل<sup>(١)</sup> » وقد فرغ البرادعى من كتابه هذا سنة ٣٧٢ هـ . وفي مقدمته - التى اقتبست منها آنفاً - ما يشير إلى أن الطريقة المدرسية فى تلخيص المطولات كانت قد أخذت تجد طريقها إلى حلقات العلم بصقلية ، وهى طريقة فيها شىء من الخطريشبه من الناحية الأخرى كثرة التعلق بالشروح والحواشى . وليس للبرادعى فى « التهذيب » رأى ذاتى ومع ذلك فقد استدرك عليه عبد الحق الصقلى فيما وهم فيه على المدونة مع أن البرادعى صرح فى مقدمة كتابه بأنه صحح روايته على أبى محمد بن أبى زيد<sup>(٢)</sup> .

ولم يتكون لصقلية مدرسة فقهية من أبنائها إلا فى أواخر القرن الرابع حين نجد أمثال الحصائرى أبى بكر الصقلى الفرضى الذى كان عليه اعتماد الطلبة الصقليين فى دراسة الفرائض ، وأبى بكر بن أبى العباس الفقيه الذى كان يشتغل بالتدريس ، وكل هؤلاء استمدوا ثقافتهم من أساتذة غرباء فى صقلية أو غيرها ثم كان لهم الفضل فى تخريج أكبر فقهاء صقلية ومحدثيها فى القرن الخامس فن تلامذتهم ابن يونس ، وعبد الحق الصقلى والسمنطارى . وعلى يد هؤلاء تخرج متأخرو الفقهاء الصقليين الذين أدركهم الفتح النورمانى ومنهم من بقى فى صقلية كابن الحكار الصقلى وابن مفرج وابن الكلاعى وابن القابلة<sup>(٣)</sup> ومنهم من غادرها عند الفتح كأبى الحذاء القيسى الصقلى وأبى البهاء عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقرئ وأبى القاسم السرقوسى<sup>(٤)</sup> .

(١) البرادعى ، تهذيب المدونة ( نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٠٥ فقه . الكلى ) الورقة الأولى .

(٢) البرادعى ، تهذيب المدونة ص ١ .

(٣) Centenario ، المجلد الأول ص ٣٨٣ ما بعدها .

(٤) السلى ، المعجم ورقة ١٢٠ ، ٢٤٦ .

ومع امتياز طبقة ابن يونس ، وعبد الحق والسمنطاري في الشهرة التي كسبوها خارج حدود صقلية ، لا نجد لهم تميزاً بدراسة معينة فكلهم يحومون لحول المدونة في الفقه وحول الموطأ في الحديث . فتناول ابن يونس الفرضي المدونة وأضاف إليها غيرها من الأمهات وجعل من ذلك كتاباً كان عليه اعتماد طلبة العلوم للمذاكرة حتى لقد انتقل الكتاب إلى المغرب وانتسخ في سبعة<sup>(١)</sup> وهذا أول مثل على كتاب تصدره صقلية إلى الخارج . وبعد أن تفقه عبد الحق بالشيوخ القرويين ، وحجّ أول مرة ، والتقى بالقاضي عبد الوهاب المالكي وأبي ذر الهروي — بعد ذلك عاد إلى صقلية يتناول المدونة يدرسها ويؤلف الكتب حولها فألف كتاب « النكت والفروق لمسائل المدونة » — وهو من أول ما ألف — واشتهر الكتاب وأقبل عليه الطلبة<sup>(٢)</sup> ثم ندم على تأليفه هذا وتغيرت نظرته إليه ، فتولاه بالتغيير ورجع عن كثير من اختباراتهِ وتعليقاتهِ ، وكان يقول لو قدرت على جمعه وإخفائه لفعلت<sup>(٣)</sup> . وألف كتاب تهذيب الطالب واستدرك على تهذيب البرادعي للمدونة ، وكتب جزءاً في بسط ألفاظ المدونة . وبسببه أقبل الناس على كتاب « التقريب » وهو اختصار للمدونة .

ومع ذلك فإن عبد الحق أكبر فقيه صقلى أحرز شهرة في وطنه وفي خارجه حتى إنه لما حج حجته الثانية سنة ٥٤٠ هـ ولقى بمكة الجويني أعجب به إمام الحرمين وكان يحله ويعترف بفضله — كما أعجب به عبد الحق — وكان الجويني يخاطبه في كتبه إليه بالشيخ الأوحّد والشيخ الجليل إذ تبودلت الرسائل بينهما وهما في مكة ، ومن العجيب أن يتبادلا هذه الرسائل وهما في بلد واحد ، ولكن يظهر أن عبد الحق أراد أن يثبت أجوبة الجويني في كتاب ينشره على الناس ، وتدور الأسئلة التي تقدم بها عبد الحق على عدة موضوعات فقهية وكلامية فقد سأله مثلاً عن اعتقاد بعض العوام أن الله سبحانه كالأجسام

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب : ٢٧٤ .

(٢) المصدر السابق : ١٧٤ .

(٣) المصدر السابق .

العظيمة التي تعظم بكثرة الأجزاء ، وعن ذهول العوام عن وجه الدلالة على صدق الأنبياء هل يضرهم ، وثمة أسئلة عن الجوهر والعرض وعن الكرامات وما يصح منها وما لا يصح ، وهل يجوز ازدياد الطعام كرامة للولي مع منع انقلاب الدجلة ذهباً ، وأسئلة عن المنجمين ، وعن معنى تمثل جبريل للنبي عليه السلام في صورة دحية الكلبي ، وهل تنفصل أجزاء ثم تعاد أثناء هذا التمثل أم تصير بعض الأجزاء على صفة رجل وتبقى الأجزاء الأخرى <sup>(١)</sup> .

ونحن نتساءل هل كانت هذه المسائل تدور في رؤوس الفقهاء ودارسي الفقه بصقلية أو أنها صورة مما كان يعتلج في نفس عبد الحق وحده ؟ وإلى أى حد تمثل أسئلته عن الكرامات وعن التنجيم جوانب من الحياة العقلية في بلده ؟ وهل كان الناس مهتمين حقاً بالاطلاع على أمور تتعلق بالصفات وثبوت النبوات ؟ وهي أسئلة لا يمكن أن نقطع فيها بالقول الفصل .

وعن طريق عبد الحق امتد أثر صقلية إلى الخارج فقد درس في صقلية والقيروان ومكة والإسكندرية — درس عليه في القيروان ابن الخياط <sup>(٢)</sup> ومحمد بن نعمة الأسدي <sup>(٣)</sup> ولقيه بمكة ابن قطري الزبيدي <sup>(٤)</sup> وعبد الرحمن بن المعافري <sup>(٥)</sup> . ودخل أثره الأندلس لأن بعض تلامذته هاجر إليها كثابت الفقيه الصقلي <sup>(٦)</sup> وكان من تلامذته في صقلية نفسها طلبة أندلسيون كما كان فيمن لقيه أثناء رحلاته جماعة من الأندلسيين أيضاً كابن أبي الدنيا القرطبي <sup>(٧)</sup> الذي صحبه بمكة ومصر وأخذ عنه كثيراً ، وابن الحصار <sup>(٨)</sup> الذي درس عليه في صقلية نفسها ،

(١) مسائل للشيخ عبد الحق بن محمد بن هارون الصقلي (مجموعة رقم ١١ ش فقه مالكي بدار الكتب المصرية) .

(٢) ابن بشكوال : السلة رقم ٨٣٦ .

(٣) المصدر السابق رقم ١٢٠٧ .

(٤) ابن الأبار : التكلة رقم ٥٠٨ .

(٥) ابن الأبار : رقم ١٦٤٨ .

(٦) ابن بشكوال رقم ٢٨٧ .

(٧) ابن بشكوال رقم ٤٥٥ .

(٨) ابن بشكوال رقم ٣٩٢ .

وأبى عبد الله الميورقي الذي صحبه في رحلته الثانية وأخذ عنه تواليفه <sup>(١)</sup>. وليس لدينا من مؤلفات عبد الحق ما يجلى لنا أثره الصحيح في الفقه ، ولعله كان متشدداً في أحكامه وفتاواه والمثال الوحيد الذي نملكه على ذلك افتاؤه بعدم جواز الصلاة خلف من يظهر في قراءته النون الخفيفة أو التنوين عند الياء والواو وعد هذا من اللحن ، قياساً على من يتكلم في الصلاة متعمداً <sup>(٢)</sup>.

أما ثالث المشهورين وهو عتيق السمنطاري فقد انصرف إلى تدريس الحديث وتلقى ثقافته على الفرضي والحصائري بصقلية ، وسكن بلرم ، أى أنه هجر قريته سمنطار ولزم حلقات الدرس في المدينة . وكانت له رحلة زار فيها الحجاز فحج وساح في البلدان من أرض اليمن والشام إلى أرض فارس وخراسان ، ولقى بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاد فكتب عنهم جميع ما سمع وصنف كل ما جمع <sup>(٣)</sup> ، وقد كان للسمنطاري نشاط واسع في التصوف — ستحدث عنه في حينه — كما أنه ألف في الفقه تأليف وصفت بأنها في غاية الترتيب والبيان <sup>(٤)</sup> . وقام السمنطاري على الموطأ وأفرغ له كثيراً من جهده كما دأب عبد الحق على المدونة . وظل عتيق يدرس الحديث في صقلية حتى سقطت في يد النورمان . ويحدثنا أحد تلامذته أنه رآه بيلرم ووصفه بأنه كان مستجاب الدعوة فعندما قوى دوقه <sup>(٥)</sup> الإفرنجي على الجزيرة وأهلها قال : اللهم إنك قضيت على المسلمين بما قضيت فإن تمت ولايته فسخره لهم . فلما ملكها صار عليهم أحن من الوالد على الولد <sup>(٦)</sup> . وفي سنة ٤٦٤ هـ توفي السمنطاري ، وهاجر بعض تلامذته من صقلية ووصل مصر منهم ابن الخذاء القيسي الصقلي وعبد الكريم

(١) ابن الأبار رقم ٤٤٣ .

(٢) ابن مكي الصقلي : تثقيف اللسان ( الباب ٣٥ ) .

(٣) معجم البلدان لياقوت مادة « سمنطار » والمكتبة الصقلية : ١١٣ .

(٤) المصدر السابق

(٥) في الأصل دوقه : وهو رجار الأول وظاهر من النص أنه استعمل اللقب ظناً منه أنه الاسم

(٦) السلفي الورقة ٢٨٦ .

بن عبد الله بن محمد المقرئ الواعظ<sup>(١)</sup>.

وظل الفقه بعد هؤلاء الأعلام ، يدور حول المدونة ومختصراتها ، حتى إن ابن الحكار الصقلي شرحها بتفصيل في نحو ثلاثمائة جزء<sup>(٢)</sup> ، وذكر من حضر مجالسه أنه كان يناظر بالبرادعي ويتكلم عليه كلاماً دقيقاً<sup>(٣)</sup> . ثم جاء ابن فروج الصقلي (أو ابن مفرج) فأعاد النظر في تمهيد البرادعي ورتبه على نسق المدونة<sup>(٤)</sup>.

وفي غضون هذا العصر اعتنق كثير من المالكية مذهب الأشعري في تأييد السنة فكانوا حرباً على الاعتزال كما كانوا متشددين في التمسك بحرفية مذهب أبي الحسن ، يقول السبكي « والأشاعرة ولا سيما المغاربة منهم كانوا يستصعبون الخروج عن حرفية ما رسمه الأشعري ولا يرون مخالفة أبي الحسن في تقرير ولا قطمير<sup>(٥)</sup> . وقد التقي ابن حوقل في صقلية بمن يكره أهل العراق ويسميهم مرجئة لتركهم القطع على أهل الكبائر بالخلود ، ومن يرى المعتزلة فرقة ضالة ويكفر أهلها<sup>(٦)</sup> ، ولكن هذا لا يعني أن الجزيرة خلت من الاعتزال والتشيع ومذهب الخوارج وغير هذه من مذاهب . وكيف تخلو وسكانها أصلهم من أفريقية وقد كانت المذاهب في أفريقية متنوعة ، فالتشيع في كتامة ومذهبا الإباضية والراسبية منتشران في قسطنطينية وقفصة ونفطة والحامة ، والاعتزال في مزانة وزناتة من قبائل البربر على مذهب واصل بن عطاء ، وفي السوس شيعة ومالكية وبينهم القتال المتصل والدماء الدائمة<sup>(٧)</sup> . ولا بد أن القائلين بالاعتزال

(١) المصدر السابق ورقة ١١٠ ، ٢٤٦ .

(٢) Centenario المجلد الأول : ٣٨٣ .

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق

(٥) طبقات الشافعية : ١٢٤/٤ .

(٦) ابن حوقل ١٢٧/١

(٧) المصدر نفسه ٩٦/١ .

في صقلية قد أظهروا رؤوسهم عند قيام الدعوة الفاطمية كما تقوت نفوس المتشيعين .

ويكاد ما تقدم من بحث يكون قاصراً على الفقه دون غيره من الدراسات كالحديث والتفسير والقراءات لأن المعلومات التي بين أيدينا عن هذه الفروع لا تعدو التفت ، وهي لا تطلعنا على شيء مهما جهدنا في تتبعها واستقصائها فقد يقال لنا مثلاً إن عمار بن المنصور الكلبي كان ذا يد في الفقه والحديث<sup>(١)</sup> وأن ابن مكي كان فقيهاً محدثاً<sup>(٢)</sup> أو ما هو من هذا القبيل . ولكن مثل هذه الأخبار لا تسند البحث بشيء ذي بال . وكل ما هو واضح لدينا أن دراسة الحديث كانت تدور — إبان ازدهار الدراسات الدينية — حول الموطأ أو ملخصات منه ، وأن عبد الحق الصقلي والسمنطاري من أكبر من قاموا بهذه الدراسة في عصر واحد . ومن الطريف أن أحد تلامذة السمنطاري روى في مصر حديثاً رواه فيها تلميذ آخر من تلامذة عبد الحق<sup>(٣)</sup> . وقد عقد ابن مكي في كتاب تثقيف اللسان فصلاً في أغلاط المحدثين<sup>(٤)</sup> وهو فصل لا يدل على نشاط متميز بخصائص معينة ، ولكن له دلالة أبعد ، ففيه إشارة إلى أن علماء صقلية كانوا يتحرزون من الخطأ اللغوي في الحديث ، وربما لم يكونوا يميزونه إطلاقاً . فابن مكي لم يكن لغوياً فحسب ، ولكنه كان فقيهاً محدثاً ، وتعقبه لأخطاء الباحثين لا يمليه عليه الحس اللغوي وحده ، وإنما يبعث عليه أيضاً مبدأه الفقهي ، وابن مكي أيضاً ممن سمع عبد الحق وتلمذ له . وإذا كنا نعرف هذا القدر الضئيل عن الحديث والمحدثين ، فنحن في

(١) العماد الأصفياني : الخريدة الجزء الحادي عشر الورقة ٤٢ والترجمة رقم ٣٧ من مجموعة الشعر .

(٢) المصدر نفسه الورقة ٤٥ والترجمة رقم ٤٦ من مجموعة الشعر .

(٣) هو قول الرسول : الذي تقوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله ، انظر معجم السلفي الورقة ١٢٠ ، ٢٤٦ .

(٤) هو الباب السادس والثلاثون .



الواقع نجهل كل شيء عن التفسير والمفسرين ، لأن المصادر لا تذكر شيئاً من ذلك خلا مرة واحدة جاء فيها أن محمد بن عبد الله المقرئ من أهل صقلية المقيمين بها ، كان من أهل القرآن والتفسير<sup>(١)</sup>.

وربما لم يكن حظنا من المعلومات عن القراءات بأحسن كثيراً من حظنا فيما نعرفه عن الحديث ولكنه على أى حال خير من معلوماتنا عن التفسير . ونستطيع أن نطمئن إلى أن هذه الدراسات تكاد تكون من نصيب كل دارس للعلوم الإسلامية فالفقيه محدث مقرئ فرضى أصولي ، والمقرئ لغوي نحوي محدث وهكذا . وإذا اتخذنا القيروان مثالا لصقلية لمستطعنا أن نحكم بأن قراءة نافع هي التي كانت شائعة فيها فنذ أن حل محمد بن عمر بن خيرون المعافري الأندلسي مدينة القيروان ، وكان إماماً في هذه القراءة أخذ يقرئ الناس بها في مسجد هنالك عرف باسمه ، وكان يأخذ أخذاً شديداً على مذهب المشيخة من أصحاب ورش ، وقد روى القراءة عنه عامة أهل القيروان وسائر المغرب<sup>(٢)</sup>.

ونستطيع أن نلمس أثر مصر في توجيه للقراءات بصقلية ، حقاً ربما كان المعافري الأندلسي ذا أثر في هذه الناحية ولكننا نرى محمد بن خراسان ( توفي ٣٨٦ ) - وأبوه مولى بني الأغلب - يطلب العلم بمصر ويجمع إلى النحو معرفة بالقراءة ويتصدر للإقراء والحديث في صقلية ، ومنه سمع بها يوسف بن أبي حبيب بن محمد وأبو الحسن غيلان ابن تميم الفزاري<sup>(٣)</sup>.

وفي عصر عبد الحق والسمنطاري كثر أهل القراءات في صقلية من الصقليين والغرباء ، فكان من الصقليين عبد الله بن فرح المديني ومحمد بن إبراهيم بن الشامى المديني ومحمد بن علي الأزدي بن بنت العروق ومحمد بن عبد الله القتال ( القناد ؟ ) وهؤلاء جميعاً هم « شيوخ المدينة بصقلية والمقدمون

(١) القفطي : إنباه الرواة ١٢١/٢ .

(٢) ابن الأبار : التكملة رقم ٣١٩ .

(٣) المفتي المقرئ في المكتبة الصقلية : ٦٦٥ .

للإقراء<sup>(١)</sup> » وكان يشاركهم جماعة من الوافدين فيهم أحمد بن محمد بن عباد الأشبيلي وأبو عبيد الله بن جمهير<sup>(٢)</sup> ولعل أشهر المقرئين الصقليين في صقلية نفسها هو ابن بنت العروق الذي درس عليه ابن الحصار القرطبي ثم تصدر بعد ما أحسن القراءة للإقراء بالمسجد الجامع بقرطبة<sup>(٣)</sup>.

غير أن أعظم ما قدمته صقلية في فرع القراءات لم يتم في صقلية نفسها وإنما تم في خارجها ، مما سأشير إليه في فصل آخر .

## ٥

### النواحي اللغوية

لعل الحياة التعليمية التي وصفناها كانت خير مجال للدراسة النحوية واللغوية منذ قرّ المسلمون على أرض الجزيرة . ولكن اللحن كان قوام الكلام في الحياة اليومية ، فأصبح عمل المكاتب وحلقات الدروس ضبط الألسنة عن الخطأ في كتاب الله وحديث الرسول وعند قراءة الكتب وإلقاء الخطب . وعجزت في هذه أيضاً ، فأما المتحرزون المتدينون فتعففوا عن رواية الحديث لثلا يقعوا في الخطأ<sup>(٤)</sup> وأما من لم تهو في نفسه الدوافع لذلك فاندفع يكتب أو يخطب غير ملتبس بالآل إلى ما يقع في كلامه من أخطاء . وقد شهد ابن حوقل خطيباً في بلرم في يوم جمعة وسمعه يجزم الأسماء مع الصلة ويجرّ الأفعال من أول خطبته إلى آخرها ، ولم يكن في الناس من يعترض عليه مع أنه خطبهم نحو حولين<sup>(٥)</sup> . وقد

(١) معجم السلفي ٢/٢٤٦ .

(٢) المصدر السابق

(٣) الصلة رقم ٣٩٢ والمكتبة الصقلية الملحق الأول : ٤٨ .

(٤) معجم السلفي ٢/٢٤٦ .

(٥) ابن حوقل ١/١٢٧ .

تطور أمر هذا اللحن وتعدى دائرة الحديث اليومي ودروش الوعظ وخطبة الجمعة ، وامتد إلى الكتابة والتدوين ، وأصبح التصحيف في « المشهور من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، واللحن في الواضح المتداول منه ، وتعتمد الوقف في مواضع لا يجوز الوقوف عليها من كتاب الله عز وجل وتغيير أشعار العرب وتصحيفها ، وتصنيف كتب الفقه وغيرها ، ملحونة تقرأ كذلك فلا يؤبه إلى لحنها ، ولا يفتن إلى غلطها »<sup>(١)</sup> . وقد ذكر لنا صاحب تثقيف اللسان أمثلة من أغلاط سمعها أو قرأها قال « ولقد وقفت على كتاب بخط رجل من خاصة الناس وأفاضلهم يقول أحب أن تشهد لي في كذا وكذا بالشين يريد تجتهد ، ورأيت في آخر أكبر منه وأعلى منزلة بيت شعر على ظهر كتاب وهو قول الشاعر :

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباقر  
كتبه للأصفار بالصاد . . . وكتب إلى آخر من أهل العلم رقعة فيها  
« وقد عزمت على الإتيان إليك » بزيادة ياء . وشهدت يوماً رجلاً قبله تخصص  
وفقه وحفظ للأخبار والأشعار ، وقد سمع كلاماً فيه ذكر الشدق فلما سمعه  
بالدال غير معجمة أنكر وتعجب من أن يجوز ذلك - وليس يجوز سواه<sup>(٢)</sup> .  
ويتضح من كتاب ابن مكي هذا أن صقلية كانت إلى عصره قد  
انفردت بلهجة ميزتها عن المشرق والأندلس ، قال : « ألا ترى أن أهل المشرق  
يقولون النسيان وآمين عند الدعاء بالتشديد وأخذت للأمر هبته ، وليس في  
بلدنا أحد يقول إلا النسيان وآمين بالتخفيف وأخذت للأمر أهبته ، ومثل  
ذلك كثير مما ذكره علماءهم وأخذوه عليهم وقد يغلطون فيما لا يلفظ به أهل  
بلدنا ، ولا سمعوا به قط ، مثل قولهم فاقرة في الفاقورة وعنب ملاحى وهو مخفف  
اللام وقارورة في القاريه وتوقر وتحمد في توقر وتحمد ، في أشباه لذلك كثيرة

( ١ ) ابن مكي : الورقة الثانية .

( ٢ ) ابن مكي : الورقة ٢ - ٣ .

فما ملأوا به كتبهم ، فإذا قرأه من لا يعرفه ولا يستعمله لم يستفد به كبير منفعة ، وكان معرفة ما يستعمله ويغلط فيه أولى به ، وأعود بالفائدة عليه ، وكذلك غلط أهل الأندلس ربما وافق غلط أهل بلدنا وربما خالفه حكى الزبيدي أنهم يقولون في التيسين تين وفي النونى نونى وفي القبيط قبيد ومثل ذلك كثير مما لا غلط عندنا فيه ولا حاجة بنا إلى التنبيه عليه<sup>(١)</sup> .

ومن مميزات هذه اللهجة أنهم كانوا يقولون « تار » وأخذ بتارى ، ودخرا لك ، ويقولون سكبينة وعروسة ، ويستعمل العامة منهم لفظة حلوة والخاصة لفظة حلاوة بدلا من حلوى ويقولون عنكبوتة وشقة<sup>(٢)</sup> بضم أولها وتشديد ثانيها إلى غير ذلك من ألفاظ تثبت لصقلية تميزاً باللهجة معينة .

وظل هذا اللحن ينمو ويبسط ظله على اللغة حتى إذا بلغنا العصر النورمانى وجدناه يظهر فى الشعر ، فقد حدثنا العماد أنه وجد فى شعر الغاون الصقلى أحد شعراء ذلك العصر لحناً كثيراً ، وربما لو روى لنا شعر كثير من هذا العصر على حقيقته لكننا وجدنا للغاون هذا مشابه بين الشعراء الآخرين<sup>(٣)</sup> . وأكبر الظن أن مكاتب المعلمين وحلق المدرسين أحست إحساساً خفياً بإخفاقها أمام تيار الحياة ، فأخذت تلتوى على نفسها وتجتر غداءها ونسيت واجبها الأول ، فسارت بالنحو إلى مرحلة الألفاظ والأحاجى كالذى نجده فى مثل قول ابن الدباغ الصقلى<sup>(٤)</sup> .

إن هند المليحة الحسناء وأى من أضمرت لخل وفاء  
وليس من الغريب الشاذ أن لا نجد لهؤلاء النحاة كتاباً أو تعليقة إذ كان  
أكثرهم من أرباب المكاتب . وهب أن أولئك النحويين ألفوا كتباً وقاموا

(١) ابن مكى : الورقة ٢ - ٤ .

(٢) كذلك كان يلفظها أهل الأندلس كما هو واضح من أجزالم .

(٣) الحريدة الجزء ١١ الورقة ١١ .

(٤) السيوطى : بغية الوعاة : ٤٢٢ وإنباه الرواة ٢ / ٣٦٠ .

بتعاليق وشروح ، فالذى حدث أن هذه كلها فقدت ولم يصلنا منها شيء .

وليس الأمر كذلك في اللغة فقد اشتهر فيها علماء أعلام امتدت شهرتهم إلى غير بلدهم ، كما اجتذبت صقلية إليها فريقاً من مشاهير اللغويين درسوا فيها وأفادوا . فمن هؤلاء راوية المتنبي الذي تقدمت الإشارة إليه ومنهم موسى ابن أصبغ المرادى القرطبي الذي طلب علم اللغة في المشرق ، ودخل العراق ، ولقي ابن دريد ، ثم اتخذ صقلية وطناً له ، وفيها نظم « المبتدا » في ثمانية آلاف بيت <sup>(١)</sup> ومن هؤلاء أيضاً صاعد اللغوى فقد اختل حاله بالأندلس وعجز عن ستر ولده وأهله واستأذن الخليفة بالانطلاق عن الأندلس فلم يأذن له خوفاً من أن يهجوهم ، فخرج مستخفياً سنة ٤٠٣ هـ واتصل بصاحب صقلية وفارق البؤس وراجع النعمة ثم عاد إلى الأندلس ثم انكفأ إلى صقلية ، ومات بها سنة ٤١٠ هـ <sup>(٢)</sup> ومن اتصاله بصاحب صقلية نعرف أنه أقام بمدينة بلرم ، ولكننا لا نستطيع أن نعرف مدى تأثيره في الدراسات اللغوية أثناء مقامه هنالك .

فإذا ذهبنا نبحث عن جهود صقلية نفسها وجدنا نهضة اللغوية تعاصر نشاطها في الفقه وألفينا مدرسة ابن البرّ اللغوى تظهر جانب مدرسة عبد الحق والسمنطاري في الفقه والحديث . إلا أن ابن البرّ أسس مدرسة في مازر ، ثم انتقل إلى بلرم ، بينما لم يبارح عبد الحق والسمنطاري بلر إلى بلد آخر من صقلية .

وفي المدرسة اللغوية تخرج ابن القطاع وأبو العرب وعمر بن خلف بن مكى الصقلى ومن ثم كانت مدرسة واضحة المعالم لأننا نعرف أصحابها بأعيانهم وبيعض آثارهم ، ونستطيع أن نتصور مبلغ نشاطهم وخطوط اتجاهاتهم . وقد ضم ابن رشيقي جهوده إلى جهود هذه المدرسة وقوى فيها الناحية الأدبية النقدية .

(١) السيوطي : بغية الوعاة : ٤٠٠ والمكتبة الصقلية : ٦٧٨ .

(٢) الذخيرة ، القسم الرابع الجزء الأول ص ٣٨ - ٣٩ وصاحب صقلية حينئذ هو جعفر

ابن ثقة الدولة .

أما شيخ هذه المدرسة فهو محمد بن علي بن الحسين بن البر التميمي الغوثي ، ولد بصقلية ثم رحل عنها في طلب العلم إلى المشرق ، وكان أكثر عنايته موجهها إلى دراسة اللغة ، فدرسها على جماعة من اللغويين منهم النجيري وأبو سهم محمد بن علي الهروي اللغوي ، وصالح بن رشدين وعلي هذا الأخير سمع شعر أبي الطيب المتنبي سنة ٤١٣ هـ<sup>(١)</sup>. وواضح أنه استفاد أكثر معرفته اللغوية في مصر حتى أصبح أحد الأئمة في علم العربية واللغة والآداب وجمع إلى ذلك جودة الضبط وحسن الخط ؛ وشهد له مترجمة بأن كل ما وجد له من تقييد في غاية الإفادة والإمتاع ، وفي سنة ٤٠٥ هـ اتفق مع أبي طاهر التجيبي البرقي أن يغادرا مصر معاً من الإسكندرية إلى المغرب قال التجيبي « واتفق له بعد مفارقتي أن صحب فتياناً من أهل القيروان فالفهم وآثر صحبتهم ، وقد أفلعنا من الإسكندرية في يوم واحد بريح طيبة وتغيرت من بعد<sup>(٢)</sup> ... وفي نهاية الرحلة عادا فالتقيا بالمهدية » .

ولما عاد إلى صقلية اختار مازر مقاماً ، واتصل بصاحبها ابن منكود ، فقربه وأكرمه ، وفي مازر ورد عليه الطلاب يدرسون اللغة ويحدثنا أندلسي من الراحلين إليه في طلب العلم أنه حضر إلى مازر ليدرس عليه فصادف في ذلك الوقت أن علم ابن منكود بأن ابن البر يشرب الخمر فتأثر من ذلك وأرسل إليه من يقول له « إنما أردناك لعلمك ودينك وأردنا منك الصيانة وإذا كان ولا بد من شرب الخمر فهذا النوع ببلرم وربما يعز وجوده هنا<sup>(٣)</sup> » ونحجل ابن البر من هذا القول وأحس أن مازر تضيق به وتتبرم بوجوده ، فارتحل عنها إلى بلرم ، وهناك أخذ يدرس اللغة . والظن أن تلميذه علي بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع درس عليه فيها ، وكذلك فعل أبو العرب

(١) التكملة رقم ١٠٥١ .

(٢) انظر شرح المختار من شعر بشار : ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٣) إنباء الرواة مجلد ٢ الورقة ٢٤٦ وما بعدها .

الصقلي الشاعر ومحمد بن سابق الصقلي الملقب بالجزيري - نسبة إلى جزيرة شقر . وهؤلاء هم أشهر تلامذته الصقليين ، ودرس عليه من غير صقلية أبو القاسم عبد الرحمن بن عمر القصيري وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم الصيرفي وأبو الطيب عبد المنعم بن من الله القروي المعروف بابن الكماد<sup>(١)</sup> . وقد سمع عليه الصيرفي شعر أبي الطيب في شهر ربيع الأول سنة ٤٥٩ وسمع عليه أبو العرب الصقلي كتاب أدب الكتاب لابن قتيبة وعن أبي العرب روى الكتاب بالأندلس إذ درسه في أواخر حياته حين مقامه بطرطوشة<sup>(٢)</sup> . وقبل سقوط بلرم ارتحل ابن البر إلى الأندلس فدخلها سنة ٤٦٠ هـ<sup>(٣)</sup> .

وقبل أن يتفرق تلامذة ابن البر في الأمصار ، ويهاجر أستاذهم من بلرم ، ألف تلميذه ابن مكي كتابه « تثقيف اللسان » ولولا هذا الكتاب لما استطعنا أن نحكم بوجود علاقة بين ابن البر وابن مكي إذ يقول المؤلف في مقدمة كتابه « وعرضت جميع ذلك على الإمام الأوحى العلم المفرد أبي بكر محمد بن علي بن الحسين بن البر التميمي - أيده الله - فأثبت ما عرفه وارتضاه ، ومحو ما أنكره وأباه ، لأزول عن مواقف الاستهداف ، وأريح نفسي من عهدة التغليب ، وأقطع لسان كل حاسد ، وأفل غرب كل مكابر ومعاند »<sup>(٤)</sup> .

فلا بد أن يرى في هذا الكتاب ، ولا بد أن يفرض وجود هذه العلاقة قبل سنة ٤٦٠ هـ ، لأن ابن البر غادر صقلية في هذا العام ، وفيه أو بعده ارتحل ابن مكي إلى تونس حيث تسلم الخطابة فيها ، وكان كما يذكر من ترجم له بليغاً في خطبه حتى إنها لم تكن تقصر عن خطب ابن نباتة<sup>(٥)</sup> .

(١) التكملة : رقم ١٠٥١ .

(٢) التكملة رقم ٨٣ .

(٣) المصدر نفسه رقم ١٠٥١ .

(٤) تثقيف اللسان الورقة ٩ .

(٥) الحريدة ١١ الورقة ٤٥ وإنباء الرواة المجلد الأول الورقة ٦٢٢ .

إذن فكتاب تثقيف اللسان الذى عنينا به فى غير موطن من هذا الفصل أصدق نتاج لصقلية بعامة ، ولدرستها اللغوية بخاصة ، كما أنه — فى باب — خير أثر صقلى قاوم الفناء لتصور منه كثيراً من جوانب الحياة اللغوية فى تلك الجزيرة . ويقول لنا مؤلفه إنه كتبه استجابة لرغبة سائل سأله أن يجمع له مما يصحفه الناس فى ألفاظهم ، وما يغلط فيه أهل الفقه ، فلما انتهى من الكلام فى التصحيح خطر له أن يضم إليه غيره قال : « فأضفت إلى ذلك غيره من الأغاليط التى سمعتها من الناس على اختلاف طبقاتهم من ما لا يوجد فى كتب المتقدمين التنبيه على أكثره ، لأن كل من ألف كتاباً فى هذا المعنى فإنما نبه على غلط أهل عصره وبلده ، وأهل البلدان مختلفون فى أغاليطهم . . . إلخ »<sup>(١)</sup> . فليس لدينا ما هو أصدق من هذا الكتاب تعبيراً عن الشعور باستقلال صقلية فى طابعها اللغوى ، فى كل ما خلقه الصقليون ، وربما ابتز منا هذا الثناء لأنه رمز لوعى قومى فى نفس مؤلفه ، ودليل على معاناته تجربة للرصد والتحرى والإصغاء لما يقرأ ويسمع ، وربما استحق صاحبه تقديرنا لخضوعه للإشراف العلمى الصحيح ، وأخذ به بتوجيه أستاذه .

وبعد أن جمع المؤلف أغلاطاً سمعها من الأفواه فى بلده ، قسم كتابه إلى خمسين باباً تحدث فيها عن التصحيح والتبديل والزيادة فى الأسماء والنقص فيها ، والزيادة فى الأفعال والنقص فيها ، وتأنيث ما هو مذكر وتذكير ما هو مؤنث . . . إلخ وتحدث عن الأغلاط التى يقع فيها العامة والخاصة معاً . وعما يصيب فيه فريق دون آخر ، وقدم لنا فصولاً ممتعة عن أخطاء القراء وأهل الحديث والفقه والوثائق والطب والسماع ، وفى هذه الفصول خاصة استطعنا أن نستشف بعض معالم الحياة العقلية بصقلية فى صفحة الخطأ اللغوى .

والنتيجة التى ننتهى إليها فى هذا البحث أن لغة التأليف لم تكن سليمة

(١) تثقيف اللسان الورقة ٣ ، ٤ .



— إلى جانب لغة الكلام — أو أنها على الأقل لم تكن ترضى أهل اللغة القائلين بالمحافظة عليها . والفقهاء على وجه الخصوص هم الواقعون تحت تهمة التهاون في لغتهم . وهي تهمة ترجع إلى ما قبل هذا العصر إذ نراها عند ابن فارس<sup>(١)</sup> وأبي حيان التوحيدي<sup>(٢)</sup> قبل ذلك . وهذه مشكلة تواجه الصحة في التعبير قبل أن تواجه الجمال فيه ، وربما استطعنا أن نلمس شيئاً منها فيما كتبه ابن حوقل ، فقد حاول أن ينسخر من الصقليين في بلاغتهم وتندر على رجل رآه في المسجد الجامع يبلرم وفي يده قصة مهر ، وهو مقبل على قراءتها وكلما مر له فصل داوم على تقييده لحسن ما تأتى له من المعاني الجيدة والشروط البديعة واستيفاء أسباب البلاغة<sup>(٣)</sup> . ومعنى هذا الخبر أن كتاب العهود والوثائق كانوا قد تطاولوا إلى مقام أهل الكتابة الفنية ، وهو قلب للأوضاع ، لأن البلاغة ليست عنصراً من العناصر التي لا بد أن تستوفيها أوراق العقود وتعابير الشروط . ومن هذا نرى أن صحة التعبير التي كانت لازمة لأصحاب الوثائق ، قد أهدرت وحاول القائلون عليها أن يمسحوها بمسحة من جمال ليخفوا قبح الخطأ فيما يكتبون .

كان هؤلاء الوثائقيون طائفة مهمة في الحياة اليومية وكان الواحد منهم يسمى فلاناً الوثائقي ، وكانت صناعتهم قد اتخذت لها أصولاً ، وكتبت فيها الكتب ، وربما كان معلمهم فيها ابن الهندي القبرطي الذي كان بصيراً بعقد الوثائق ، فألف فيها ديواناً كبيراً وشحنه بالخبر والحكم والأمثال والنوادر والشعر والفوائد والحجج ليضمن لأصحاب الصناعة شيئاً من خلاصة البيان ، واخترع في علم الوثائق فنوناً وألفاظاً وفصولاً وأصولاً وعقداً عجيبة<sup>(٤)</sup> ، ولا

(١) الصاحبي : ٣٢ ط . المطبعة السلفية .

(٢) البصائر والذخائر ( نسخة خطية بدار الكتب المصرية ) المجلد الأول الورقة : ١٥ .

(٣) ابن حوقل ١/ ١٢٥ .

(٤) الصلة رقم ١٩ .

نستبعد أن يكون الوثائقيون في صقلية قد انتفعوا بهذا الكتاب وباصطلاحاته وأصوله، كما لا نستبعد أيضاً أن يكون فيهم من ألف في الوثائق كتباً تهدي المبتدئين إلى ما يريدون معرفته من هذا الفن .  
ولكن اللغة تقلبت على أسنة أعلامهم حتى كادت تكون عامية، ومرجعنا في تصور هذه الناحية كتاب تثقيف اللسان<sup>(١)</sup> .

## ٦

## الزهد والتصوف

منذ أن توجه المسلمون لفتح صقلية ظهر فيهم ميل إلى الجهاد مصحوب بميل آخر إلى المراقبة والعبادة . ومن أجل ذلك بنى رباط على الساحل الأفريقي التجأ إليه الزهاد والصالحون ليطمئنوا إلى الهدوء في تحنفهم، وليطمئنوا على وطنهم من الغارات الخارجية. وظل هؤلاء يحملون سلاحين أحدهما من الحديد والثاني من الدعوات حتى جاء المهدي فترع الأول ن أيديهم وبقي الثاني يدافعون به عن فرديتهم ويلوحون به فوق رؤوس أعدائهم .

وفي وقت قصير أصبحت صقلية كلها رباطاً يستدعى اليقظة في الهجوم والدفاع وعاد النوعان من الميل يظهران في نفوس الناس ، ففريق من الصالحين آثر الحرب والجنديّة ، وفريق قنع بالانفراد والانقطاع عن الدنيا . وبين هذين كان فريق ثالث وجدّه ابن حوقل في طبقات المعلمين إذ لجأوا إلى التعليم فراراً من الجنديّة .

وإلى الفريق المتكشف المتقلل من متاع الدنيا تنتمي تلك الطبقة من القضاة الأولين الذين دخلوا صقلية ، مثل ابن أبي محرز وعمر بن ميمون ، ومنه أيضاً بعض زهاد صقليين في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، أوضحهم شخصية

---

(١) الباب الثامن والثلاثون .

أبو الحسن الصقلي الحريري الذي قضى عمره صامتاً لا ينطق إلا بذكر الله تعالى أو بما يعنيه، فإذا أقيمت الصلاة تأوّه واجتر نفسه وتواجد وقال: "واذهاب عمرى في خسارة" (١).

وحين حاول الصقليون أن يفلسفوا الزهد أقاموا التصوف على الحياة الواقعية وعلى السلامة الفقهية المذهبية، وعلى اللباز بعالم الأساطير والكرامات وبذلك اجتمع في التصوف، زهد القاضى المتعفف وصبر المجاهد وكرامات العابد. وقد خضع هذا التصوف في نشأته لمؤثرين قويين أضعفهما الاتصال بالمشرق عن طريق الحج إلى مكة ومشاهدة الصقليين للعباد المنقطعين حول البيت. أما المؤثر القوى فهو الحياة الاجتماعية نفسها لأننا نحس أنه لازم نشأة التصوف الشعور بتغير الأحوال وسيرها من سيء إلى أسوأ، والاستدلال بفساد الظاهر على فساد الباطن، وعدم اقتران العلم بالعمل، وطلب بعض الناس للدنيا بطريق الزهادة والنسك، فكان التصوف في واقعه ثورة نفسية على سوء الحال، ومحاولة لإصلاح الباطن في الفرد، من أجل أن تصلح الجماعة.

وكان في التصوف المشرق رد على سطحية الفقهاء، أما في صقلية فإنه اقترن بالفقه ولم ينفصل عنه فكان المتصوفة فقهاء بنوا آراءهم في التصوف على أصول فقهية، وأشبهوا الوعاظ لتعلقهم بالقصص والأساطير، وجعلوا حديث الكرامات مادة مجالسهم. وكان الخضر وشعيب أهم شخصيتين في تلك الأحاديث.

وربما كان عبد الرحيم الصقلي من أوائل من ألفوا في التصوف على هذه الطريقة إذ ذهب إلى القول بخرق العادات، فتصدى له الفقيه أبو محمد بن أبي زيد ونقض كتابه بتأليفه "الكشف وكتاب الاستظهار ورد كثير مما تقلده من خرق العادات على ما في كتاب شناعة المتصوفة" (٢). وقد يبدو من هذا الخبر أن الفقه أخذ منذ البدء بمناهضة التصوف ولكن الأمر ليس كذلك فإن

(١) رياض النفوس في المكتبة : ١٩٤ .

(٢) Centenario ٣٧٢/١ .

إنكار ابن أبي زيد منصب على ناحية واحدة .

ومن أقدم المتصوفة الصقليين محمد بن إبراهيم بن موسى المصرى الصقلى الذى خرج إلى العراق فى طالب الحديث وكان يحضر مجالس الجنيد<sup>(١)</sup> . ولكن خير من يمثل التصوف الصقلى الشيخ العارف المحقق أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الصقلى " إمام الحقيقة وشيخ أهل الطريقة " <sup>(٢)</sup> . فقد طلب العلم فى القيروان وذهب فى رحلة إلى المشرق وحج وسمع بمكة سنة ٣٥٠هـ وكان إلى جانب تصوفه محدثاً فقيهاً أصولياً .

والف أبو القاسم الصقلى فى التصوف عدة مؤلفات منها :

١ - الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار ويسمى عادة أنوار الصقلى<sup>(٣)</sup>

٢ - كتاب فيه الدلالة على الله تعالى

٣ - الشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل بن عبد الله التستري

٤ - صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء

٥ - كرامات الأولياء والمطيعين من الصحابة والتابعين ومن يتبعهم بإحسان.

وقد حفظت الأيام كتابيه الأول والثالث وقطعة من الثانى . وهذه القطعة تشتمل على كثير من الحكايات المروية عن الصوفية وكراماتهم وكثيراً منها سمعه الشيخ الصقلى عن شيوخه ، وفيها أقوال لمشاهير المتصوفة ، كبهلول وبشر بن الحارث وإبراهيم بن أدهم وسفيان بن عيينة وحكايات عن الخضر وشعيب ، وربما كانت قطعة من كتابه الخامس مع اختلاف فى التسمية . وأما كتاب الأنوار فقد بنيت قواعد التصوف فيه على الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح وترك الآراء والاستحسان<sup>(٤)</sup> . ولذلك تجده

(١) المقف فى المكتبة الصقلية : ٦٦٣ .

(٢) Centenario ١٠٠/٢ نقلا عن المعالم ط . تونس ١٨١/٣ .

(٣) ورد فى المكتبة الصقلية باسم جواهر الألفاظ وظهور الأنوار ( انظر ص ٦٩٨ )

عن نسخة ليدن رقم ٥٢٩ .

(٤) Centenario ١٠٠/٢ نقلا عن المعالم ط . تونس ١٨١/٣ - ١٨٣ .

يجعل الأصل الثانى من العلم بعد معرفة الله ، معرفة دين الله من جهة الاتباع لكتابه ولسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والانتساء به فى أمره ونهيه وترغيبه وترهيبه وآدابه وأخلاقه ، محبة بالقلب ، وعملا بالحوارج<sup>(١)</sup> ونجده أيضاً يقول : ” عليكم بالاتباع لما كان عليه الصدر الأول تسلموا من الحدث فى الدين<sup>(٢)</sup> “ ويقول أيضاً ” كان أخص الناس بفهم علم الكتاب وشرح معرفة السنة وعمل الرسول عليه السلام أهل القرن الأول . . . ثم جاء القرن الثانى فكانوا أعقل الناس وأعلمهم بعد الصحابة . . . ثم جاء القرن الثالث فذهب أكثر أهل العلم وكثر الخوض والجدل والخصومة والتراد . . . إلخ “ .

ومن يسمع هذه الأقوال مجردة من الكتاب يستقر فى نفسه أن الصقلى فقيه ، وربما زاده اقتناعاً بهذا رأى إذا سمع الصقلى ينص على أن الأصل الرابع من أصول العلم معرفة الدنيا وأهل الزمان ، مما لا بد من مباشرة مالا غناء به عنه ، وما يلتزمه من الحقوق المفروضة<sup>(٣)</sup> . فأين هذا القول من الحث على العزلة والهرب من الدنيا . إن هذه الاتجاهات الدنيوية تقرب الصقلى من الفقهاء ، ولكنك ما تكاد تراه فى هذه الحال حتى تجده يرتفع عن الأرض وعن عالم الفقه فى مثل قوله ” كل وجود يظهر على الجوارح من جهة المقامات فصاحبه ضعيف معلول فى الحال ، وكل وجود لا يعرف المتواجد ورده من حاله الوارد عليه بتفضيل وجوده من إيجاداه ، فصاحبه جاهل مفتون . وهذا موضع تدليس العدو على النفس بالمغاليط ، فبينما صاحبه مع الحق فى ورود الحال إذ صار العدو فى المداومة مع ذهاب الحال<sup>(٤)</sup> “ .

وتستطيع أن تجمع من عدة مواضع فى الكتاب صفات تتكون منها صورة للمريد الخالص ، فالمرید فى رأيه لا يفلح حتى يترك ثلاثة أخلاق ويلزم ثلاثاً

(١) الأنوار ص ٢ نسخة دار الكتب المصرية المخطوطة رقم ٢٣ والنسخة غير مرقمة فى الأصل

(٢) المصدر السابق : ٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٤ .

(٤) الأنوار : ١٦ .

من الأدب يترك الحب والحلافة وأعمال أهل الغباوة ويلزم العفة والتعفف وترك ما لا يعنى بالصناعة<sup>(١)</sup> . ولا بد له من الصدق فإذا تركه لم يزد إلا طرداً وسخافة وحمقاً وأصبح لأبناء الدنيا عبداً<sup>(٢)</sup> . والمريد إذا أصبَل بدايته على التشوف والطمع لما في أيدي الناس لم يصح له الأخذ من يد الله تعالى ، وإذا بنى إرادته على مسألة غيره لم ينتقل عن دواعي نفسه<sup>(٣)</sup> .

وكتاب الأنوار ستة أجزاء ولكن ليس للجزء الواحد منها موضوع مستقل فكل جزء مشتمل على أقوال متفرقة لا تجمعها وحدة موضوعية . وتغلب على أكثر الكتاب فكرة التقسيم العددي كقوله ” يعرف عقل العاقل في ثلاث . . . إذا رأيت في المرء أربعاً فأعرف بها سخفه ودعواه .. ترجى الجنة لمن كانت فيه ثلاث<sup>(٤)</sup> . . . العلماء ثلاثة حجة ومحجاج ومحجوج<sup>(٥)</sup> وهكذا في كثير من صفحات الكتاب “ .

والصقلي في كتابه مؤمن بالسير الزماني إلى ما هو أسوأ لاعتقاده أن عصر الرسول والصحابة أفضل العصور وأن القرون التالية تزداد سوءاً ، فإذا حل القرن السابع انتهى الأمر إلى شرار الناس<sup>(٦)</sup> وفيه من هذا القبيل أمور تشبه التنبؤ بما سيكشف عنه الزمان كقوله : « سيظهر في هذه الأمة في آخر الزمان دجالون كذابون<sup>(٧)</sup> » .

وربما كان أهم ما في الكتاب من وجهة تاريخية تلك العبارات التي يستشف منها جزع الصقلي من الحياة الاجتماعية في عصره ، وإن كنا نتناولها منه بحذر ، فهو ينتقد النساك بأنهم إنما أظهروا زهدهم بالعجز عن مكاسبهم ، واستعملوا

(١) المصدر السابق : ٢٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٣ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٠ .

(٤) المصدر نفسه : ٨ .

(٥) المصدر نفسه : ١٤ .

(٦) المصدر نفسه : ١٨٧ - ١٨٨ .

(٧) المصدر نفسه : ١١٤ .

تواضعهم في لباسهم ، وأخفوا الكبر والحرص في صدورهم<sup>(١)</sup> ، وينتقد مجالس الذكر والقرآن ويرأها غير لازمة إن كان لا يزيد بها الإيمان وينقص الفسق<sup>(٢)</sup> ويلج كثيراً على ضرورة الربط الوثيق بين العلم والعمل<sup>(٣)</sup> ويذم في أهل عصره تألفهم على المداينة ، وركونهم إلى الظلمة ، وأخذ الأجعال على قضاء الحوائج<sup>(٤)</sup> . ويقول : « إذا فجر العلماء وفسق القراء وسفك السلطان الدماء وأخذ على الحكم والحاجة الرشاء ، وافتخرت العامة بكسب الحرام ، ولم يغير الخاصة منكراً ، فهناك وجب الفرار ووسع المريد الصمت وكان الموت تحفة لكل مؤمن<sup>(٥)</sup> » .

ونقطة هامة في الكتاب توضح لنا نظرة الصوفية إلى المرأة . فبعض الصوفية في الشرق قد حاولوا أن يبشروا بنوع من الرهينة وعزفوا عن الزواج لأنه مشغلة . وهذه النزعة تجدها عند الصقلي ملطفة بعض الشيء ، فهو يذم أهل زمانه لأنهم تواطأوا على طاعة النساء ، فورثهم ذلك ذهاب أموالهم في الباطل ، فورثوا من ذلك ذهاب الغيرة لله عز وجل ولرسوله عليه السلام ولصحابة نبيه رضى الله عنهم ، ولأعراض المؤمنين ولحرمتهم ، فما ينتظر الناس بعد هذا إذا كان موجوداً في السلطان والقاضي والعالم والخاص العام<sup>(٦)</sup> . وهو في الجزء الرابع من كتابه يخص المرأة بأقوال كثيرة فيحذر منها وكأنك تسمع منه تحذيراً من الإقدام على الزواج حين يقول : « إذا رأيتم النساء قد أجهدن أزواجهن في أربعة فأطاعوهن فأياكم والتأهل بالحرائر فإن فتنتهن يومئذ عظيمة : الحرير والحلى والخروج والخمر »<sup>(٧)</sup> كذلك يرى أن سلطان الشهوة مجعول مع المرأة وأنها أقوى قوة

(١) المصدر السابق : ١٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٥ .

(٤) المصدر نفسه : ٥١ .

(٥) الأنوار : ٧٠ .

(٦) المصدر نفسه : ٥١ .

(٧) المصدر نفسه : ٩٥ .

تستطيع أن تصرف العالم العارف واللييب العاقل ، ويقول : كيف يسلم دين من له زوجة لا ترحمه وولد لا يعذره <sup>(١)</sup> .

وفى تصوف الشيخ الصقلي إلى جانب الروح الفقهية تمسك شديد بمذهب أهل السنة ، وليس فى كل كتابه إشارة واحدة لأهل البيت أو لعلى بن أبى طالب ، يقول : « وقد أخرج الله من اليقين المحفوظ تحت العرش ثمانية مثاقيل فخص النبي بأربعة وزيد ذخيرة من الخصوصية ، وأعطى أبو بكر مثقالين وزيد ذخيرة من الخصوصية ، وأعطى عمر بن الخطاب مثقالاً وزيد ذخيرة من الخصوصية ، ثم قسم المثقال الباقي بين سائر الأمة على قدر عقولهم » .

فإذا نحن خلينا الشيخ أباً القاسم الصقلي وذهبنا نساير التصوف بصقلية فى القرن الخامس وجدنا الظاهرة الأولى وهى امتزاج الفقه بالتصوف لم تتغير ويمثلها فى ذلك عتيق السمنطارى الفقيه المحدث . وكان السمنطارى من الزهاد السائحين فى الأرض ، طاف كثيراً من البلدان ، وحج ولقى العباد والزهاد ، وكتب عنهم ما سمع ، وصنف فى الرقائق وأخبار الصالحين كتاباً كبيراً يزيد على عشرة مجلدات سماه « دليل القاصدين » لم يسبق إلى مثله ، فى نهاية الملاحظة <sup>(٢)</sup> ، وله شعر من متوسط شعر المتصوفة إلا أنه تشيع فيه روح التشاؤم وإيجاس الشر من سوء ما بلغت إليه حال الناس .

ويظهر أن التصوف فى هذا القرن كان قد كثر فيه الدخلاء ، وأصبح المتصوفة يتظاهرون بالزهد تظاهراً ، ويتواجدون ويكفون عند الغناء ويرقصون ويتغاشون . وقد عبر عن هذه الحال أبو عبد الله بن الطوبى فى قصيدة له <sup>(٣)</sup> وانتقد تلك التصرفات فى أهل التصوف ووضح رأيه فى ذلك المذهب بقوله :

بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتبغ الحق والقرآن والدينا

(١) المصدر نفسه : ٩٦ .

(٢) المكتبة الصقلية ١١٣ - ١١٤ نقلًا عن معجم البلدان (مادة سنطار ) لياقوت .

(٣) الحريدة ١١ الورقة ٢٩ .



فهو يعبر عن التصوف كما يفهمه الصقلي العادى فى أيامه ، فهما لا يبعد كثيراً عن مذهب أبى القاسم الصوفى ، أكبر من أخرجته صقلية من المتصوفة .

## ٧

## علوم الأوائل

لم تحرمنا المصادر من إشارات بسيطة نقف عندها حين نريد أن نتصور شيئاً من الثقافة الفلسفية التى أخذت تنتشر فى المغرب وصقلية ، فقد حدثتنا مثلاً أن سعيد بن فرحون بن مكرم التجيبى القرطبى المعروف بالحمار السرقسطى دخل صقلية بعد محنة أصابته فى أيام المنصور بن أبى عامر ، وبقي فيها إلى أن توفى ، وكان يجمع إلى معارفه فى اللغة والنحو والموسيقى معرفة فلسفية منطقية ، فهو صاحب رسالة حسنة فى المدخل إلى علوم الفلسفة سماها « شجرة الحكمة » ورسالة فى تعديل العلوم وكيف درجت إلى الوجود من انقسام الجوهر والعرض<sup>(١)</sup> ونقف عند هذا الحد من معرفتنا للرجل فلا نعرف ما الذى جر عليه تلك المحنة مع أنه يقال إنها مشهورة السبب ، كما أننا نجهل كل تأثير له فى صقلية فى النواحي الفلسفية .

ولدينا شواهد نستطيع أن نحكم منها بأن المغاربة عامة والصقليين خاصة عرفوا فى وقت متأخر كتب أبى حيان التوحيدي فى التصوف والفلسفة ، سواء كان ذلك بالهجرة إلى الشرق أو بارتحال تلك الكتب إلى الغرب ، فقد كتب أحد أهل صقلية على ظهر كتاب الإمتاع « ابتداء أبو حيان كتابه صوفياً وتوسطه محدثاً وختمه سائلاً ملحقاً<sup>(٢)</sup> » والملازى يتهم الغزالى فى كتابه المسمى الكشف والانباء عن المترجم بالإحياء بأنه أخذ التصوف عن أبى حيان التوحيدي<sup>(٣)</sup>

(١) طبقات الأمم لصاعد : ٦٨ - ٦٩ ط . بيروت .

(٢) القفطى : أخبار الحكماء : ١٨٦ ترجمة أبى سليمان المنطقى .

(٣) السبكي : ١٢٣/٤ .

ويقول العلامة أبو الحسن علي بن الحسن الحضرمي القيرواني « علم أبي حيان التوحيدى أوفى من كلامه وإشاراته وتصانيفه تدل على علم كثير<sup>(١)</sup> ». وليس من الضروري أن ننبه هنا إلى تلك الهجنة التي كانت تصيب من يدرس الفلسفة وربما كان هذا سبباً في ندرة المقلبين عليها أولاً ، وفي ندرة الأخبار التي نسمع بها عن كانوا يزاولونها . ويرى المازري - ورأيه هنا يمثل رأى المتدينين حينئذ - أن المطعن في كل إمام اطلاعه على كتب الفلاسفة ، لأنها تكسبه جرأة على المعاني، وتسهلها للهجوم على الحقائق، إذ الفلاسفة في رأيه تمر مع خواطرها، وليس لها حكم شرعى ترعاه ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها<sup>(٢)</sup> . وفي عهد المازري نسمع عن كتب ابن سينا والغزالي وعن رسائل إخوان الصفا ولكن المازري يمثل ثقافة المغرب في العصر النورمانى . وتعرف المغاربة على الكتب الفلسفية في عصر متأخر حقيقة هامة في دراسة الأدب عامة والشعر خاصة .

وإذا كنا لا نطمح في أن تحدثنا المصادر كثيراً عن الفلسفة في صقلية أو عن الثقافة الفلسفية فيها فنحن ندهش حين نجدها تصمت صمتاً غير محمود فلا تحدثنا عن الطب والفلك والتنجيم هنالك فلم تترجم الكتب المعنية بطبقات الأطباء إلا لعالم صقلى واحد من علماء العصر النورمانى<sup>(٣)</sup> وقد عنيت مصادر أخرى بنسبة الطب إلى أبي عبد الله ابن الطوبى ووصف أحياناً بأنه أربى في الطب على ماسويه<sup>(٤)</sup> وذكره العماد فقال إنه كان طبيباً مترسلاً شاعراً<sup>(٥)</sup> ومسحه ابن القطاع وأشار إلى مهارته الطبية بقوله<sup>(٦)</sup> :

أيها الأستاذ في الط ب وإعراب الكلام

(١) السلى : ورقة ٢٠٧ .

(٢) السبكي : ١٢٣/٤ .

(٣) القفطى : أخبار العلماء : ١٨٩ .

(٤) القفطى : إنباه الرواه ٧٦/٢ .

(٥) الخريدة : ١١ : الورقة ٢٢ .

(٦) إنباه الرواه ٧٦/٢ .

لك في النحو قياس لا يساميه مسام  
ثم في الطب علاج دافع الداء العقام

ولكن لا يذكر له في الطب مؤلف معين ولا تحدد له فيه جهود .

وأحياناً نسمع عن طبيب صقلي هاجر من بلده مثل أبي عبد الله الصقلي الذي عاش في قرطبة أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان يحسن اليونانية ، وربما رجح هذا أنه نشأ في صقلية ، وكان يعرف أشخاص العقاقير والأدوية واشتغل مع جماعة آخرين من أطباء قرطبة في البحث عن تصحيح أسماء العقاقير التي وردت في كتاب ديسقوريدس<sup>(١)</sup> .

وتقول المصادر إن ابن التينة فصد امرأته في حالة سكر بعد خصام نشأ بينهما وتركها تموت ، فغضب ابنه من هذا العمل الوحشي وأسرع فأحضر لها الأطباء فعالجوها<sup>(٢)</sup> ونقف من هذا الخبر عند ذكر الأطباء بصيغة الجمع . ونجد ابن مكي كذلك يحدثنا عن أخطاء الأطباء ، ومن هذا الذي يسوقه نعرف أنه كان هنالك أطباء يستعملون عقاقير منها الجوارشن والشب والحلتيت والصبر إلخ ، ويتحدثون عن بعض الحالات فيقولون القوة الماسكة وضعفت المواسك ( بدلا من القوة الممسكة وضعفت الممسكات ) ويتحدثون عن المريض فيقولون أكربه الدواء بدلا من كربه ، وإذا أرادوا تعظيم عالم بالطب قالوا فلان المتطبب يتوهمون أنه أسمى من طبيب وليس كذلك ، لأن المتفعل هو الذي يدخل نفسه في الشيء ليضاف إليه<sup>(٣)</sup> .

ومهما تكن هذه الأخبار يسيرة فإنها تستطيع أن تشير إلى أن الطب في صقلية شاع في أيام الكليبيين وأواخر العصر الإسلامي حتى أمكن الحديث في هذا العصر عن وجود « أطباء » . وربما كانت صقلية في أيام الأغالبة فقيرة في الأطباء لأن القيروان وهي العاصمة الأم كانت تستدعي أطباءها من

( ١ ) المكتبة الصقلية : ٦٢٢ عن ابن أبي أصيبعة .

( ٢ ) النويري في المكتبة الصقلية : ٤٤٦ .

( ٣ ) تثقيف اللسان - الباب : ٣٩ .

الخارج . ويحدثنا ابن أبي أصيبعة أن الطب بالمغرب ظهر عند ما قدم إليه إسحاق بن عمران أيام زيادة الله<sup>(١)</sup> ولعل زيادة الله المذكور هو الثاني (٢٤٩ - ٢٥٠ هـ) لأننا نعرف أن إسحاق عاش إلى عهد إبراهيم بن الأغلب إذ يذكر ابن أبي أصيبعة أيضاً أن إسحاق هذا ألف للعباس وکیل إبراهيم رسالة في علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته<sup>(٢)</sup> . وربما كان هذا الوکیل المشار إليه هو أبو العباس - وليس العباس - والى صقلية في أيام لإبراهيم أو لعله العباس صاحب صقلية أيام محمد بن الأغلب قبل إبراهيم مباشرة .

ولاشك في أن الفاطميين ، حين اتخذوا القاهرة عاصمة لهم ، اجتذبوا إليها الأطباء ، وحرّموا صقلية وأفريقية جهود المشهورين منهم ؛ وكان بلاط صاحب القاهرة يغرى العلماء الصقليين أنفسهم بالهجرة من وطنهم . وهجرة المهندسين والفلكيين الصقليين إلى مصر شاهد على ذلك فقد كان المهندس الصقلی أبو محمد عبد الكريم يعمل في زمن الحاكم في رصد القاهرة ويحضر مع زملائه كل يوم في خدمته إلى أن أمر الحاكم بكسر الرصد وتفرق من حوله أهل الحساب والمهندسة والتنجيم<sup>(٣)</sup> وفي وقت متأخر نجد ابن المعلم الصقلی الطيب في مصر كما نجد صقلياً آخر بين من يتفحصون هذا الرصد وهو الفلكی الصقلی أحمد بن مفرج الملقب بتلميذ ابن سابق وكان متصرفاً أيضاً في التنجيم<sup>(٤)</sup> .

أما في الجزيرة نفسها فالمصادر تخبرنا أن الكاتب أبا الفضل أحمد بن دابق كان عالماً بالمهندسة<sup>(٥)</sup> وأن أبا عبد الله محمد بن الحسن العوفي كان منجماً حاسباً<sup>(٦)</sup> ، وأن أخاه عمر كان كاتباً منجماً مهندساً<sup>(٧)</sup> . ويوصف

(١) ابن أبي أصيبعة ٣٥/٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المقرئى : الخطط في المكتبة الصقلية : ٦٦٩ .

(٤) ابن ميسر ٦٤/٢ - ٦٥ .

(٥) مجموعة الشعر الصقلی رقم ٧٤ ، ١١٥ .

(٦) الخريدة : ١١ الورقة ٤١ ومجموعة الشعر رقم ٣٢ .

(٧) الخريدة : ١١ الورقة ٤٤ ومجموعة الشعر رقم ٤١ .

عبد العزيز بن الحاكم المعافى بالنتزه في رياض الرياضات والتنبه في سحريات السحريات<sup>(١)</sup>. هذه هي الأخبار التي نملكها وهي لا تمدنا بشيء مما قاله المؤرخ سكوت في وصفه الحياة العلمية لصقلية إذ يقول: «من مآذن المساجد يلزم كان الفلكي العربي يرقب حركات الأجرام ويعين مواقيت الخسوف والكسوف ومواقع النجوم، مستعيناً على ذلك بآلات اخترعت في حوض الوادي الكبير وعند نهر دجلة وبزيجات كتبت في سهول بابل قبل المسيح بقرون<sup>(٢)</sup>» ويقول أيضاً: «فكانت مدن الجزيرة حافلة بمن يقرأون الطالع ويعبرون الرؤى ويتنبأون بالغيب كما كانت دار عالم الصنعة مزاراً يؤمه الناس على اختلاف طبقاتهم، وكان أحب نزيل يرحب به بلاط بلرم المنجم ذو الزى الخاص واللحية المسبلة والعصا الطويلة التي رصع مقبضها بعلامات طلسمية<sup>(٣)</sup>». وليس في هذا الكلام إغراق أو مجانبة للمعقول، ولكننا لا نملك النصوص الصريحة لتأييده. وقد كان تعبير الرؤى — الذي أشار إليه سكوت — موجوداً بصقلية وشاهدنا عليه بعض من هاجر من الصقليين في سن كبيرة إلى الخارج عند الفتح النورمانى ممن كانوا يزاولون تعبير المنامات ومنهم ابن المعلم الصقلی، وعلى ابن عمر بن حسن بن الكنانى الصقلی أحد تلامذة السمنطارى وقد وصفه السلفى بأنه كان شيخاً صالحاً يعبر المنامات<sup>(٤)</sup>.

(١) الحريدة : ١١ الورقة ٣٤ ومجموعة الشعر رقم ١٧ .

(٢) Scott : Hist. of the Moorish Empire vol. 2. p. 68.

(٣) Op. cit. p. 69

(٤) السلفى الورقة ٢٩٨ .

## نظرة إجمالية

بعد هذا المسلك المتشعب يعود البحث من حيث بدأ ، ونلتقى بابن حوقل في رحلته مرة أخرى لتقف عند قوله : « فليس بالبلد عاقل ولا فاضل ولا عالم بالحقيقة بفن من فنون العلم <sup>(١)</sup> » . أما القول بعدم العقل والفضل فما أقف عنده لأنه بادی التحامل ، وأما القول بعدم العلماء فقد كان له في زمان ابن حوقل ظواهر تؤيده ، ولكنه لا يخلو أيضاً من تعميم يذهب بقسط كبير من صحته . وعذر صقلية أنها كانت لا تزال — بشهادة ابن حوقل نفسه — معسكراً حربيّاً تسيطر عليه روح الجندية وما يتبعها من تقلب وعدم استقرار . ولم تكن الأجيال الصقلية من أبناء صقلية نفسها قد تمكنت من تمثل الثقافات المتنوعة ، وكانت الحروب المتوالية سبباً في فناء أهل الجيل الأول ، كما كان الأسر يشل كثيراً من القوى ويصرفها عن الإنتاج . وهذا رأى يقويه أن صقلية عند ما استراحت بعض الراحة من الحروب والفتن ، أنتجت إنتاجاً متنوعاً في فترة قصيرة ، ولم يكن ما قدمته قليلاً . ومن ثم وجدنا أن الاشتغال المنتج بالفقه والحديث واللغة والطب والهندسة والنجوم قد تأخر إلى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ووجدنا النبات العلمي قد نما في صقلية وأثمر في الخارج .

وإذا حاولت أن تتعرف إلى أهم الشخصيات العلمية في صقلية حوالى الزمن الذى كان فيه ابن حوقل وبعده بقليل وجدتها لا تزال من غير صقلية . ففي الفترة بين ٣٦٥ — ٣٩٥ هـ تسمع عن ابن أبي خراسان في النحو والقراءات وعن على بن حمزة في اللغة والشعر ، وعن البرادعى في الفقه المالكي ، وهؤلاء كلهم جاءوا صقلية من الخارج ، ولا تسمع عن صقليين مشهورين إلى جانبهم

(١) ابن حوقل ١/ ١٢٣ .

وربما كان هذا النقص في المصادر لا في صقلية نفسها . أما ظهور التصوف في وقت مبكر فإنه لا يقوم دليلاً على اتساع الثقافات في صقلية بقدر ما هو دليل على روح من التدين ، وقعت تحت تأثيرات معينة ، منها شدة وطأة الحياة الاجتماعية والاستعداد لتقبل الأساطير .

وكل هذه الأخبار التي لدينا عن الدراسات بصقلية — وخاصة دراسة الفقه والحديث — تشير إلى اعتماد مبكر من المشرق استمر حتى أواخر العصر الإسلامي للجزيرة ، أي أن هذه الصلة ظلت قوية حتى حين استقلت صقلية في حياتها العقلية ومذهبها الديني . ففي سنة ٢٩٣ هـ توفي أبو جعفر محمد بن الحسين المروزي فيها وكان فقيهاً متهماً بالكذب<sup>(١)</sup> . وفي القرن الرابع كان أبو عبد الله محمد بن عيسى بن مطر من سافر إلى المشرق وكتب الحديث<sup>(٢)</sup> ، وجرت الحال على ذلك أيام عبد الحق ، والسمنطاري . وهنا لا بد أن نلمح خاصية في هؤلاء العلماء المهاجرين فهذا المروزي متهم بالكذب ، والبرادعي من أنكره وطنه وتنكر له علماءه ، وصاعد اللغوي ممن نقل عنه الوضع وعرف عنه التزوير ، فهل هذه الهجرة العلمية كهجرة الأجناس الأفريقية كانت على صقلية أكثر مما هي لها ؟ وهل كان الشعراء المهاجرون أيضاً كالعلماء المهاجرين ؟ مهما تكن الإجابة على هذين السؤالين فالذي لا شك فيه أن هؤلاء المهاجرين من علماء وشعراء لم يكونوا كل شيء في حياة صقلية العقلية والأدبية .

(١) ابن عذاري في المكتبة : ٣٦٤ .

(٢) ابن حوقل ١٢٧/١ .

الكتاب الثاني

## صقلية الإسلامية في العصر النورمانى

الفصل الأول

الفتح النورمانى





## الفتح النورمانى

أحب أن أترك للتاريخ كثيراً من الحقائق التى تتصل بالنورمان أنفسهم - بأصلهم وبسبب مجيئهم إلى إيطاليا الجنوبية وبجهودهم فيها . وأدع لهذا التاريخ كثيراً من القول فى بنائهم المملكة الصقلية وأنظمتهم فى الإدارة والتشريع ، والشئون المالية ، وعلاقاتهم السياسية والدينية بالبابا وبالمملك والأباطرة . وأتجنب الحديث عن دورهم فى الحروب الصليبية ، وعن استيلاء أساطيلهم على الساحل الأفريقى ، فإن الأخذ بكل هذه الحقائق يقضىنى عن الهدف الذى أسعى إليه وهو الحديث عن حياة الشعر العربى فى عصر النورمان ، وفى سبيل هذه الغاية أراى ساقصر الحديث أولاً على الفتح نفسه ، لا لأن سيره كان ذا أثر فى توزيع الأجناس ، وفى نوع الحياة العقلية ، ولكن لأنه يدل على الطريقة التى استقبله بها المسلمون ، والنفسية التى دخلوا بها تحت لوائه . وهذا بدوره هو فاتحة القول فىمن بقى بصقلية من الجماعة الإسلامية ، وفى تأثيرها بالحياة الجديدة وأثرها فيها ، وبجلاء هذه الأمور لا بد من استعانة بوصف الحياة الاجتماعية والعقلية لتلك الجماعة وحدها إذ ليس من الطبيعى أن أصور كل جوانب الحياة - عقلية كانت أو اجتماعية - بين الجماعات كلها ، وإنما أحاول أن أرسم الجوى الذى عاش فيه الشعر .

وتعود بنا هذه البداية إلى النهاية التى بلغتها صقلية على أيدى قواد يتقاتلون فيما بينهم ، على أسباب تختلف فى تفاهتها ، ولكن يوحد بينها الجشع وجب السيطرة . وفى إحدى هذه المعارك هزم ابن التمة فخف إلى النورمان يستعين بهم ويعددهم ويمينهم ويهون عليهم أمر القادة والجند<sup>(١)</sup> . وكان فتح صقلية حلماً من أحلامهم يزينه غنى الجزيرة وخصبها ، ويؤيده خوفهم من مجاورة المسلمين لهم

(١) ابن الأثير ، والمكتبة : ٢٧٦ .

وقربهم من أملاكهم<sup>(١)</sup>. فلما فاتحهم ابن التثنة في الأمر واستوثقوا من ولائه لهم هاجموا مسينة بمعونته ، واستولوا عليها ١٠١٦ م واتخذوها قاعدة لأعمالهم الحربية ، ثم ركدت الريح التي كانت تحدوهم حين توفي صديقهم ابن التثنة في السنة التالية ، واختلف الأخوان المحاربان روبرت ورجار ، إلا أن اتفاقهما بعد قليل جعل رجار يحدد المحاولة لفتح الجزيرة ، فحاول الاستيلاء بعون من أخيه على بلرم ، ولكنه أخفق ، ولم تكن المعارك الحربية التي قام بها في حقيقة الأمر إلا مناوشات بسيطة<sup>(٢)</sup>.

في هذه الأثناء ذهب المسلمون يستصرخون المعز بن باديس لعله ينقذهم فأعانهم بأسطول كبير غرق أكثره في البحر . ومن جراء ذلك ضعفت قوة المعز ، واستطاع العرب الهلاليون أن يتملكوا البلاد من يديه ؛ فلما تولى تميم الحكم ، أرسل أسطولا إلى الجزيرة ، وعلى رأسه ابنه علي وأيوب . أما أيوب فتزل في بلرم ، وأما علي فتوجه إلى جرجنت ، ثم انضم إليه أيوب وقد استطاع أن يستأثر بحب الجرجنتيين فغار منه ابن الحواس ، وثار لحربه ، وتحزّب أهل جرجنت لأيوب ودارت بين الفريقين معركة قتل فيها ابن الحواس ، ثم قامت فتنة أخرى بين أهل المدينة وعبيد تميم فرجع أيوب وأخوه علي إلى أفريقيا<sup>(٣)</sup>.

والحقيقة التي لم تذكرها المصادر العربية هي أن ابن تميم حارب النورمان عند مكان يدعى مسلمري Misilmeri<sup>(٤)</sup> وهزما ، وأصبحت عودتهما إلى أفريقيا أمراً مؤكداً . وبعد هزيمة ابن تميم اضطرب أمر المسلمين في الجزيرة ، ولم يبق فيهم من يوحد قوتهم ، ويقف بها في وجه العدو ، وكان النورمان قد تقوا بمعونة بحرية من بيشة Pisa ، وصمموا على أن يحتلوا بلرم لغناها

(١) Cambridge Med. Hist. vol. 5 p. 176.

(٢) E. Curtis; Roger of Sicily, p. 66.

(٣) ابن الأثير ، والمكتبة : ٢٧٧ ، والنويري في المكتبة : ٤٤٨ .

(٤) Amari : S. D. M. vol, 3, p. 114.

ولأهمية موقعها ، فأعدوا لحصارها خمسين سفينة جمعها جيسكارد Guiscard من باري ومدن أبولية وتقدم بها من البحر ، بينما سار إليها رجار من البر في جيش عدده ثمانية عشر ألفا . وصب الأسطول جهده على مينائها وأحاط بها الجيش البري إحاطة تامة ، وظلت المدينة تقاوم الحصار مدة خمسة أشهر كان السكان في أثناءها شديدي الثقة بأنفسهم ، حتى كانوا يابون أن يغلقوا أبواب مدينتهم .<sup>(١)</sup> غير أن المؤن قلت فانتشرت بينهم المجاعة والوباء لكثرة الجثث التي تركت بالعراء دون دفن<sup>(٢)</sup> . وشدد الأسطول الحصار وكان معظم السكان قد لجأوا إلى الميناء وأغلقوه بالسلاسل . غير أن الجوع والوباء والتعب جميعاً كسرت من شرتهم ، ف وقعت الخالصة أولاً في أيدي الأعداء فدخلوها ينهبون ويلهبون الشباب ويفرقون الأطفال فيما بينهم ليسيعوهم عبداً<sup>(٣)</sup> . ومع أن البلرميين كانوا يرون قدم المصيبة يظاً رقابهم فإنهم لم يكفوا عن الاختلاف والتناحر ، وعجلت اختلافهم وتناحرهم بسقوط المدينة القديمة بعد الخالصة ، ودخلها رجار ووراءه فرسانه ، واستولى على مسجدها وحوله إلى كنيسة .

وسلمت مازر لما رأت ما حل ببلرم ، وانتهى الدور الأول من الفتح حين سقطت عاصمة الكليبيين سنة ٤٦٤ هـ - ١٠٧٢ م وظل النورمان عشرين سنة حتى تم لهم الاستيلاء على الجزيرة كلها ، ولم يكونوا قد ملكوا في هذا الدور الأول إلا بلرم ومازر ومسينة وقطانية ولكنهم باستيلائهم على هذه المنطقة أحاطوا بما تبقى للأمراء المسلمين في سرقوسة وطرابنش وجرجت وقصريانة<sup>(٤)</sup> .

أما سرقوسة فقام فيها رجل اسمه Benavert (ابن عباد)<sup>(٥)</sup> ونظم المقاومة

(١) Freeman : Hist. Essays, 3rd series, p. 453.

(٢) Amari : cp. cit. p. 124.

(٣) Amari : S. D. M. vol, 3 p. 130.

(٤) Amari : S. D. M. vol, 3 p. 153.

(٥) هذا هو اسمه عند ملاترا ولا تذكره المصادر العربية ، وقد كان أماري يظن أنه هو ابن بريدة الذي يمدحه ابن حمديس ثم عدل عن رأيه ومن العجيب أن ابن حمديس لا يذكره على شدة العلاقة بين قصائده وأعمال البطولة الأخيرة في سرقوسة .

في ولاية نوطس برّاً وبحراً ، حتى استحق من المؤرخ النورمانى ثناء عليه بالدهاء والجرأة والمهارة في القيادة ، واتقان الخدعة في الحرب<sup>(١)</sup> . وفي إحدى المعارك استطاع أن يكسر جردان ابن رجار<sup>(٢)</sup> مما اضطر رجار أن يوجه إليه اهتمامه ، غير أنه عاد فانصرف عنه واحتل بأسطول كان قد بناه مدينة طرابنش سنة ١٠٧٧ م وهدم سورها ، وتملك أرضها ووزعها على أتباعه<sup>(٣)</sup> . ثم استولى على طبرمين سنة ١٠٧٩ م فلم يبق في يد المسلمين إلا جرجنت وسرقوسة وقصريانة ونوطس وبثيرة . ويحدثنا المؤرخ ملاترا أن ابن عباد استطاع في سنة ١٠٨١ أن يشتري بالمنح والوعود حاكم قطانية من قبل رجار واسمه Bencimino وهو لفظ قريب الشبه بابن التمنة ( وربما كان ابناً أو قريباً لابن التمنة الكبير مما يدل على أنه كان يتعاون مع النورمان غير خائن واحد من تلك الأسرة ) فسلمه هذا مدينة قطانية فانتسح سلطانه حتى أصبح لا يكتفى بالمقاومة والدفاع بل توجه سنة ١٠٨٤ إلى قلورية ونهب ريو ونقطرة وعاد ظافراً . ورأى رجار أنه لا بد من جولة حاسمة مع ابن عباد فقابلته عند سرقوسة أسطول قوى سنة ١٠٨٥ ، وأخذت سفن ابن عباد تغرق واحدة بعد أخرى ، وكلما غرقت به واحدة وثب منها إلى واحدة لم تغرق ، ولكنه زلت به القدم فتلقاه البحر ؛ ويقول المؤرخ المجهول إن رجار أرسل جيشه إلى الأمير تميم بأفريقية . وبعد ذلك القائد البحري استسلمت سرقوسة لما قدر عليها أواخر أكتوبر عام ١٠٨٦ ، وفي إحدى الليالي تسلل منها بعض زعماء المسلمين إلى نوطس ومعهم زوج ابن عباد وابنه<sup>(٤)</sup> .

ثم سقطت جرجنت ولحقت بها قصريانة وكان أميرها ابن حمود ، وقد تنصر هذا الأمير وطلب إلى رجار أن ينقله من قصريانة لأنه لم يعد يأمن

Amari, op. cit. (١)

Amari, op. cit. p. 154; Curtis : Roger of Sicily, p. 67. (٢)

Amari, 3, p. 157. (٣)

Amari, 3, p. 169. (٤)

المسلمين على نفسه ، ولأنه لم يكن يجب أن يتحمل مسؤولية ما قد يحكيه أهل المدينة من مؤامرات وفتن ، ويقول أماري : « إن ذلك العلوي الدنيء الرخيص لجأ إلى إيطاليا حيث أسكنه رجّار قريباً من ميلاطو وظل هنالك يحيا في هدوء مدة طويلة »<sup>(١)</sup>. ثم سقطت نوطس وتبعها بثيرة سنة ١٠٩١ ، وانتهت بذلك عمليات الفتح النورمانى ، ولا شك فى أن بعض المقاومة التى لقيها النورمان مضافاً إليها قلة عساكرهم وضعف أسطولهم هى العوامل التى أطالت فترة الفتح .



## الفصل الثاني

### الحياة الاجتماعية للمسلمين في العصر الروماني

- ١ - العلاقات السياسية الخارجية وأثرها في مسلمى صقلية .
- ٢ - أثر الإقطاع في الجماعة الإسلامية
- ٣ - الإدارة الإسلامية
- ٤ - الصبغة الإسلامية في الدولة
- ٥ - المسلمون بين التسامح والاضطهاد





## العلاقات السياسية الخارجية وأثرها في مسلمى صقلية

وفىما نحن ننظر إلى داخل الجزيرة لنرى كيف استقرت الأحوال فيها أثناء حكم امتد من ١٠٨٠ - ١١٩٠ وشغله من الحكام أربعة مشهورون ، هم رجار الأول وابنه رجار الثانى واثنان بعدهما يعرف كل منهما باسم غليلم ، سنلتفت إلى الجماعة الإسلامية فهى حسبنا من بين تلك الجماعات الكثيرة التى كانت تعيش فى الجزيرة ، ذاكرين دائماً أن الجماعة الإسلامية كانت عندما استولى النورمان على الجزيرة حقيقةً لا يسهل محوها أو طمسها ، وأن الفاتحين كانوا أقلية ضئيلة ، لا يستطيعون أن يفرضوا أنفسهم على نواحي الحياة فى الجزيرة بالقوة ، ولم تكن لهم حضارة يسطونها على هذا العالم الذى كان يُمدُّ ما حوله بالحضارة ، ومن ثم نفهم تلك السياسة المتساهلة التى قابلوا بها كل دين ومذهب فى صقلية ، لكى لا يبدو هذا التسامح غريباً فى نظرنا ، حين نذكر أنه معاصر للحروب الصليبية ، ومن ثم أيضاً نفهم الروح الانتقائية التى واجهوا بها النظم والقوانين والشرائع المتنوعة ، واختاروا أحسن ما يلائم حكومتهم منها ، ولم يكن بُد من تلك الخطوات الواعية عند قوم كانوا نقطة المركز فى دائرة من الأعداء ، فأحياناً هم على عداء مع البابا ، وكثيراً ما كانوا فى خصومة مع الإمبراطورية الشرقية ، وهم فى خطر من تهديد الإمبراطور الجرماني ، وعلى مقربة منهم فى الساحل الأفريقى أمراء مسلمون يضمرون لهم العداء ، وهذه حالٌ تستدعى الأمن والرضى فى الداخل ، وتجعل التوازن بين المصالح والفئات المتضاربة أمراً لا غنى عنه ، ولذلك آمن النورمان بالواقع فلم ينصروا ديناً على دين ، وخضعوا لاعتبارات الموقع الجغرافى ، والحقائق

السياسة الخارجية ، والحالة الحضارية الداخلية .

ولا تتضح حال المسلمين في صقلية إذا لم نتصور عظمة صقلية الفاتحة المستعمرة في أيام النورمان ، أعنى صقلية التي خضع لها مسلمو الساحل الأفريقي ، وهاجم أسطولها القسطنطينية ، وألحاً أسطول مصر وأفريقية إلى الانحياز المتخاذل في المراسى ، وابتز السيادة البحرية التي كانت لأساطيل المسلمين عامة ، وأسطول الفاطميين خاصة ، تلك السيادة التي صورها ابن خلدون بقوله : « وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر ( بحر الروم ) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه . . . وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر في أساطيلهم ، من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدو الشمالية ، كما وقع في أيام بنى أبي الحسين ملوك صقلية القائمين بدولة العبيديين ، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه ، من سواحل الإفرنجية والصقلية وجزائر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد بفريسته » (١)

هذه السيادة ضاعت حين استولى رجار على بلدان الساحل الأفريقي ، وأصبح البحر المتوسط « بحيرة نورمانية » تغدو فيه أساطيل صقلية وتروح ، دون أن يعترضها عائق ، وتنتزل الضربة بعد الضربة في الموانئ الأفريقية ، ومسلمو صقلية في جزيرتهم لا يستطيعون أن يتدمروا أو يتوجعوا لما يصيب إخوانهم بل إن في الجيش والأسطول الصقلى جنوداً مسلمين يقودهم قادتهم ليحاربوا إخوانهم تحقيقاً لأطماع شخص غريب عنهم في الدين والجنس .

وقد كانت صقلية وسيادتها الحديدية امتحاناً قاسياً لنفسيات أولئك الأمراء المسلمين المتقاتلين المتنافسين فيما بينهم ، وبعد أن كانت صقلية المسلمة تفرع إذا ثارت إلى الروم أو إلى أفريقية أو إلى النورمان ، أصبحت هي مفرعاً ينفذ إليه كل وال تعجله المصلحة الذاتية عن تدبير العاقبة ، وأصبح أمراء أفريقية

(١) ابن خلدون ، المكتبة ٤٦٠ - ٤٦١ .

يجدون بغيتهم عند صاحب صقلية ، كلما شاء واحد منهم أن يكيد لصاحبه ، ويروى أنه اجتمع في بلاط الملك النورمانى سفيران لأميرين مسلمين فتشامتاً و تراشقا بالكلام في مجلسه . وحادثة عمارة المينى والمتآمرين على صلاح الدين<sup>(١)</sup> مثال من أمثلة كثيرة لاستعانة أصحاب الأغراض والأطماع بصقلية وصاحبها . وكان بنو باديس يحاولون محاولة المستميت ليسددوا ضربة قوية إلى هذه المملكة الصقلية ، ومن ورأهم شعراء فيهم ابن حمديس وأبو الصلت يهللون لكل نصر مهما يكن شأنه ، ولكن الضعف كان قد بسط ظله الكثيف على كل تلك الدويلات المتنافسة ، وكانت الدولة الفاطمية قد أخذت تستملى سياسة الضعف المهور في معاملتها لهذه الدولة الفتية ، حتى إن الخليفة الفاطمى ليقول لرجار حين أبلغه هذا نبأ احتلاله لجزيرة جربة : وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجزيرة ، لما شرحته من عدوان أهلها ، وعدوهم عن طرق الخيرات وسبلها ، واجترأهم في الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها ، واستعالمهم الظلم تمرداً ، وتماديهم في الغنى ، تباهياً في الباطل وغلوا ، يأساً من الجزء لما استبطأوه ، فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية ، وخلق أن يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية<sup>(٢)</sup> .

وكان لابد لهذه الأحوال أن تهيب لظهور نوع من الجهاد الدينى هو الذى قام به عبد المؤمن من بعد .

والمسلمون في صقلية يعيشون تحت حكم النورمان وهم يرون الحروب الصليبية أو الحروب باسم الدين تجتاح بلاد الشام ، ولعل تلك الروح الدينية هى التى أملت ذلك الأسلوب من الرد الحاد على رجار حين قال لزاهد مسلم كان يقربه ويحترمه بعد أن انتصر أسطوله في بعض جهات أفريقية — وأين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها ؟ فقال ذلك الشيخ الزاهد — : كان قد قد غاب عنهم وشهد فتح الرها<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر رحلة التيجانى في المكتبة ٣١٠ - ٣١١ في تفصيل الحادثة .

(٢) صبح الأعشى ٤٥٩/٦ .

(٣) ابن الأثير ٤١/١١ والمكتبة : ٢٨٨ .

## أثر الإقطاع في الجماعة الإسلامية

هؤلاء المسلمون في الجزيرة كانوا — كما خلفناهم في العصر العربي — متفرقين في نواح كثيرة من صقلية وتدلّ السجلات التاريخية والوثائق على أنهم كانوا كثيرون العدد في ولاية مازر ، متوسطى العدد في ولاية نوطس ، قليلين جداً في ولاية دمنش<sup>(١)</sup> . وبين سكان بلرم من أصحاب الأملاك أو الشهود الواردة أسماءهم في الوثائق عرب من قبائل يمنية مثل أزد وكندة ولحم ومعاقر ، ومن المدينة وحضرموت ، وعرب من القبائل المضرية مثل قيس وقریش وتيم . وأسماء بربر من هواره ولواتة وزغاوة وزناتة . وفي الأسماء من جفلوذ مسلمون من البربر ومن صقلية نفسها كالقرليوني والشاقى والثرى والطرابنشى ، وبين الرقيق التابعين لأسقف قطانية ومدينة لياج أسماء أعلام بربرية من عائلات مثل مكالاتة ونفزة ومسراتة ، وأسماء منسوبة إلى مواضع أفريقية مثل برقة وبونة وسوسة ومسيلة ومليلة . . . هذا إلى أسماء منسوبة للبلدان كالحجازى والغافقى والعينونى (نسبة إلى قرية بجانب القدس) والكرمانى (نسبة إلى كرماني)، وأسماء منسوبة إلى مدن صقلية كالمدينى والصقلى (البرمى) واللياجى والقطانى والسمنطارى والطرابنشى . . إلخ<sup>(٢)</sup> .

وأهم عامل أحدث انقلاباً في حياة هؤلاء خاصة وفي حياة الأجناس بصقلية عامة هو إقرار الإقطاع نظاماً مؤصلاً ، على مثال ما كان في جهات أخرى من أوروبة ، وتبنيته بالقوانين والتشريعات ، وبهذا النظام قضى على حرية المالك الصغير ، وانقسم الناس إلى طبقات متدرجة أعلاها الملك ، وأدناها رقيق الأرض ، وبين الطبقتين أمراء ودوقات وكونتات وبارونات يتمتعون بالإقطاعات الشاسعة ، وبعض الامتيازات في المحاكم وفي القضايا

( ١ ) Amari . S. D. M. vol, 3, p. 214.

op. cit. pp. 215-218.

( ٢ )

المدنية - على أقل تقدير - ودون هؤلاء الفرسان ممن منحوا الإقطاعات أو لم يمنحوها<sup>(١)</sup> ، وأدنى منهم طبقة الفلاحين ، وهى طبقات متفاوتة فى فقدان الحرية وفى قربها من العبودية ، وفيهم أكثرية من أهل القرى المسلمين .

فى أثناء الفتح كان رجار يستولى على الأرض التى فر عنها أهلها أو على ما افتتحه عنوة ، ويقسمه بين أصحابه . وفى سنة ١٠٩٣ عقد اجتماع فى مازر حضره السادة من أصحاب رجار وسلم كل واحد منهم صحيفة أو جريدة مكتوبة بالعربية ، وأحياناً بالعربية واليونانية معاً ، فيها وصف للأرض التى تخصه ، وبيان بعدد الفلاحين والأرقاء فى أملاكه<sup>(٢)</sup> . ولا شك فى أن بعض سادة المسلمين سعى بين يدى رجار لينحده نصيبه من الغنيمة ، فوجد منهم من تمتعوا بامتيازات إقطاعية ، وترك أهل المدن منهم أحراراً فى تصرفهم بأملاكهم ، ويلخص ابن الأثير هذا النظام الإقطاعى الحديدى بجملة واحدة إذ يقول فى رجار : « وأسكنها الروم والفرنجة مع المسلمين ولم يترك لأحد من أهلها حماماً ولا دكاناً ولا طاحوناً ولا فرنّاً »<sup>(٣)</sup> . وقوله هذا لا ينطبق على أهل المدن بل ربما كان جارياً على جماعات الفلاحين أو جماعات كانوا أحراراً وأحاطهم الفتح إلى أرقاء لاصقين بالأرض ، كما حدث فى قطنية فإن رجار حين استولى عليها جعل أهلها المسلمين أرقاء ، ومنحها إقطاعاً للأسقف<sup>(٤)</sup> ويصحح قول ابن الأثير ما قاله الإدريسى فى ثنائه على القمط ( الكونت ) رجار : " ولما صار أمرها إليه واستقر بها سرير ملكه ، نشر سيرة العدل فى أهلها وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم فى أنفسهم وأموالهم وأهلهم وذرائعهم " <sup>(٥)</sup> ، وهو رأى ينطبق على أهل المدن كبلرم ولا يمتد إلى المعاملة التى جرت على الفلاحين . أما ابن جبير الذى زار صقلية أيام غليالم الثانى ( ١١٨٤ ) فيقول : - " لكنها

( ١ ) Cambridge Med. Hist. vol. 5. p. 204.

( ٢ ) Cecilia Waern : Med. Sicily pp. 32-33.

( ٣ ) ابن الأثير ٦٨/١٠ والمكتبة : ٢٧٨ .

( ٤ ) E. Curtis : Roger of Sicily p. 419.

( ٥ ) نزعة المشتاق فى المكتبة : ٢٦ .

معمورة بعبدة الصليبان ، يمشون في مناكبها ويرتعون في أكنافها ، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم قد حسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاوة في فصلين من العام يؤدونها ، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجردونها <sup>(١)</sup> . ويؤيد قوله هذا ما جاء في وثائق ذلك العهد إذ تدل على حرية التصرف في الأملاك والعقارات التي كان يملكها المسلمون رجالا ونساء ، وبيعها تحت ظل القوانين الإسلامية وإشراف قاضي المسلمين <sup>(٢)</sup> . والظاهر من كلام ابن جبير أن المسلمين عامة كانوا يدفعون ما يسمى الجزية وإن لم تسم بهذا الاسم إلا حين تتحدث الوثائق عن اليهود ، ومقدار هذه الجزية مختلف ، ففي وثيقة منها قدر بعشرين رباي وفي أخرى بعشرة ، هذا عدا جزية من القمح والأرز تختلف تبعاً لنوع الأرض واتساعها <sup>(٣)</sup> .

وفي النظم الإقطاعية بأوروبا طبقة من عبيد الأرض تسمى في وثائق صقلية اللاتينية Villani وهي تسمية تقابل من يسمون في الوثائق العربية «رجال الجرائد» أو «أهل الجرائد» <sup>(٤)</sup> وهم في نظر القانون قسماً متمايزان : رقيق يباعون مع الأرض ، ورقيق أحرار بأشخاصهم مسترقون بعملهم — وهما في نظر الواقع لا فرق بينهما ، والأولون من هؤلاء أدنى الطبقات حالاً باستثناء العبيد ، إذ لم يكونوا مرتبطين بالأرض فحسب بل كانوا يباعون معها إذا بيعت كالدواب ، وهم يقرنون في بعض مواد القانون بالبهائم ، وتعد أسماؤهم مع الخيل والبغال وغيرها <sup>(٥)</sup> وكان أبناؤهم يرثون هذا الشقاء ويشقون بتلك التعاسة نفسها إذ يعتبرهم القانون عبيداً بالولادة ، وعلى هؤلاء تفرض الخدمة العسكرية وواجبات الدفاع والحفاظة على قلعة السيد الإقطاعي ، وإذا تزوجت من أحدهم امرأة حرة كان أبناؤها

(١) ابن جبير — الرحلة : ٣٢٢ ط ، رأيت ، والمكتبة : ٨٢ .

(٢) Amari : S. D. M. vol. 3, p. 263.

(٣) op. cit. pp. 256-257.

(٤) op. cit. p. 244.

(٥) C. Waern : Med. Sic. p. 88.

أرقاء<sup>(١)</sup>. وفي الجرائد أسماء أعلام إسلامية مثل محمد وعلى وعبد الله ترد بين أعلام يونانية ولا تينية<sup>(٢)</sup> ومن هنا نفهم لم يحاول المؤرخ هوجو فلقندو أن يؤكد بأن رجال الجرائد في صقلية كانوا مسلمين أو يونان إذ يقول: "وليس في صقلية من يدفع الجزية السنوية إلا المسلمون واليونان وهم وحدهم الذين يلحقهم اسم الأرقاء (رجال الجرائد)"<sup>(٣)</sup> بل علينا أن لا ننسى ونحن نتحدث عن الجماعة الإسلامية بصقلية أمر العبودية التي كانت تؤيدها القوانين في وثيقة عربية - يونانية سنة ١٠٩٤ ذكر لثلاثين عبداً مسلماً ترد أسماءهم بين الأرقاء وأسماء اليهود التابعين لكنيسة قطنية<sup>(٤)</sup> وكان التصرف بالعبيد، كسائر أنواع الملك، أمراً شائعاً بصقلية حتى كانوا يباعون أو يهدون مع عائلاتهم، فعند تأسيس أحد الأديرة تبرع الكونت رجار وأسياد الإقطاع بالقلعة والأرض والرقيق، وكان البارونات يتقدمون هذا بعبد وذاك باثنين وآخر بأكثر، حتى لقد تقدم أحدهم بيهودي<sup>(٥)</sup>. وثبت وثيقة عربية من القرن الثاني عشر أن العرف التجاري كان يسمح بأن يباع الحر عبداً، فقد أذن لجماعة من البحارة المسلمين أن يحملوا ذهباً من جفلوذ إلى مسينة خاصاً بسيد اسمه وليم، ويرهنوا ممتلكاتهم ضماناً عنه، وكان فيهم حاج يدعى عثمان رهن نفسه من الصراف، لأنه لم يكن يملك شيئاً آخر حتى إذا استطاع أن يدفع ما عليه أصبح حراً<sup>(٦)</sup>.

فالمسلمون من وجهة عامة كانوا في العصر النورمانى : إما أهل مدن يتمتعون بشيء من الحرية ، ولا يحق لهم التوسع في ممتلكاتهم ، وإما فلاحين فقدوا كل حرية لهم وأصبحوا رقيق أرض أو عبيداً ، وإما جنداً في الجيش والأسطول .

(١) Curtis, p. 365-66.

(٢) Amari, 3, p. 209.

(٣) op. cit. p. 259.

(٤) op. cit. p. 241.

(٥) Amari, S. D. M. vol, 3, p. 243.

(٦) Op. cit. 242



### الإدارة الإسلامية

أما من حيث الإدارة فإن القانون الذي أصدره رجار سن<sup>(١)</sup> دون تحيز لفريق على آخر من الأقوام الخاضعة لسلطانه ، وترك لكل شعب مجاله على أن لا يعترض في عرفه وعاداته مع القوانين الحرة<sup>(٢)</sup>. ومن ثم كان كل فريق خاضعاً لنوع الإدارة التي تلائمهم. فكان للمسلمين الشيخ والحاكم والقاضي والعامل والقائد<sup>(٣)</sup> وقد ذكر ابن جبير أن لمسلمي بلرم قاضياً يرتفعون إليه في أحكامهم<sup>(٤)</sup>. ورأى مسلمي طرابنش يخرجون إلى مصلاًهم مع صاحب أحكامهم<sup>(٥)</sup> أما العامل فيقابل ما يسمى Strategos في المناطق ذات اللسان اليوناني ، وقد شاع لقب القائد أيام النورمان فشمّل ناساً من العرب والبربر وأشخاصاً من أجناس أخرى وخرج عن مدلوله العسكري ، وأصبح يدلّ على درجة مدنية تقع في المرتبة دون الأمير . وكان لقب الشيخ والقائد مستعملاً منذ أيام الكلبيين ، ففى خبر عن جعفر بن الأكحل أنه استخف « بقوادهم وشيوخ البلاد »<sup>(٦)</sup> وفي زمن غليالم الثاني منح هذا اللقب لأبي القاسم بن الحجر ولنافس له اسمه Seditus (صديق ؟ شديد ؟)<sup>(٧)</sup> ولا بد أن هذا اللقب كان يدل أحياناً على أصحاب القلاع وحيناً على ناس مدنيين .

ومن المحتمل أن المسلمين اشتركوا في بعض السلطات البلدية فكانت هناك هيئة تسمى « الأفاضل » Louni Uomini تساعد صاحب القضاء وأكثر أفرادها مسلمون<sup>(٨)</sup> وربما كانت صورة « للجماعة » التي طالما سمعنا عنها في العصر العربي ، وهذا اللفظ نفسه — أى الجماعة — يطلق في العصر النورمانى على شيوخ اليهود أيضاً .

(١) Cambridge Med. Hist. vol, 5, p. 204.

(٢) Amari, 3, p. 267.

(٣) ابن جبير ص ٣٣٢ والمكتبة ص ٩٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٣٦ والمكتبة ص ٩٧ .

(٥) ابن الأثير في المكتبة ص ٢٧٤

(٦) Amari, 3, pp. 267-271. والأصح أنه السيد حسبما جاء في رسائل ابن قلاقس

(٧) Amari, 3, p. 298.

## الصبغة الإسلامية في الدولة

وإذا كانت الصبغة الإسلامية الإدارية — خلا بعض الألقاب — وفقاً على المسلمين ، فإن الصبغة الإسلامية عامة امتدت أيام النورمان إلى كثير من نواحي الحياة ، لأن الحضارة الإسلامية كانت غالبية على الجزيرة وفي ظلها نشأ رجار وخلفاؤه ، فوجدوا أنفسهم يقتبسونها ويفيدون منها .

وقد وضحت هذه الصبغة في حياة البلاط نفسه ، فتشبه رجار بملوك المسلمين في الاستكثار من الجناثب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك ونخالف عادة الفرنج فإنهم لا يعرفون شيئاً منها<sup>(١)</sup> . وتصنفه الوثائق العربية ويلقبه الإدريسي بالملك المعظم المعز بالله المقندر بقدرته<sup>(٢)</sup> وتلك كانت ألقاباً ثابتة له وكانت علامته الحمد لله شكرياً لأنعمه<sup>(٣)</sup> وفي زمنه — أوزمن خلفائه — استعملت المظلة التي كان يستعملها بنو عبيد وهي شبه درقة في رأس رمح محكم الصنعة ، يمسكها فارس من الفرسان ، يعرف بها فيقال له صاحب المظلة<sup>(٤)</sup> . وكان ابنه غليالم الأول يتكلم العربية ، ويحيط نفسه بحرس من المسلمين ، وبلاطه مملوء بالخصيان والحجاب والحواري ، ومضى غليالم الثاني على سنته يتخذ الفتيان المحجيبين<sup>(٥)</sup> . وناظر مطبخه رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، ووزراؤه وحجابه الفتيان وجملة من أهل دولته مسلمون وكان كثير الاتخاذ للفتيان والحواري . ويتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبنه الملك وإظهار

(١) ابن الأثير ٦٨/١٠ والمكتبة : ٢٧٨ .

(٢) نزهة المشتاق في المكتبة : ١٥ .

(٣) ابن جبير : ٣٢٥ والمكتبة : ٨٤ .

(٤) نبذة المحتاجة لابن حماد في المكتبة : ٣١٧ .

(٥) ابن جبير : ٣٢٤ والمكتبة : ٨٣ .

زينته بملوك المسلمين <sup>(١)</sup> وهو يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته « الحمد لله حق حمده » .

وكانت الصبغة الإسلامية كما رأينا ظاهرة في الألقاب فلقب الأمير يطلق على ناس من غير المسلمين ، وأعلى لقب هو أمير الأمراء وأشييعها لقب القائد للمدنيين والعسكريين على السواء . وزاد هذه الصبغة وضوحاً أن اللغة العربية كانت إحدى اللغات الثلاث التي أقرتها الدولة في سجلاتها ، والأخريان هما اليونانية واللاتينية . أما اللغات المحلية فكانت أربعاً أو خمساً ، والفرنسية من بينها لغة البلاط ، وكانت المالية تستعمل اللاتينية واليونانية ، والظاهر أن العربية لم تكن مستعملة فيها فإن كل الوثائق المكتوبة بالعربية إنما تتعلق بأمور الأراضي والعقارات <sup>(٢)</sup> .

واتخذت الدولة ثلاثة أنواع من الدواوين الإسلامية هي :

( أ ) ديوان المظالم : اقتبسه رجار عن المسلمين وكان المظلومون يرفعون إليه شكاواهم فينصفهم ، ولو من ولده - كما يقول ابن الأثير <sup>(٣)</sup> - وكل من ترجموا لرجار أجمعوا على تحريره الدقة في تطبيق العدالة .

( ب ) ديوان الطراز : والقائمون عليه يطرزون بالذهب في دار خصصت لصنع الملابس الملكية ، والتقى ابن جبير مع واحد من أولئك الطرازين يسمى يحيى ابن فتيان <sup>(٤)</sup> ويقول فلقندو : « ولاننس تلك المصانع الرفيعة حيث تغزل قطع الحرير خيوطاً ذات ألوان كثيرة وتهاى لنسج أشياء متنوعة » وبعد ذلك يعدد فلقندو أنواعاً من الطراز والنسيج بأسمائها اللاتينية <sup>(٥)</sup> ومما تبقى من عمل هذا الديوان عباءة صنعت سنة ٥٢٨ للملك رجار ، إسلامية المناظر والزخرفة ، ففي نصفها نخلة على جانبيها أسدان منقضان على جملين وعلى حاشيتها كتابة بالعربية جاء فيها :

( ١ ) المصدر السابق : ٣٢٥ والمكتبة : ٨٣ .

( ٢ ) G. Waern : Med. Sicily pp. 43-46 .

( ٣ ) ابن الأثير ٦٨/١٠ والمكتبة : ٣٧٨ .

( ٤ ) ابن جبير ص ٣٢٥ والمكتبة : ٨٤ .

( ٥ ) G. Waern : Med. Sicily pp. 78-79 .

١٤ عمل بالحضرة الملكية المعمورة بالسعد والإجلال ، والمجد والكمال ، والطول والإفضال ، والقبول والإقبال ، والسماحة والجلال ، والفخر والجمال ، وبلوغ الأماني والآمال ، وطيب الأيام والليال ، بلا زوال ولا انتقال ، بالعز والرعاية ، والحفظ والحماية ، والسعد والسلامة ، والنصر والكفاية ، بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة<sup>(١)</sup>.

(ج) ديوان التحقيق المعمور : وهو الديوان الذي يعنى بشئون الأرض والرقيق المرفق بها وكل ذلك مقيد في دفاتر deftarii ، وهي سجلات تبين الإقطاعات واتساعها وعدد الأرقاء فيها ، ويسمى هذا الديوان باللاتينية Dohana de Secretis وكلا التسميتين — في رأى أماري ومن يرى رأيه من الباحثين — تدلان على الأصل العربي<sup>(٢)</sup> وقد كان هذا الديوان موجوداً عند الفاطميين ؛ وللديوان رئيس أو صاحب ، دونه طبقة من الكتاب .

## ٥

### المسلمون بين التسامح والاضطهاد

ومنذ أن استقرّ أمر الجزيرة لرجار ، جرى على سياسة تقريب المسلمين . ويقول المؤرخون المعاصرون ( ملاترا مثلاً ) إن عقيدة المسلمين لم تمسّ بسوء ، ولا أصابهم رهق أو أذى<sup>(٣)</sup> . ويقول المؤرخ المجهول معاصر رجار : إن الشروط التي فرضت للمسلمين لا تزال مرعية حتى أيامه . وقد ضمن سكان بلرم حياتهم وحريةهم الدينية وظلّ لهم من بينهم قضاة وحكام<sup>(٤)</sup> وهذا هو ما يقوله الإدريسي في رجار الأول ، وأنه نشر سيرة العدل في أهل صقلية ، وأفرهم على أديانهم وشرائعهم . ونحن إذا أغفلنا الحال البائسة التي انحدر إليها مسلمو الأرياف وطبقات الفلاحين والعبيد منهم وبعض من جعلوا أرقاء بعد أن كانوا أحرار — قلنا إن أهل المدن كانوا يحيون في أمن لأن الملك كان يحميهم بنفوذه وقوانينه . ويقول

(١) Gregorio : Rerum Arabicarum, p. 172.

(٢) انظر تاريخ أماري ٣/٣٢٧ أما فيما يتعلق باختلاف الآراء حول أصول النظام فانظر Curtis

(٣) Amari, 3, p. 132.

(٤) op. cit.

ابن الأثير في رجار الثاني : "وأكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فأحبوه" (١) حتى لقد كان يقرب زهادهم والمتعبدین منهم فأكسبه هذا اعتقاد بعض الناس بأنه كان مسلماً في السر . ومثل هذا الاعتقاد ينشأ بين جماعة كانت تستكثر منه تسامحه أو من جماعة كانت تعاديه وتكيد له ، وتحاول أن تستغل تسامحه لمصلحتها . أما حقيقة الحال فهي أن رجار كان يحب الهدوء والطمأنينة في مملكته ؛ ولم يكن يهدد ذلك الهدوء وتلك الطمأنينة كالضرب على الوتر الديني ، ولذلك لم يكن يسمح للمسلمين في جيشه أن ينتصروا ، ولا يحب أن يرى النصارى يعتنقون الإسلام على أن اتهم أعدائه له بالإسلام سرّاً جعله يدفع ذلك عن نفسه ببناء الكنائس ، بل بإغراء المسلمين على التنصر إن صح ما يقوله رومالذ المؤرخ ، فهو يصف رجار بأنه عفى في آخر أيامه بتنصير اليهود والمسلمين ، مسبغاً على من تنصر منهم أسباب النعمة الدنيوية (٢) وقضية فيليب أمير الأسطول مثل من الأمثلة التي حاول بها رجار أن يظهر علناً إخلاصه للدين المسيحي . — فقد غزا فيليب بونه واستولى عليها غير أنه أغضى على جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا بأهلهم وأموالهم إلى القرى ، ولما عاد إلى صقلية قبض عليه رجار لما اعتمده من الرفق بالمسلمين ، وكان يقال إنه وجميع فتايانه مسلمون يكتمون إسلامهم وشهد عليه بعضهم أنه لا يصوم مع الملك ، وأنه مسلم ، فجمع رجار الأساقفة والقسوس والفرسان فحكموا بأن يحرق في رمضان ، وهذا أول وهن دخل على المسلمين بصقلية (٣) .

وكان المسلمون من ناحيتهم يقبلون على الملك ويظهرون له الحب حتى يضمّنوا لأنفسهم تقدماً في دولته ، وحتى يحميهم من أجناس أخرى كانت تنظر إليهم نظرة بغض وحقن ، إذ ليس التسامح في صقلية معناه موت الأحقاد في نفوس الأجناس ، ولكن معناه ضبط الحاكم لتلك الأجناس وعدم سماحه بتعدى

(١) ابن الأثير ٦٨/١٠ والمكتبة : ٢٧٨ .

(٢) Freeman : Hist. Essays, 3rd Series: 459.

(٣) رحلة التيجاني في المكتبة : ٢٩٩ - ٣٠٠ .

فريق على آخر - وليس غريباً أن يتعلق المسلمون بالملك لأنه الشخص الوحيد القادر على حمايتهم . ومن ثم لن نستغرب ما يقوله فلقدنو من أن النساء المسلمات في بلرم خرجن حين توفي غليالم الأول يلبسن الثياب الخشنة ، وقد نشرن شعورهن وملأن الفضاء بعويلهن ، ورددن المراثى الشجية على نغمات الطنبور <sup>(١)</sup> ذلك لأن الملك إن كف عن حمايتهم ، أصبحت حياتهم في خطر . وهذا ما حدث فعلاً عندما قامت ثورة على مايون وزير غليالم الأول منتصف عام ١١٦٠ م فقد كان مايون - كما نجدنا فلقدنو - نزع السلاح من أيدي المسلمين . فلما قام النبلاء والبارونات بالثورة عليه انتهز المسيحيون - وخاصة اللبارديون - هذه الفرصة وهاجموا المسلمين وأخذوا فيهم قتلاً وذبحاً في شوارع بلرم - ويقال إنهم وجدوا في القصر جماعة من الحصيان المسلمين فذبحهم ، ثم قتلوا المسلمين الذين كانوا في الدواوين أو في الفنادق والحوانيت ونزعوا الأكفان عن جثث الموتى ، ولم يكن عدد من هلك من المسلمين قليلاً ، ومن قتل في هذه الواقعة الشاعر القفصي يحيى بن التيفاشي . ولعل الإدريسي كان من ضحاياها أيضاً <sup>(٢)</sup> . ويمضي فلقدنو الذي روى هذه الحوادث فيقص علينا كيف أن اثنين من اللبارديين خرجا إلى بثيرة وغيرها ، وجمعا الفلاحين اللاتين ، وأغارا بهم غارات متتالية على المسلمين الذين كانوا يعيشون بين المسيحيين ، دون أن يراعوا في ذبحهم عمراً أو جنساً ، حتى أبادوهم إلا قليل نجوا بأنفسهم ، ولجأوا إلى الغابات والجبال لتخفيهم عن أنظار المسيحيين ، وبعضهم لجأ إلى قلعة في جنوبي صقلية يسكنها بعض إخوانهم في الدين <sup>(٣)</sup> .

وبعد غليالم الأول جاء غليالم الثاني وكان صغير السن فقامت أمه بالوصاية عليه ، واتخذت رجلاً يسمى اسطفان Stefano مستشاراً لها ، وكان رجلاً قديراً لكن تنقصه عصية تشد من أزره ، أو حزب يسنده ، ويقول فلقدنو في وصفه :

Amari : S. D. M. vol, 3, p. 502. (١)

Waern : Med. Sic. p. 39.

Amari : S. D. M. vol. 3. pp. 495-96. (٢)

op. cit. pp. 497-98. (٣)

إنه كان ملكاً أرسله الله ليعيد على الأرض ذلك العصر الذهبي القديم . وكان المسلمون منحرفين عنه بتأثير أبي القاسم بن حمود الذي كان يوزع الأموال على الناس لعله يميلهم عن أسطفان ، إذ كان هذا قد صادق منافساً لابن حمود يسمى القائد ( ابن السديد ) وهو من أغنياء المسلمين <sup>(١)</sup> .

ومهما يكن فقد هدأت النفوس أيام غليالم الثاني حتى أصبح عهده مضرب المثل في الهدوء والسكينة . وكان يقال إن غابات صقلية في أيامه أكثر أمناً من المدن في البلاد الأخرى <sup>(٢)</sup> . وحياة المسلمين في عصره واضحة والفضل في ذلك عائد إلى ابن جبير الذي زار الجزيرة وهو عائد من الحج . ويستفاد مما ذكره هذا الرحالة القدير أن المسلمين كانوا قليلين في مسينة ، وأنهم فيها من ذوى المهن ، أما بلرم فتحوى الحضريين منهم ، وبها يعمرّون أكثر مساجدهم ، ويطعمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا بسكنها عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة ودعائهم فيها للعباسي ، ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم ، وجامع يجتمعون فيه للصلاة ، وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن <sup>(٣)</sup> .

وقد وجد ابن جبير أن المسلمين في بلرم مقربون إلى غليالم ، وأنه كثير الثقة فيهم ، فلذلك استعملهم في كثير من الوظائف . وفتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه مسلمون ، يصومون ويتصدقون ويفتكون الأسرى <sup>(٤)</sup> وفي جفلوذ طائفة من المسلمين <sup>(٥)</sup> ولهم في ثرمة ربحس كبير أهل بالمساجد <sup>(٦)</sup> . وبين بلرم وطرابنش ضياع متصلة ومحارث ومزارع وسكانها كلهم مسلمون . وفي مدينة

(١) op. cit. p. 510.

(٢) Freeman : Hist. Essays 3-459.

(٣) ابن جبير ٣٣٢ ، والمكتبة ص ٩٢ .

(٤) ابن جبير ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٥) ص ٣٢٨ .

(٦) ص ٣٢٨ .

علقمة سوق ومساجد وسكانها مسلمون كذلك<sup>(١)</sup>. وفي طرابنش مسلمون ونصارى ولكلا الفريقين مساجد وكنائس وقد رأى المسلمين فيه يعيدون بالطبول والبوقات<sup>(٢)</sup> ولم ينس ابن جبير أن يسجل اللطف الذى قابله به النصارى ومبادرتهم له ولرفقائه بالسلام وموانستهم ، ومحضهم النصيح لهم إذا اقتضى ذلك ، وإغضاءهم على تظاهر المسلمين عند تأديتهم بعض الشعائر الدينية<sup>(٣)</sup> . ولم يحاول أن يفتى لطف غليالم ودفعه الأجرة عن فقراء المسلمين لأصحاب المراكب التى كانت تقلهم<sup>(٤)</sup> .

ومن يقرأ كل هذه الحقائق يعجب من قصص أخرى أوردها ابن جبير عن ناس لا يشعرون بالأمن فى بيثهم ، ويخافتون فى أداء العبادة ، ولا يستطيعون أن يرفعوا أصواتهم بأنهم مسلمون ، حتى ليخيل إليه أن هناك تناقضاً فيما عرفه ابن جبير بالمشاهدة أو بالسماع . والحقيقة أن لا تناقض هنالك فالمسلمون الذين كانوا يتظاهرون بدينهم كانوا قادرين على ذلك فى حالين إما فى مدينة يحضر فيها الملك بقوته كبلرم ، أو مدينة هم الأكثرية فيها كطرابنش . أما فى مثل مسينة حيث هم أقلية بعيدون عن الحماية فن الطبيعى أن يحذروا جيرانهم فى شىء من الخوف . وقد سمع من أحد الوجوه بمسينة قوله : أنتم مدلون بإظهار الإسلام ، فاثرون بما قصدتم له راجحون إن شاء الله فى متحركم ، ونحن كاتمون إيماننا ، خائفون على أنفسنا ، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرّاً ، معتقلون فى ملكة كافر قد وضع فى أعناقنا ربة الرق<sup>(٥)</sup> . وفى هذا قدر كبير من الصحة إذا اعتبرنا المثل الأعلى فى فهم الحرية الدينية ، وهذا كلام رجل شهد ما مضى من اضطهاد فى أيام غليالم الأول فهو يرى أن هذه الحال من الأمن لن تدوم — أما الشكوى التى سمعها ابن جبير من أبى القاسم بن حمود فلا غرابة

(١) ابن جبير : ٣٣٤ .

(٢) ص ٣٣٦ .

(٣) ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٤) ص ٣٢١ .

(٥) ص ٣٢٦ ، والمكتبة : ٨٥ .



أن تسمعها من رجل طموح كان يريد الزعامة ، وكان قد شق بالمصادرة وفقد كل ثروته . والحقيقة أن هذه الشكاوى لا تعبر عن تلك الفترة الهائلة وإنما تعبر عما أصاب المسلمين قبل سنوات . ويحس من يقرأ كلمات فلقدنو أنه كان قد جرى على المسلمين من الأذى في أنفسهم وعقيدتهم ما يزرع الخوف في النفوس ولا يدع للهدوء طريقاً إلى القلوب ، أو يبشر بنسيان الإساءة .

ومن المثالية أيضاً أن ندعى بأن المطالبات المالية كانت تجرى دائماً على حسب القوانين ، وتقرر عند رأى العدالة ، وقد سمع ابن جبير عن فقيه اسمه ابن زرعة ضغط بالمطالبة فأظهر فراق دين الإسلام والانغماس في دين النصرانية ومهر في حفظ الإنجيل ، ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية . وربما طرأ حكم إسلامي فيستفتى فيه أيضاً لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، وكان له مسجد بإزاء داره أعاده كنيسة (١) .

ولم يكن مما يهون على الناس يومئذ — وربما لا يهون أبداً — أن يروا مركز عبادتهم قد حول إلى مكان لعبادة قوم آخرين . ولم تكن ترتاح النفوس لذلك التظاهر الصاحب بالشعائر ، فتلك الطبول والبوقات كانت تزعق في أسماع أهل الدين الآخر بأصوات التحدى ، وتدوى بالكراهية المتبادلة التي تغطي بقشرة رقيقة من الهدوء .

بل لعل أدق ما اطلع عليه ابن جبير من أحوال صقلية اتخاذ مفارقة الدين سلاحاً يشهره الولد في وجه أبيه ، والزوجة في وجه زوجها ، ويذهب الغاضب فيتنصر ويتعمد ، فهم الدهر في مداراة الأهل والولد خوف هذه الحال (٢) . ولا ننس ذلك الخوف على العرض ولذلك فلا عجب أن نرى أحد الآباء جاء يهدى ابنة له صغيرة السن إلى أحد الحجاج ، لعله ينقلها معه ويتزوجها أو يزوجه ممن يرتضيه لها ، رغبة منه في أن يجنبها ما قد يجنبه القدر لمثيلات من فتيات

(١) ابن جبير : ٣٤٠ والمكتبة : ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٤٢ والمكتبة : ١٠٣ .

المسلمين بالجزيرة <sup>(١)</sup> . ومن هذه الحال نستطيع أن نستنتج بأن الهجرة من صقلية لم تكن سهلة ولا كانت السلطات تسمح بها إذ كان عمران صقلية يستدعى ذلك وأكثر منه ، أى يتطلب استقدام سكان من الخارج وإعطاءهم بعض الامتيازات لإغرائهم على الهجرة إلى صقلية .

والخلاصة أن المسلمين كانوا في الجزيرة غرباء عن إخوانهم المسلمين في الأقطار الأخرى . وتحت ذمة غيرهم يؤدون الجزية . ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم وأبنائهم <sup>(٢)</sup> إذا ضعف السلطان عن حمايتهم بل كانت حمايته لهم تزيد من كره أصحاب الأديان الأخرى لهم . هذا حالهم في المدن ، أما في القرى والأرياف ، فلم يكونوا يرتفعون عن الرقيق بكثير ، وكلهم رهائن في يد الملك بصقلية يهدد بهم أمراء المسلمين وملوكهم ، مثال ذلك أن عبد المؤمن لما استولى على المهديّة قال صاحب صقلية : إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهديّة قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم <sup>(٣)</sup> .

وقد صدقت الأيام تلك الهواجس النفسية التي كانت تسيطر على المسلمين وأيدت مخاوف فلقدنوا الذي جزع لما بلغته وفاة غليالم الطيب فراح يقول في رسالة لصديقه : «لئن لآرى جموع البرابرة الغاصبين ومدننا الفسيحة وقصورها التي زهت في ظل سلام طويل تميد بالخوف ، وقد جرت فيها الدماء ودنستها الشهوات ، لئن لآرى بعينى بنى وطنى فريسة للذبح والأسر ، وأرى العدوان واقعاً على العذارى والنساء . وفي مثل هذه الضائقة ، أيها الصديق ، ماذا ترى يفعل الصقليون ؟ إنهم إن اجتمعوا على ملك شجاع مجرب احتفظوا بصقلية وقلورية . إن بلرم لا تزال مكلفة بالعز وأسوارها تضم المسيحيين والمسلمين النشطاء فلو أن الشعبين اتحدا في ظل ملك واحد ، من أجل سلامتهما ، لاندفعا يصدان البرابرة بأسلحة لا تنثنى . ولكن إن عاد المسلمون إلى الثورة لشدة ما لحقهم من

(١) المصدر السابق : ٣٤٢ - ٣٤٢ والمكتبة : ١٠٤ .

(٢) ابن جبير : ٣٣٢ والمكتبة : ٩٢ .

(٣) رحلة التيجاني في المكتبة : ٣٠٧ - ٣٠٨ .

أذى ، وما رهقهم من إساءة ، وراحوا يحتلون القلاع في الجبال وعلى السواحل  
فلبوطن المسيحيون التعساء أنفسهم على عبودية لا خلاص منها لأنهم سيكونون  
فريسة لهجوم مزدوج وسيقعون بين المطرقة والسندان » (١)

ولم يكن في تلك العصور كثير من أمثال فلقندو يقدمون مصلحة  
الوطن على الاعتبارات المذهبية الضيقة ، فلم تكد الدولة تقفر من الرجال الأكفاء  
بعد غلبالم الثاني ، حتى ثارت المعارك بين المسلمين والمسيحيين في الشوارع ،  
وفاضت الدماء في المدينة واعتصم من نجا بين الجبال (٢) واستمرت ثورة المسلمين  
من نهاية ١١٨٩ إلى أكتوبر من سنة ١١٩٠ ثم أثر فيهم الإقناع فعادوا إلى  
بيوتهم في بلرم ، وعاد الأرقاء إلى حقولهم يكدون ، ولكنهم لم يعودوا جميعاً ، وكثير  
من الذين رجعوا لم يلبثوا طويلاً ، إذ كان من السهل على التجار والصناع منهم  
أن يهاجروا إلى أفريقية هجرة تقطع آخر علاقهم بوطنهم ، وأما أهل الأرياف  
فبثروا معتصمين في الجبال وأعطيت أراضيهم للإقطاعيين المدنيين والدينيين .

---

H. S. Williams : *Historians' Hist. of the World* vol. 9. P. 1. (١)

Amari, 3, p. 554. (٢)

الفصل الثالث

الحياة العقلية

مجالاتها الجديدة ونصيب المسلمين فيها



## الحياة العقلية

### مجالاتها الجديدة ونصيب المسلمين فيها

كان النشاط في الميادين العلمية أثناء العصر العربي آخذاً مجاله في المسجد والقصر والكتاب ، أما في العصر النورمانى فقد استوى الكتاب والمسجد في حقيقة الدراسات — إلا قليلا — وأصبح القصر أو الأمير هو الكعبة الكبرى التي تحوم حولها العلوم كما تحوم الآداب . وبرزت هذه المركزية الجديدة بوضوح حتى غطت على آفاق النشاط الأخرى وطمسها أو حجبها — على الأقل — عن أعيننا . ولا شك في أن المسجد العامر بألوان الدراسات الفقهية واللغوية والأدبية قد نضال شأنه في العصر النورمانى ، وانهزمت الدراسات الدينية أمام الدراسات العلمية الأخرى . ولما زار ابن جبير صقلية وجد المساجد فيها محاضر لمعلمي القرآن — والقرآن فقط — أى أن هذه المساجد كانت موقلاً للمعلمين الذين كانوا — كما شاهدهم ابن حوقل من قبل — يلقون إلى طلبتهم أجزاء من الكتاب ليحفظوها عن ظهر قلب . وإذا كان ابن ظفر قد ألف في هذا العصر كتباً كثيرة في التفسير واللغة والمواظ فليس هذا بدليل على أن صقلية كانت مقبلة بحماسة على هذه الدراسات لأن ابن ظفر لم يكن صقلياً عند التحقيق إذ ولد في صقلية وعاش في العالم الإسلامى متنقلاً ، وكانت زيارته لصقلية في سن عالية ، زيارة قصيرة الأمد ، إلا أننا نسمع أسماء نحويين كثيرين من أواخر العصر العربى وأسماء فقهاء في صقلية نفسها عاشوا في العصر النورمانى ولا بد أنهم كانوا يزاولون شيئاً من هذه الدراسات ، غير أن الحقل الواسع الذى نمت فيه الدراسات الدينية على أيدي الصقليين أنفسهم كان خارج صقلية .

وقد قامت الحياة العلمية في هذا العصر على المشاركة في غير لغة واحدة . وكان لا بد لمن يحاول الخطوة في الدولة والصدارة في دواوينها ، أن يتقن لغة فأكثر ومن ثم قامت الحياة العقلية على أكتاف أناس طامحين يعملون في خدمة الدولة بعلمهم ومعرفتهم . وليس من الضروري أن يكون هؤلاء صقليين أصلاً . وما يميز

هذه الحركة العلمية الجديدة أنها كانت بتوجيه من الملك نفسه فهو الذى يدفع العالم إلى التأليف والمترجم إلى ترجمة آثار معينة . وهذا يدل على اتجاه علمي محدد الوجهة والغاية ، نضيفه إلى المشاركة الفعلية التى تروى عن رجار الثانى من بينهم خاصة . — إذ يقول فيه الإدريسي : « وأما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تدرك بحدّ ، ولا تحصر بحدّ ، لكونه قد أخذ من كل فن منها بالحظ الأوفر ، وضرب فيه بالقدح المعلى ، ولقد اخترع من المخترعات العجيبة وابتدع من الابتداعات الغريبة ، ما لم يسبقه أحد من الملوك إليه ولا تفرد به »<sup>(١)</sup> . ومضت صقلية تستورد الكتب من الخارج كما كانت تفعل فى العصر العربى مع اختلاف فى نوع الكتب . ودخلت بلرم — وإلى درجة ما سرقوسة — كتب يونانية وعربية فاستحضر رجار الكتب الجغرافية المؤلفة بالعربية أو المترجمة إليها من اليونانية ، مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب الجيهانى وابن خرداذبة والعذرى وابن حوقل والكياكى وموسى بن قاسم القردى واليعقوبى وابن المنجم وقدامة وكتاب الجغرافيا لبطليموس وأرسبوس<sup>(٢)</sup> وجاءت من القسطنطينية نسخة من كتاب المجسطى هدية من الإمبراطور إلى الملك غليالم الأول ، وربما وردت منها أيضاً نسخة من كتاب ملحى ترجمة دو كستباتر Dostopater عن الكلدانية . ويتحدث ارستبس المترجم لصديق له إنجليزى وينصحه بأن لا يغادر صقلية لأنه لا يجد فيها حكمة اللاتين فحسب ، بل مكتبة يونانية وعوناً من رجل ضليع فى الأدب اليونانى ؛ فى صقلية يستطيع أن يحصل على الميكانيكا لهيرون والبصريات لإقليدس والأناطوليقا لأرسطو وغيرها من المؤلفات الفلسفية اليونانية<sup>(٣)</sup> .

والفضل فى هذه النهضة العلمية يرجع فى الدرجة الأولى إلى أنواع التشجيع التى كان يقوم بها الملك ورجاله نحو العلماء ، فهم يقدون عليهم الأموال ويكتنفونهم بالاحترام ، ويرفعون مراكزهم الاجتماعية فى الوظائف والألقاب ، كما

(١) نزهة المشتاق فى المكتبة : ١٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١٧ .

(٣) Haskins : Med. Science p. 166 .

اشتهروا بالحرص على إغراء العلماء بالقدوم إلى صقلية . وكان رجار يميل إلى مجالسة العلماء ، وعند الصفدى أنه كان محباً لأهل العلوم الفلسفية <sup>(١)</sup> ، وأن الإدريسى كان يجيء إليه راكباً بغلة فإذا صار عنده ، تنحى له عن مجلسه ، فيأبى فيجلسان معاً <sup>(٢)</sup> وكان لا يسمع بعالم شهير إلا مهد له السبيل للوفود عليه وكذلك كان ابنه غليالم الأول . ويصفه ارستبس في حديثه لصديقه الإنجليزى بأنه ملك لا نظير له <sup>(٣)</sup> ، وليس يعنى بهذا أبهة الملك ، بقدر ما يعنى تميزه في الاهتمام بالأمور العلمية والفلسفية ، والتساؤل عن طبائع الأشياء ، وقد كان وزيره مايون يشاركه الاهتمام بهذه النواحي العلمية . ولم يشذ غليالم الثانى عن سيرة من سبقه فيقول ابن جبير فى وصفه : ” وله الأطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم ، شديد الحرص عليهم ، حتى إنه متى ذكر أن طبيباً أو منجماً اجتاز ببلده ، أمر بإمساكه وأدرّ له أرزاق معيشته حتى يسلبه عن وطنه “ <sup>(٤)</sup> .

وفى أيام غليالم الأول والثانى ازدهرت حركة الترجمة إلى اللغة اللاتينية من العربية واليونانية . وكان من أشهر المترجمين عن اليونانية أرسطبس الذى أصبح أيام غليالم الأول شخصية هامة وتولى الوزارة له بعد مقتل مايون ، وكان ضليعاً فى اليونانية فترجم الفيديون ومينون من محاورات أفلاطون ، وبأمر من الملك قام بترجمة جرجوريوس النازيانزى ، وبطلب من مايون ترجم ديوجين لايرتس إلى اللاتينية <sup>(٥)</sup> .

أما الأمير يوجين البلرمى الذى أكسبته استطلاعاته الفكرية لقب «فيلسوف» فكان يترجم من العربية ، فترجم منها إلى اللاتينية بصريات بطليموس ؛ وكان فى متناول يده بعض كتب لإقليدس <sup>(٦)</sup> ، مما يدل على معرفته باللغات والرياضيات مع قدرة على نظم الشعر باليونانية ، وله مجموعة من الشعر فيها قصيدة

(١) الوافى بالوفيات فى المكتبة : ٦٥٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٥٨ .

(٣) Haskins : Med. Science p. 166.

(٤) ابن جبير : ٣٢٥ والمكتبة : ٨٣ .

(٥) Haskins. M. Science p. 166.

(٦) Haskins : Med. Science p. 171.



يمدح بها غليالم وليس من الواضح أى غليالم هو المقصود بذلك المديح<sup>(١)</sup>. وترجم يوجين أيضاً كتاب كليلة ودمنة أو لعله ساعد في ترجمته إذ جاء في المقدمة . — إنها تمت بمساعدة رجال يعرفون العربية حق المعرفة وهى جملة ربما لا يقولها يوجين ، لاطلاعه الواسع في العربية<sup>(٢)</sup> ، وإن كان هذا لا يمنع أنه استعان على ترجمتها ببعض المسلمين حين وجد نفسه إزاء نص أدبي . وإليه تعزى ترجمة لإحدى الملاحم عن اليونانية وهى كتاب نبوءات تتحدث عن أعمال الملوك والأباطرة . ويعتقد أمارى أن نسبة هذه الملحمة إلى أصل كلدانى غير صحيح ، لأن فيها معلومات عن بعض الظواهر والأحداث التى وقعت في القرن الثانى عشر والثالث عشر ، فنسبها إلى القرون الخوالى مقصودة<sup>(٣)</sup> ، لتزيد في قيمة ما ورد فيها من التنبؤات<sup>(٤)</sup>.

ولم يكن نصيب العلماء المسلمين في الحركة العلمية قليلا . — فقد كان الشريف الإدريسي يرأس « الدائرة الجغرافية » في بلرم ، ويشرف على جهودها وينظمها . ومن تنظيمه هذا قام في أيام رجار بعملين : رسم صورة الأرض في دائرة من الفضة ووضع أقسام الأقاليم عليها . وألف كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » الذى اشتهر باسم كتاب رجار ، واستمر الإدريسي في بلرم أيام غليالم الأول وله ألف كتاب آخر سماه « روض الأنس ونزهة النفس »<sup>(٥)</sup> وكان للشريف مشاركة في علوم أخرى كعلم النبات وفيه ألف « الجامع لأشتات النبات » ولكن ليس من الممكن أن نقطع بأنه ألفه في صقلية<sup>(٦)</sup>.

ومن المسلمين الذين اشتهروا بصقلية محمد بن عيسى بن عبد المنعم " من أصحاب العلم بعلمى الهندسة والنجوم ، ماهر فيهما قيم بهما ، مذكور بين الحكماء هناك بأحكامهما " <sup>(٦)</sup> وذكر الحكماء في هذه العبارة يفتح المجال

(١) Op. cit. p. 172.

(٢) op. cit. p. 176.

(٣) Amari : S.D.M. vol. 3, p. 676.

(٤) الحريدة الجزء ١١ الورقة

(٥) انظر تاريخ أمارى ٧٠٢/٣ وتعليق ثلثين في هذه الصفحة .

(٦) القفطى - أخبار العلماء : ١٨٩ .

لتصور كثير منهم بصقلية . وعلى يد العلماء المسلمين انضم إلى هذه الدراسات العلمية جهود أخرى في الدراسات الفقهية والأدبية . ففي أيام غليالم الثانى كان أبو القاسم بن الحجر موثلاً للقصاد ، فألف له ابن ظفر الصقلى كتاب « سلوان المطاع » وكتاب « معونة الأشراف فى الفقه المالكى » وفى مدحه صنف ابن قلاقس كتاب « الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم » .

وشفعت الحركة العلمية هذه بظاهرتين جعلتاها أرسخ أصولاً وأبعد أثراً . — الظاهرة الأولى : قيامها على التجربة والمشاهدة فى بعض الأحيان . فى المجال الجغرافى لم يكتف رجار بالاعتماد على كتب الجغرافية وحدها ، بل أحضر الرجال العارفين وشافهم فى الأمور التى يريد معرفتها ، وحقق أخبار البلاد بالمعينة ووقع اختياره هو والإدريسى على أناس ألباء فطناء أذكىاء ، جهزهم إلى أقاليم الشرق والغرب وسفر معهم قوماً مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً ، وأمرهم بالتقصى والاستيعاب لما لا بد من معرفته فكان إذا حضر أحد منهم بشكل أثبتته الشريف الإدريسى <sup>(١)</sup> . وكان أرسنيس فى أيام غليالم الأول يعرض نفسه للخطر ويحاول أن يدرس عجائب إتنا ويستطلع حقيقته <sup>(٢)</sup> .

والظاهرة الثانية : الاستفادة منها فى الحياة العملية وفى هذه الناحية نطلع على جهود فى الهندسة المعمارية وفى عمل الآلات ، وللمسلمين فى هذه المجالات أثر واضح ، إذ كان رجار يعتمد عليهم فى صنع آلات الحصار ، وهم الذين كانوا يصنعون القلاع المتحركة فى حصار سالونيك سنة ١١٨٥ كانت منجنيقاتهم ذات أثر فعال فى خرق الأسوار <sup>(٣)</sup> . وصنع أحد المهندسين لرجار آلة لرصد الساعات درست ولم يبق مما يدل عليها إلا كتابة باللغات الثلاث اللاتينية فاليونانية فالعربية والنص فى العربية ” خرج أمر الحضرة الملكية العظيمة الرجارية العلية أيد الله أيامها وأيد أعلامها ، بعمل هذه الآلة لرصد الساعات ،

(١) الوافى بالوفيات فى المكتبة : ٦٥٨ .

Haskins. Med. Sciencep. ١٥ ٩. (٢)

Amari : S. D. M. vol. ٣. p. ٧٥٦. (٣)

بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثلاثين وخمسمائة<sup>(١)</sup> وربما كانت شيئاً شبيهاً بتلك الآلة التي صنعت بمالطة للمكها وهي صورة تعرف بها أوقات ساعات النهار وكانت ترمى بنادق على الصنّاج<sup>(٢)</sup> وفي معجم السلفي أن أحد المهندسين صنعها لقائد اسمه يحيى ليعرف أوقات النهار بالصنّاج<sup>(٣)</sup> وكان في المسلمين مهندسون معماريون تركوا أساليبهم في قصور بلرم، وأبو الليث مثال هؤلاء<sup>(٤)</sup>.  
 هذه الحركة العلمية سواء في التشجيع عليها والتهيئة لأسبابها أو في قيامها على الترجمة من ناحية أو على الترجمة والمشاهدة من ناحية أخرى كانت أيضاً موضع اهتمام كبير من فردريك الثاني وابنه منفريد فيما بعد.

(١) Gregorio : Rerum Arabicarum, p. 176.

(٢) القزويني آثار البلاد : ٣٧٣ والمكتبة : ١٤٣ .

(٣) السلفي ، الورقة ٣٣ . والشك واقع في مكان صنعها لأن مالطة عند ياقوت بالاندلس أيضاً وما دونه السلفي مروي عن رجل بلنسي وربما كان يحيى المذكور هو ابن غانية . وانظر Centenario حول هذا الشك ٢١٠/٢ .

(٤) انظر كلام أماري عنه في تاريخه ج ٣ ص ٧٠٤ - ٧٠٥ .

الكتاب الثالث

حياة الشعر العربيّ

في صقلية



## الفصل الأول

### المكونات الكبرى في شعر صقلية الإسلامية

- ١ - موقع الجزيرة وطبيعتها الجغرافية
- ٢ - الأجناس التي أنتجت الشعر الصقلي
- ٣ - الفترة التي نما فيها الشعر الصقلي
- ٤ - الفتنة الأخيرة وأثرها في الشعر



## المكونات الكبرى في شعر صقلية الإسلامية

لا يستطيع الباحث في الشعر الصقليّ - عهد الحكم الإسلامي في الجزيرة - إلا أن ينظر إليه من خلال أربع حقائق كبرى، كان لكل واحدة منها أثرها البعيد في ذلك الشعر وفي طبيعته :

### الحقيقة الأولى : موقع الجزيرة وطبيعتها الجغرافية :

فوقع الجزيرة هو الذي تحكم في الهجرة من صقلية وإليها ؛ وجعل الشعر الصقلي نفسه صورة من المصادر والوارد ، كالحال في حياة التجارة . ولذلك نجد في هذا الشعر أنغاماً صقلية مهاجرة ، تتردد في إفريقية ومصر والأندلس ، كما نجد أنغاماً غربية وافدة إلى صقلية نفسها . وليس من الضروري أن نتظر الفتح النورمانى لنسمع عن شعراء هاجروا من صقلية إلى البلدان المجاورة ، فهناك من الصقليين من كان ينتقل بشعره متكسباً ، وخاصة بعد أن أصبحت مصر فاطمية الدولة ، تجتذب إليها الشعراء من جميع أنحاء المملكة ، وصقلية يومئذ ولاية تابعة للخليفة الفاطمى ، وأمرؤها الكلابيون ذوو منزلة رفيعة عند ذلك الخليفة بمصر وصقلية في آن واحد ، وبهؤلاء الشعراء الراحلين عرف الناس صقلية معرفة أوضح ، وزادها وضوحاً أخبار البحارة والرحلين إليها .

فمن الصقليين الذين هاجروا من بلدهم في هذه الفترة المقداد بن الحسن الكلبي وأخوه ميمون ، والأول منهما كان بمصر أيام العزيز نزار ، وهو يصرح بأنه شاعر الخليفة ، وقد قتله الحاكم سنة ٣٩٣ هـ لقوله في أيام العزيز (١) :

---

(١) ابن سعيّد: المغرب ٣ الورقة : ٧٥ والملحق الثانى للمكتبة ١٦ - ١٧ نقلا عن الوافى .



الحمد لله حتى الحيز أعوزني في بلدة أنا فيها شاعر الملك  
ومن هؤلاء الصقليين أيضاً أبو علي الحسن بن علي الصقلي النحوي ولا نعرف  
له من الشعر إلا قوله :

في سبيل الله ودّ حسن      دام من قلبي لوجه حسن  
وهوى ضيعته في سكنى      ليس حظي منه غير الحزن  
يرقد الليل ويستعذبه      وإذا ما رمت طيب الوسن  
زارني منه خيال ما له      أرب في غير أن يوقظني

وقد توفي هذا الصقلي بمكة سنة ٣٩١ هـ ، بعد أن حج ، ودفن هنالك <sup>(١)</sup>  
وكان من أظهر الأسباب التي حدثت بشعراء صقلية على الهجرة ارتفاع  
شأن القيروان أيام المعز بن باديس في النواحي الأدبية ، حتى أصبحت تنافس  
بلرم في نشاطها ، وكان قد التف حول المعز عدد كبير من الشعراء من جهات  
متعددة في المغرب ، حتى ليخيل لمن يقرأ ما تبقى من كتاب النموذج لابن رشيق  
أن نهضة المغرب الأدبية إنما تبلورت واكتمل نضجها أيام المعز ، لا قبل ذلك  
ولا بعده . ويقول ياقوت : وكانت القيروان في عهده وجهة العلماء والأدباء ،  
تشد إليها الرجال من كل فج ، لما يرونه من إقبال المعز على أهل العلم والأدب  
وعنايته بهم <sup>(٢)</sup> . ففي ظل الاستقرار السياسي بإفريقية شهدت القيروان نهضة  
أدبية ، وفي ظل نوع من الاستقلال السياسي بصقلية عرفت بلرم حركة أدبية  
قوية . وكانت هاتان النهضتان متعاصرتين حتى نستطيع أن نقول إن العنصر  
المغربي في البرّين الأفريقي والصقلي كان يؤدي أقوى أدواره في تأريخ الأدب العربي  
حين تمت له وسائل النهضة الأدبية في حياته الاجتماعية والثقافية . وربما كان من  
استباق الحوادث أن أسجل في هذا الموطن هذه الظاهرة الثلاثية التي حدثت تباعاً  
على الوجه التالي :

(١) ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق ٤ : ٢٣٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(١) خربت القيروان على يد العرب الهلالية وذهب ما أنفق المعز من جهود ،  
فهاجر الناس وفيهم الشعراء والعلماء إلى صقلية والأندلس .

(ب) ثم وقعت صقلية بعد وقت قصير فتشعب شعراؤها وعلمائها الأصليون  
والطارئون في ثلاث شعب : واحدة ذهبت إلى الأندلس وأخرى عادت إلى  
أفريقية وثالثة إلى مصر ، وسنقف عند هذه الهجرة في فصل تال .

(ج) ثم أخذت الأندلس تهتز تحت غارات الإسبان من جهة وأطماع  
المرابطين من جهة أخرى ، وتشتتت تلك الحلقات الأدبية التي كانت حول ملوك  
الطوائف — وخاصة ابن عباد — واتجه المهاجرون في الغالب إلى أفريقية ، وهكذا  
قام كل بلد من هذا المثلث المغربي بنصيبه في الحياة الأدبية ، وكانت الهجرة  
من واحد إلى آخر غذاء جديداً .

وتتمثل الهجرة إلى صقلية على ثلاث درجات متفاوتة : فهناك هجرة الشاعر  
العابر المتكسب الذي يتخذ من صقلية منتجاً أو موطناً قدم ، حتى إذا وجد  
طلبته ، أو أخفق في العثور عليها ، فارق البلد عائداً إلى وطنه . ومن أشهر هؤلاء  
الشعراء ابن قاضي ميلة أحد الوافدين على ثقة الدولة وقد مدحه بقصيدة فائقة  
وصفها ابن خلكان بأنها بديعة غريبة ورواها بتمامها <sup>(١)</sup> ومنهم ابن المؤذب ، وهو  
من أسرهم الروم ، فلما هادنهم ثقة الدولة استرد بعض الأسرى وفيهم هذا الشاعر  
فدحه بقصيدة شكره فيها على صنيعه ، ورجا صلته ، فلم يصله ثقة الدولة بشيء ،  
فأخذ يتكلم بدمه وأطلق لسانه فيه غير متحرج ، واختفى خوفاً على نفسه من  
الطلب ، وفي إحدى الليالي خرج وهو سكران ليشتري نقلاً ، فما شعر إلا وقد  
حمله صاحب الشرطة حتى أدخله على ثقة الدولة ، فعاتبه الأمير على ما كان  
بلغه عنه ثم أمر له بمائة رباعى ، وأخرجته من المدينة لئلا تتغير عليه نفسه بعد  
العفو ، فبأخذه بالعقوبة <sup>(٢)</sup> .

واتصل بثقة الدولة شاعر مهاجر آخر اسمه محمد بن عبدون السوسى ويصفه

(١) ابن خلكان ٣ : ١٨٣ - ١٨٥ والمكتبة : ٦٣٤ - ٦٤١ .

(٢) ابن خلكان ٣ : ١٨٢ والمكتبة : ٦٣٢ - ٦٣٤ .

ابن رشيق بأنه شاعر وطىء الكلام ، كلف بعذوبة اللفظ والتوصل إلى المعنى البعيد بلطافة وسكون جأش ، لا يكاد يلغو بالشعر إلا إذا قال . ولما وفد على ثقة الدولة وامتدحه أضافه الأمير إلى ولده جعفر فأدناه وقربه ، حتى كان من أكرم الناس عنده . وظل ابن عبدون في صقلية حتى هزه الحنين إلى وطنه ، فرفع إلى جعفر قصيدة يتشوق فيها إلى أهله وأحبابه ومعاهده ويقول فيها (١) :

بالله يا جبل المعسكر دع ريح الجنوب ترق أو تسر  
كما أسائلها فتخبرني ما يفعل الجيران بالقصر

فلما سمعها جعفر ازداد به تعلقاً واشتد حرصه على استبقائه عنده حتى ضاق الشاعر بين منع وحنين ، وكتب إلى ثقة الدولة يرجوه أن يسرحه ويمدحه بقصيدة مطالعها :

يا قصر طارق حي فيك مأسور شوق طليق وخطوى عنك مأسور

ثم عاد يلجأ إلى جعفر ، ويستأذنه في الرجوع إلى وطنه ، فعتب عليه جعفر وحجبه ، حتى عز وصوله إليه ، وأخيراً تحين الشاعر الفرصة وكتب أبياتاً يتشفع فيها لدى جعفر ، يقول فيها إنه أصبح عاجزاً عن لقائه وأنه رأى القمر فقام مسلماً عليه ، مظهر الخضوع لديه ثم يسأل القمر هذا أن يكون شفيعاً له عند شبيهه ابن يوسف ، ويذكره بحق شاعر ساءت حاله بعد ما التهب في صدره نار الحنين . ولقى جعفر في بستان يتنزه ، فقدم إليه الرقعة ، فلما قرأها طرب لها وأمر له بمال كثير (٢) .

وفي تمسك الأمير بابن عبدون السوسى ما يدل على حرص صاحب صقلية على شاعر فضائله ويتحدث عنه ويميل إليه القلوب فهل في هذا

(١) تجد من هذه القصيدة الجميلة أبياتاً كثيرة في تذكرة ابن العديم ، وانظر ترجمة الشاعر في مسالك الأبصار ١١ مجلد ٢ : ٣٤٧ .

(٢) رحلة التيجاني في المكتبة : ٣٧٩ . والنقل عن ابن رشيق ولعله من الأنموذج وانظر ترجمة السوسى في المسالك ١/١١ : ٣٣٠ .

إشارة إلى حاجة صقلية للشاعر القدير وعدم توفره بين أبنائها ؟ ربما استطعنا الإجابة على هذا السؤال لو كان لدينا من شعر ابن عبدون ومداثحه في بني أبي الحسين ، ما يمكننا من الحكم على إجادته ، بالنسبة للشعراء الصقليين أنفسهم ، على أن صقلية في زمن ثقة الدولة وابنه جعفر بلغت أقصى النشاط في الشعر ، وتوفر لها عدد كبير من الشعراء .

هذا نوع من المهاجرين . وهناك آخرون دخلوا صقلية فراراً بأرواحهم من أزمات حاقت بهم في أوطانهم . وأخصّ بالذكر حادثتين : هجرة سنة ٣٩٥ عند ما حدثت مجاعة بإفريقية اضطرت كثيراً من أهلها إلى اللحاق بصقلية ، وهجرة سنة ٤٥٦ عند خراب القيروان على يد العرب . ومن أشهر مهاجري هذه الفترة ابن رشيق القيرواني صاحب العمدة والأنموذج ، وقد استقر بمدينة مازر ، ومنهم محمد بن حسين بن جبارة الفارسي <sup>(١)</sup> ، والحلواني <sup>(٢)</sup> ، وعبدالحليم الصقلي . ولنا لندرك أثر ابن رشيق في صقلية من حقيقتين الأولى أنه درس كتاب العمدة بمدينة مازر والتف حوله جماعة من أهل الأدب والدارسين ، والثانية أن ابن رشيق كان قبلة أنظار بعض الصقليين في اتجاهه الأدبي والنقدي ، وكان أصدقائه بصقلية على اتصال دائم به <sup>(٣)</sup> ويصرح أحد المعجبين به قائلاً : " كنت ساكناً بصقلية وأشعار ابن رشيق ترد عليّ فكنت أتمنى لقاءه حتى قدم الروم علينا ، فخرجت فاراً بمهجتي تاركاً لكلّ ما ملكت يدي وقالت : أجمع بأبي عليّ ، فبرقة شمائله ، وطيب مشاهدته ، سيذهب عني بعض ما أجد من الحزن على مفارقة الأهل والوطن " <sup>(٤)</sup> .

ويمثل عبد الحليم الصقلي نوعاً ثالثاً من المهاجرين وهم الذين كانت صقلية مهوى أفئدتهم ، يحبونها للثراء والجمال معاً ، ويعشقونها أملاً حبيباً ، ويجدون لاسمها

(١) انظر ترجمة ابن جبارة في المسالك ٢/١١ : ٢٩٩ وفيه أنه أوطن صقلية ثم عمد على الخلاص إلى وطنه .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ١/٤ : ٢١٩ - ٢٣١ .

(٣) انظر الترجمة رقم ١٨ ، ٢٠ من مجموعة الشعر الصقلي .

(٤) ابن ظافر : بدائع البداهة على هامش معاهد التنصيص ٢ : ٣٦ .

في آذانهم رنيناً عذباً ، وقد عبر عبد الحليم عن هذا الظماً إلى الجزيرة بقوله :  
 عشقتُ صقليةً يافعاً      وكانتُ كبعض جنان الخلود  
 فما قدر الوصلُ حتى اكتهلتُ      وصارتُ جهنمَ ذاتِ الوقود

وفي هذه النغمة المتألّمة نحس بحقيقة ما كان يشعر به عبد الحليم من عشق -  
 عشق اليافع الذي مضى به العمر وهو ظامئٌ فلما قدر له اللقاء وجد  
 الحبيبة قد حالت عن عهدها ، ولقيت آماله بضدها . فما استطاع عبد الحليم  
 أن ينال أمنيته إلا حين أصبحت صقلية جهنماً بالفتنة ، ومثل عبد الحليم  
 شعراء آخرون كانت تدفعهم بوهيمية الآمال إلى صقلية فيخرجون أثر  
 حبيب هاجر إليها قبلهم <sup>(١)</sup> أو يلقيهم على ساحلها شوقهم إلى حياة الحانات  
 ودور الرقص والغناء . ولم يكد عبد الحليم يحل صقلية حتى وجدها بركاناً تقذف  
 بالحرم ، فلجأ إلى ساحة ابن منكود ، حيث بلأ ابن رشيق قبله وذهب يسخر  
 أصالته الفنية الجميلة في المدح حتى استفرغ فيه جهده ، وشعر هو بأنه قد زاد  
 في التزع عن تلك القوس - في مدح ابن منكود - فقال معتذراً عن نفسه <sup>(٢)</sup> .

يقولون كسّر عبد الحليم      فإلاً اقتصاداً وإلا اقتصاراً  
 وفضلُ أبي القاسم المجتبي      كفاني احتجاجاً لهم واعتذاراً  
 تغارُ العلا لابن منكودها      فلا تقبلُ المدح فيه اختصاراً

لقد أحب عبد الحليم صقلية فلم يستطع أن يفارقها حين غزاها النورمان ،  
 ودالت دولة ابن منكود ممدوحه ، وانتقل من بعد إلى بارم وعاش في كنف رجار ،  
 ولكننا لا نسمع بعد ذلك شيئاً عن حياته <sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

(١) من هؤلاء عمر بن معمر الفارسي ، انظر تذكرة ابن العديم ، الورقة ٣٨٢ نقلاً عن الأتموزج لابن رشيق .

(٢) معجم السلفي ، الورقة : ١٧٥ والترجمة رقم : ٦ من مجموعة الشعر .

(٣) رجح أماري أن عبد الحليم من شعراء عصر غليانم الأول وأنه حضر الفتنة التي قتل فيها المسلمون سنة ٥٥٠ ، ولكن مدحه لابن منكود يؤيد ما ذهب إليه ، إلا أن يكون هناك خطأ ونقرأ في المخطوطات ابن حمود مكان ابن منكود ، فيكون فرض أماري صحيحاً .

تلك هي صورة الشعر في صقلية حين نذكر موقعها الجغرافي ، فنجد حركة دائبة ، منها وإليها ، كحركة الموج أو المدّ في اندفاعه وتراجعه . أما حين تتمثل لنا طبيعتها الجغرافية في خصبها وتنوع أزهارها وكثرة بساتينها ومياهها ، ونضارة الطبيعة فيها ، فإنه يخيل إلينا — بادی الرأي — أن خير ما أنتجته صقلية من شعر إنما كان يدور في فلك الجمال الطبيعي ، ويهم بمحاسن الريف ، ويتغنى بمناظر القطاف ومواسم الحصاد والينابيع والحدّاء المتدفقة ، وأسرار الطيور وهدهود الحياة الرعوية . ولكن الأمر على غير ذلك . فإن الشاعر في صقلية هو ابن بلرم — وقلبه عالق بحاناتها وأسواقها ، معقود ببركة القصر ، مثلما هو معقود بغطايا الأمير ، مستمتع بنعومة السجاد ، مذهول أمام روعة المباني . ولا تعطفه على الريف عاطفة إنسانية ، أو قلب يحن إلى مناظره الجميلة ، وليست لديه روح الصوفي الذي يرى الجمال الإلهي كامناً في الثملة والصخرة والعشب . حتى ابن حمديس ابن صقلية الباكي على مجدها لا يذكر منها إلا الدار والدير والكأس والساقية الفاتنة ، وينسى الجو الجميل الذي كان يضم هؤلاء جميعاً . ولا نجد في شعره إلا نغمات قليلة تتمزج بأنفاس العطر الطبيعي في حياة وطنه كقوله (١) :

ويا ربيعُ إما مرّيت الحيا	ورويت منه الربوعَ الظماءَ
فسوقى إلى جهّام السحاب	لأملأهنّ من الدمع ماءَ
وسقى بكائى ربيع الصبا	فما زال في المحل يسقى البكاء
ولا تُعطِشي طلالاً بالحوى	تدأنى على مزنة أو تناءى
وإن تجهليه فعيدانهُ	لظى الشمس يلدغُ منها الكباء

ولذلك فإن الأمكنة الجميلة التي يتغنى بها شعراء صقلية قليلة . ولعلّ من أكثرها تردداً في شعرهم « المعسكر » في بلرم ، وكان مجالاً للذين يفرّون من صخب الحياة في المدينة ، وهو موضع اشتهر بكثرة العيون ، كعين الغربال وعين

(١) الديوان : القصيدة رقم : ٢ .

التسع وعين أبي سعيد وعين أبي علي <sup>(١)</sup> وتدل الأوصاف التي أسبغها عليه الشعراء أنه كان حافلاً بالأشجار والأزهار ، ويقول فيه ابن الأصبطي الكاتب <sup>(٢)</sup> :

أنا في المعسكر مفردٌ في جحْفَلٍ      من نَوْحٍ قُمْرِي ورنة بلبل  
فكأنما يلقي عليّ بصوته      نغمات معبدٍ في الثقل الأول

ويقول فيه الحسن بن أحمد الكاتب <sup>(٣)</sup> :

انظر إلى وَرْدِ المعسكر قد كسا      أشجاره نوراً يخيّل نارا  
جادَ الربيع لنا به فكأنما      سلبَ الخلودَ وألبس الأشجارا

وقد أوحى كلمة « المعسكر » إلى الشعراء فكرة الجحفل ، والمواكب ، وأنواع الأسلحة ولذلك نسمع أبا عبد الله الحسن ابن أبي علي القار يقول في وصفه <sup>(٤)</sup> :

أرى المعسكر قد صُفّت مواكبه      فجمعت كلّ أحوال تحاربه  
قضبانها الملدُّ أرماحُ أسنّها      ثمارها ، وسواقها قواضبّه

وجلس ثقة الدولة مرة وسط أرض ناضرة ومعه الحسن بن محمد الطوبى الكاتب فسأله أن يصنع فيها شعراً فقال بديهاً <sup>(٥)</sup> :

روضٌ يحار الطّرف في زهراته      ويهيجُ المشتاقَ من زهراته  
يبدى بأصفره بوادى عاشق      ويُرَى بأحمره لظى زفراته

ويقول آخر واصفاً بركة ماء <sup>(٦)</sup> :

(١) ابن حوقل ١ : ١٢٣ .

(٢) المختصر ، الورقة : ٩٩ .

(٣) المختصر ، الورقة : ١٠٤ .

(٤) المختصر ، الورقة ١٠٥ والترجمة ٨٧ من المجموعة .

(٥) المختصر ١٠٣ والترجمة ٧٩ من المجموعة .

(٦) المختصر : ١٠٤ والترجمة ٨٢ من المجموعة .

بركة للماء تطردُ للصبا في منها زردُ  
بات في أحشائها قمرٌ مثلُ قلب الصب يرعدُ

ومن الأماكن الأخرى مكان سماه أبو القاسم الكلبي « البروج » وقال فيه <sup>(١)</sup> :

ألا ربَّ يومٍ لنا بالبروجِ بخيلِ الضياء جواد القطارِ  
كأن الشقيق بها وجنةٌ بأخرها مقلةٌ من عذار  
كأن البنفسج في لونه اخ تلاطُ الظلام بضوء النهار  
وسوسنها مثلُ بيضِ القبابِ بأوساطها عمود من نصار

وأبو القاسم الكلبي ، صاحب هذه القطعة ، من أكثر الشعراء تنفّاتاً إلى الطبيعة ، وطريقته في الوصف قائمة على محاولة التشبيه في كل بيت ، وهي طريقة ابن حمديس نفسه . وهذه القطعة وما سبقها تدل على مدى الضعف في شعر الطبيعة عند شعراء صقلية . وليس في الإكثار من الأمثلة كبير غناء .

#### الحقيقة الثانية : الأجناس التي أنتجت الشعر الصقلي :

يتبين لنا مما سبق أن الذين أنتجوا الشعر الصقلي ينقسمون حسب الاستقرار في ثلاث فئات ( أ ) صقليين أصلاً أو ولادة عاشوا أكثر حياتهم في الجزيرة ( ب ) صقليين هاجروا صغاراً وبقيت النسبة عالقة بهم . ( ج ) مهاجرين وفدوا على صقلية وتفاوتت فيها إقامتهم ، ولا شأن لنا بالفئتين الثانية والثالثة وإنما نوجه اهتمامنا إلى الفئة الأولى . ومن الصعب أن نتلمس في هذه الفئة شاعراً صقلياً من تلك العناصر الأصلية كالإغريق والطلبيان فأكثر الشعراء الذين وصلتنا أسماؤهم من أبناء العناصر التي هاجرت مع الفتح إلى صقلية واتخذتها دار إقامة . وأول حقيقة هامة في هذه العناصر أنها إفريقية ، وأن حظها من التميز الأدبي كان ضئيلاً يقول ابن خلدون في أهل المغرب : ” وكذلك أشعارهم ، كانت بعيدة عن الملكة ، نازلة عن الطبقة ، ولم تزل كذلك لهذا العهد ، ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير

( ١ ) المختصر : ٩٧ والترجمة : ٦٦ وليس من المقطوع به أن « البروج » في صقلية .



الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف وأكثر ما يكون الشعراء فيها طائرين عليها<sup>(١)</sup> زد على ذلك أن أكثر الذين شاركوا في الفتح إنما كانوا من الجماعات العسكرية أو من أهل التجارة والصناعة . وأننا حين درسنا حياتهم الثقافية وجدنا الاتجاه إلى الفقه من بعد أغلب عليهم من أية دراسة أخرى . وكان هذا الفقه هو طابعهم القوي الذي يريدون أن يطبعوه على بيئة مسيحية ، كما كان فيما بينهم مقياساً لصحة التعامل المادى ، في باب التجارة والصناعة والزراعة ، وهو في الوقت نفسه النواة التي تقوم حولها فكرة الجهاد في حياتهم العسكرية . نعم إن الفتح قد حول كثيراً من السكان الأصليين إلى الإسلام ، ولكن أكثر هؤلاء كانوا من العبيد ، وقد كانت الملكة فيهم مقتولة بطول الاستعباد ، ولا شك في أن حالهم تحسن بعد الفتح ، ولكن المهاجرين كانوا ينظرون إليهم أيضاً نظرة من عل ، ويحتقرونهم كما احتقرهم ابن حوقل الذي سماهم "العجم الغنم الصم البكم" ويصورهم ابن الصباغ في رسالة له بصورة الوحوش الضارية التي يتأذى منها أصحاب الأملاك وأهل الثراء . فأرض ابن الصباغ "بين قوم يأكلون الشجر قبل الثمر، ويرعون الأب قبل الحب ، وما آمن مع ما أهدت به من الأسوار ، وخرجت في النفقة عن المقدار ، أن يوجفوا إليها بالحوالي ، وينقصوا فيها كالسواذق ، كما يفعلون في بستان فلان الذي أنفق فيه عمره وماله ، وصرف إليه همه واهتمامه ، فهو في الشتاء من علوج الزبر والحفر ، وأصحاب الغرس والبذر ، فلماذا بلغت ثمرته ووجبت غلته ، حام عليه بنو حام ، ولم يمتنع منهم بحارس ولا حام ، وأحيط بثمره ، فأصبح يقاب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها"<sup>(٢)</sup> وقد أخذ الإفريقيون المهاجرون منذ البدء يحسون بأنهم متميزون عن السكان الأصليين ، وهذا هو ما عنته صبيحة أسد بن الفرات في جيشه حين قال يحمسهم : «هؤلاء عجم الساحل ، هؤلاء عبيدكم لا تهابوهم»<sup>(٣)</sup> . ومع الزمن أصبح هناك

(١) المقدمة : ٥٦٥ ط . بيروت .

(٢) ابن بسام : النخبة ٢/٤ : ١٧ - ١٨ .

(٣) رياض النفوس في المكتبة : ١٨٤ .

عنصران متباينان : عنصر صقلي وعنصر إفريقي وهذه التفرقة مبنية في الأصل على أساس عسكري ، ولكنها كانت تشمل نواحي أخرى من الحياة الاجتماعية . فالصقليون لم يكونوا أصحاب هذا الشعر وإنما كان أصحابه هم الأفريقيين من عرب وبربر .

وأكثر الشعراء إذا اعتبرنا نسبتهم ، ينتسبون إلى يمن ففيهم الكلابي والمعافري واللمخي والأنصاري والزبيدي والأزدى . وهناك شعراء من قبائل أخرى كالتغلبى والتميمي والسعدى والهاشمي والربعي ، وشعراء من بربر كاللواتي والقرقودي والمكلاقي و ماععات تنسب إلى مواطنها كالشامي ، وإفريقيون لا تعرف نسبتهم إلى عرب أو بربر كالطوبى نسبة إلى قصر الطوب بإفريقية والوداني نسبة إلى مدينة ودان .

وبعد أن تمّ شيء من الامتزاج بين الأجناس ، وشعر المهاجرون بأن صقلية هي وطنهم ، نشأ جيل من الناس ينتسب إليها ويشعر بالرابطّة العاطفية بينه وبينها وعندئذ يلتقينا شعراء ينتسبون إلى بلدان صقلية نفسها ، وأخذت النسبة القبلية تقلّ ، وتحلّ محلها النسبة البلدانية فهناك الطرابنشي والصقلي ( البلرمي ) والبثري والسرقوسي والبنوني والسمنطاري .

وفي بلرم ملتقى العناصر من نواحي العالم القديم كله ، نشأت أقوى حركة أدبية عرفتها الجزيرة ، ويبدو أن العناصر العربية - الإفريقية - هي التي تمت على يديها تلك النهضة ، لأننا إذا نظرنا إلى بلد آخر مثل جرجنت ، مجتمع الجماهير البربرية ، فإننا لا نسمع عن شعراء ينسبون إليها .

ولم تنصهر هذه الأجناس المختلفة بحيث تنسى عصبيايتها القبلية ، ولذلك مثل الشعر هذه الروح القبلية في بعض جوانبه ، وإن لم تكن الخصومات بين القبائل عنيفة مثلما كانت بالأندلس . وتتجلى هذه الروح في شعر أمراء بلرم من الكلبيين ، وتمتاز بترعة أرستقراطية ، تتسلل إلى موضوعات الفخر والغزل . فمن الفخر قول الأمير عمار بن المنصور الكلبي (١) :

(١) الترجمة ٣٧ ، ١٠٥٠ من مجموعة الشعر الصقلي .

تقولُ لقد رأيتُ رجالَ نجد      وما أبصرتُ مثلكَ من يمان  
ألفتَ وقائعَ الغمراتِ حتى      كأنك والوقائعِ توأمان  
وتفتحمُ الحروبَ رخيَّ بال      كأنك من ردّاها في أمان  
إلى كم ذا الهجوم على المنايا      وكم هذا التعرضُ للطعان  
فقات لها لكل الناسِ عذرٌ      ولا عذرٌ لكلي جبان

ومن أمثلة هذه الروح الأرستقراطية في الغزل قول الأمير مستخلص الدولة وهو من الكلبيين :

قلتُ يوماً لها وقد أخرجتني      قولةً ما قدرتُ أنفك عنها  
أشهى لو ملكتُ أمرك حتى      أمرَ الآن فيك قهراً وأنهى  
فبكت ثم أعرضتْ ثم قالت      خنتني في محبة لم أخنها

وليس في هذا الشعر الصقلي فخر بالأجناس عامة ، ليس فيه شعر يمجّد العرب أو البربر وإنما فيه اعتزاز بالقبيلة ، فالكلبي يفتخر بكلبيته ، وأنتمسى بأن قومه غالبوا قيصر وفتكوا بحمير<sup>(١)</sup> حتى الفقهاء يفتخرون بقبائلهم ، وهم أحق بالتخلي عن روح العصبية . من ذلك قول الفقيه عمر بن مازوز اللواتي يفتخر بقبيلته لواتة<sup>(٢)</sup> :

لمن تعزى المكارمُ والآيادي      وردّ الخيل ذاهبةً الهوادي  
سوى قومي الذين سمّتْ نفوسُ      بهم شرفاً إلى السبع الشداد

الحقيقة الثالثة : الفترة التي نما فيها الشعر الصقلي :

وتمتد هذه الفترة من ٢١٢ هـ إلى ٤٦٤ هـ وهي لبست طويلاً في حياة الإنتاج الفني والعلمي . وفيها ضروب من القلاقل الداخلية وفيها إلى ذلك جهاد طويل مرير . وقد يكون هذا النوع من الحياة مهيباً لنمو الشعر واكتماله ، ولكننا إذا

(١) الترجمة رقم ٢٠ من مجموعة الشعر .

(٢) الترجمة رقم ٩٣ والعيد المثنوي ١ : ٣٧٦ .

تذكرنا طبيعة الجماعات المهاجرة المستقرة ، وطبيعة الاتجاهات المدرسية فيها ، لا نعجب إذا لم نجد هذه الحياة غنية بالأدب الجميل . وقد كان من الضروري قيام شعور وطني يربط الناس بهذه الأرض التي عاشوا فيها ليساعد ذلك على اشتداد ساق الأدب ؛ وهذا لا يتم إلا بعد أن يولد جيل جديد على أرض صقلية ويحس بأنها هي ، لا إفريقية ، المكان الذي يقا تل عنه ويعيش من أجله ، فأما المهاجرون الأوائل فإنهم يرون في صقلية رباطاً كبيراً يشنون منه الغارة لحماية الحدود الإفريقية وإعلاء شأن الدين .

ولا نسمع شعراً صقلياً في مدة خمسة وثمانين عاماً طواها بنو الأغلب في فتح الجزيرة وحكمها . وهذا شيء مستغرب وإن كان تعليله سهلاً . وإذا وجد شعراء في هذه الفترة فإنهم إفريقيون يوجه عواطفهم معنى الغربة أولاً ، وطبيعة الجهاد ثانياً : أما الغربة فلا بد أنها بعثت في نفوسهم الحنين إلى مواطنهم الأولى ، وتمثل هذا الحنين في قصائد ورسائل شعرية بعثوا بها إلى أهلهم وأصدقائهم في الوطن ، وأما الجهاد فلا بد أنه أذكى روح الحماسة من ناحية وروح الحزن على من أسكلتهم الحرب من ناحية ثانية . ولا يمكننا القول بخلو صقلية من كل شعر ، فذلك مناف لطبيعة الأشياء في حياة الناس .

ولدينا من أمثلة هذا الشعر قصيدة لأسير أغلبي اسمه مجبر بن إبراهيم بن سفيان ، ومطلعها<sup>(١)</sup> :

ألا ليت شعري ما الذي فعل الدهر بإخواننا يا قيروان يا قصر

وهذا الشاعر يتأسى في قصيدته بأن الفرج إنما يجيء بعد الشدة ، أليس يوسف قد نجا من الحب ، وأيوب زال عنه الضر ، وإبراهيم خلص من النار ؟ إن الله قد نجى هؤلاء ، وهو قادر على أن يخلص أهل الأسر من ربة إسماعيل . وأقدم الشعر الصقلي الذي وصلنا يعود إلى العصر الكلبي ، وأول شعر نستطيع تأريخه وصلنا في أيام ولاية أبي القاسم الملقب بالشهيد ( ٣٥٩ - ٣٧٢ ) . ومن

( ١ ) الحلة السيرة في المكتبة : ٣٢٩ .

هذا التاريخ يبدأ استقلال صقلية السياسى ، وفيه يبدأ الشعر الصقلى حياته الصحيحة ، وقد كان أبو القاسم يعيش حياة مثالية إذ قضى عمره فى الجهاد بقلورية ( كالابريا ) وصدف نفسه عن متاع الدنيا فأوقف كل ما يملك على فقراء شعبه . وبحق لقب بالشهيد لما قتل فى غزاته الخامسة ، وكانت له فى نفوس أعدائه صورة مهيبة لرجل يزن كلامه ويحكم أجوبته <sup>(١)</sup> وربما كانت هذه السيرة الفاضلة ذات أثر فى استقلال الشعر بحدود صقلية وعدم انسياحه بالعواطف إلى ما وراءها . ومع ذلك فإن الشعر الذى وصلنا يتحدث عن صمصام الدولة ويشيد ببطولته وشجاعته ، ويكاد ينسى أبا القاسم إلا قليلاً .

وفى الطبقة الأولى من شعراء هذه الفترة على بن الحسن بن أبى سعيد القاضى ومهل بن مهران مادم أبى القاسم وهو يوصف بأنه من المطيلين المحسنين والمداح المجيدين <sup>(٢)</sup> وأبو إسحاق إبراهيم بن مالك المعافى القاضى .

فإذا بلغنا عهد الأمير يوسف ثقة الدولة وجدنا صقلية قد أصبحت حافلة بالشعراء من أهلها والطارئين عليها . فمن أهلها محمد بن أحمد أبو عبد الله الصقلى صاحب ديوان الإنشاء بصقلية ، وهو الذى رثى ثقة الدولة بقصيدة مطلعها <sup>(٣)</sup> :

حنانيك ما حى على الدهر يسلم

ومنهم الحسن بن محمد الطوبى الذى كان ملازماً لثقة الدولة <sup>(٤)</sup> ، ومحمد بن الحسين بن القرقودى <sup>(٥)</sup> والمشرى بن راشد <sup>(٦)</sup> .

وبعد ثقة الدولة نلتقى بتلك الأسماء الكثيرة ، وهى أسماء الشعراء الذين عاشوا

( ١ ) انظر موقفه من الراهب نيلو الذى بعث فى فكائه ثلاثة من الرهبان كانوا بيلرم ( أمارى

. ( ٣٧٥ : ٢ / ٢ ) .

( ٢ ) مختصر الدرة : ٩٩ .

( ٣ ) القفطى : المحدثون : ٢٠ .

( ٤ ) المختصر : ١٠٣ .

( ٥ ) الخريدة ١١ : ٣٩ وما بعدها .

( ٦ ) المصدر نفسه ، الورقة ٣٧ وما بعدها .

بين ٣٩٠ - ٤٦٠ وهم أكثر من ذكرهم ابن القطاع في الدرة الخطيرة : عندئذ نجد ثلاثة من أبناء الطوي واثنين من أبناء الرقباني وثلاثة من بني الشامى ، كما نجد ابن الصباغ والوداني وابن الحياط وابن مكى صاحب تثقيف اللسان وسليمان الصقلى وميمونا الوراق ومحمد بن قاسم بن زيد القاضى وابن الفقيه الكلاعى وابن الكمونى وأبا العرب الصقلى وابن حمديس وغيرهم كثيرين .

ويلتف الشعراء في آخر عهد الكلبيين حرل أعظم شخصيتين بصقلية وهما الوالى - وكان حينئذ صمصام الدولة - وصاحب الخمس وكان يومئذ إبراهيم بن محمد الشامى <sup>(١)</sup> ومن شعراء الصمصام : ابن الحياط وابن الرقباني والمشرى بن راشد . ومن مداح صاحب الخمس المذكور : ابن الصباغ والمشرى بن راشد والحلوانى . فإذا تمثلنا الشعر الصقلى نامياً في تلك الفترة التى حددناها ، وجدنا أن موعد إثماره إنما تم في نهاية القرن الرابع وأوائل الخامس ، وكان مما ساعد على ذلك ، الاستقلال السياسى والهدوء النسبى في حياة البلاد ، وتمثل صقلية للمؤثرات المشرقية ، والدراسات العلمية والفلسفية بعد أن ظلت عهداً طويلاً تعيش على الفقه والحديث . ومع هذا النمو نلمح شيئاً من يقظة أبنائها على الرابطة الوطنية . فقد اتضح مع تبلور الشعر الصقلى شعور الناس « بالجزيرة » وتعجس معناها في نفوسهم . ويكنى الشاعر أن يقول « رعى الله أكتاف الجزيرة » أو أن يمدح صاحب الخمس بقوله : شيخ القبيلة في الجزيرة <sup>(٢)</sup> ، فيفهم الناس ما يعنى ويتمثلون لهذه الجزيرة صورة واضحة في نفوسهم ؛ وإنما جاء ذلك الشعور من سيطرة الاستقلال والوحدة السياسية على نفوس الناس .

وبدأت الأثمار الأدبية تتكور على تلك الشجرة التى طال عليها الأجل حتى ترعرعت ، وقبل أن ينضج الثمر جاء الفتح النورمانى يسقطه ويبدده ؛ وفي لحظة من لحظات الفزع ، هرع الشعراء والعلماء يلوذون بأذيال الفرار ، ويفارقون الجزيرة كأنها لم تكن ذات يوم وطناً حبيباً .

(١) ورد اسمه في الذخيرة ١/٤ : ٢٢٤ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم وصوابه إبراهيم بن محمد .

(٢) الذخيرة ١/٤ : ٢٢٤ - ٢٢٨ .

الحقيقة الرابعة : الفتنة الأخيرة وأثرها في الشعر :

وأعني بها الفتنة التي أسقطت بني أبي الحسين الكلبيين ، وقسمت صقلية إلى دويلات صغيرة ، وجعلت في كل مدينة أميراً ، كما حدث في الأندلس بعد ذهاب العامريين ، وانقسام مدنها بين ملوك الطوائف ، وهي الفتنة التي جرت من بعد إلى الفتح النورمانى ، وإلى فقدان الجزيرة وضياع الوطن .

وأول شيء فعلته تلك الفتنة أنها مزقت الشعراء بعد أن كانوا يلتفون حول واحد ، فاختص ابن الخياط بابن التينة بمدحه ويشيد بانتصاراته ، وذهب محمد ابن قاسم بن زيد القاضي يمدح عليّ بن نعمة المعروف بابن الخوَّاس ، والتفت حول ابن منكود بمآزر جماعة من الشعراء الصقليين والطارئين وفيهم عبد الحلیم الصقلی وابن رشيق . ولما استدعى الصقليون المعز بن باديس ليدخل الجزيرة — كما استدعى الأندلسيون يوسف بن تاشفين — انحاز إلى المقذ الحديدي جماعة من الشعراء منهم ابن الفقيه الكلاعى .

وكان حرياً بهذا الانقسام أن يجعل الشعر خصباً كثيراً ، وأن يهيئ للإجادة بما يبعث من منافسة ، كما حدث في الأندلس أيضاً أيام ملوك الطوائف ولكن حال دون ذلك أسباب منها : قصر الفترة التي عاشتها صقلية تحت حكم أمراء الطوائف — أو القواد المستقلين — ولم يجد على صقلية في هذه الفترة شيء جديد ، فالشعراء هم الشعراء ، وكل ما حدث أن القواد توزعوا فيما بينهم .

وقد عملت الفتنة شيئين في آن : أسقطت البيت الكابى رحمتهم على مغادرة الجزيرة ، وجاءت بحكام جدد ، فقسمت الشعراء أيضاً فريقين : فريق ذهب ييكى بنى أبي الحسين ، ويعدد فضائلهم ، وفريق آخر يرحب بالمتقلدين وفي طليعته ابن الفقيه الكلاعى الذى رفع عقيرته يقول <sup>(١)</sup> :

الله أكبر أودى الجور وانقضت سحب النفاق وزال الحادث النكر

(١) الترجمة رقم ١٤٣ عن المحدثين ، الورقة ، ٢٠ .

وتلك الفتنة هي التي جعلت الشاعر ينف موقف الحكيم الذي يحس ، ببعده نظره ، ما تنطوي عليه من نتائج سيئة ، فهو يحذر منها ويدعو قومه إلى الائتلاف . وفي ذلك التحذير امتداد لما قلته عن تجسم الجزيرة بحدودها الجغرافية والسياسية في النفوس ، وفيه روح من الحرص على مستقبل تلك « الجزيرة » التي لها أبناء يحبونها ، لا مهاجرون يرون فيها مكاناً سخياً بالسمن والعسل . غير أن هذه الروح لم تلبث أن خفت حين أصبح الانقسام حقيقة واقعة وغلب على نفوس أصحابها حب البقاء ، فأثروا الانضمام إلى هذه الفئة أو تلك ، واستسلموا لحكم المقادير .

ثم كانت الفتنة سبباً في ضياع الوطن وزوال السيادة الإسلامية عنه ؛ فأى شيء أحدثه ذلك المصائب الكبير في نفوس الشعراء ؟ إننا إذا استثنينا تلك الدموع الصادقة التي ذرفها ابن حمديس على وطنه لم نجد لضياع ذلك الوطن أثراً عميقاً في النفوس الصقلية ، فلم يكن تجسد « الجزيرة » واضحاً مكتملاً ، هذا مع أن القيروان حين سقطت ، وجدت الشعر يخلد مأساتها ويحكى حالها بعاطفة صادقة ، أما حين سقطت صقلية فلم تجد إلا شاعرها الشاب ابن حمديس . ومن أهم العوامل التي أضعفت التجاوب بين الصقليين ونكبتهم في وطنهم نظرهم إلى المأساة عن طريق الاستسلام ، واعتقادهم أنه لم يصيبهم إلا ما كتب الله لهم ، وهذه نظرة تؤس الجازع ، فيستشعر قلة الجدوى في الحزن والبكاء ويحمل نفسه على الأخذ بفلسفة الصبر . وثمة عامل آخر لعله أقوى من سابقه وهو تعليل التوازل التي تحل بالناس على أساس الخطيئة ، فقد أخطأت صقلية فلتذق جزاء ما اقترفت من ذنوب ؛ وليس ما أصابها ، وخاصة في رأى المتدينين ، إلا عقاب من الله صبه عليها ، وهي له مستخقة . ولست أناقش قرب هذا الرأى أو بعده عن الحقيقة ، ولكن الجماعة إذا انتهت إلى هذا التلاوم في تحديد المسؤولية فقدت القدرة على أن تلمس طبيعة المأساة نفسها في فقد الوطن . وقد عبر أحد الفقهاء الصقليين عن هذا الاتجاه حين ربط بين نهاية صقلية ووجود أهلها للنعمة في قوله <sup>(١)</sup> :

(١) الترجمة رقم ١٤٧ من المجموعة .



(مدينة) كانت وكنا بها      في ظل عيش ناعم رطب  
مدّ عليها الأمن أستأاره      فسار ذكرها مع الركب  
لم يشكروا نعمة ما خولوا      فبدلوا الملح من العذب

ولو خفت صوت هذا التبرير ، لارتفع صوت العاطفة الحزينة على ضياع الوطن . والتبرير نوع من التعزى ، وهو في الوقت نفسه تهرب من مواجهة الألم ونبعه الحقيقي . أليس أبو العرب الصقلي قد فقد وطنه كما فقد ابن حمديس ؟ فكيف كان وقع الشتات في نفسه ؟ ذهب يفلسف ذلك التشرد على طريقة التصبر الكاذب ويقول :

إذا كان أصلى من تراب فكلها      بلادى وكل العالمين أقاربي

كل تراب بلد ، وكل العالمين أقارب — صلة ميتة ، لم ينفخ فيها التجاوب الشعوري شيئاً من روحه فيجعل منها وطناً .

ومن الطريف أن البارون فون شاك تنبه إلى أن أبا العرب راح يقول عند ما خرج من صقلية « إن وطنه فارقه » — لا أنه فارق وطنه ، وهو ملحظ مبنى على قول الشاعر :

ويا وطني إن بنت عنى فإننى      سأوطن أوكار العتاق النجائب

والشاعر لم يقصد إلى هذا الفهم « الحرفي » ، ولكن التعبير ذو دلالة صادقة على نفسية أبي العرب ، فهو بالهفوات اللسانية أشبه ، وإن كان صحيحاً مقبولاً . ثم إن سقوط صقلية لم يتخذ في نفوس الصقليين شكل المأساة بالفتح النورمانى ، لأن النورمان لم يلجئوا الناس إلى فراق دينهم أو إلى الهرب عن أوطانهم بل أبقوهم حيث هم ، واحتفظوا لهم بما كانوا يتمتعون به من حقوق ، ولذلك لم يشعر كثير منهم أن وطنهم ضاع ، كما شعر الأندلسيون . وهذه حقيقة هامة في فهم الرابطة بينهم وبين وطنهم ، إلا ابن حمديس فإنه بكى ضياع الوطن ، وبكى شبابه في ذلك الوطن لأنه شهد وقفة بلده أمام الغزاة ،

كما شهد استسلامه . وكان الذين استسلموا من الشعراء لهذا الحادث مشمولين بالروح الدينية أما ابن حمديس فكانت « الوطنية » في شعره أقوى من التدين . وإذا طلبت الأثر الديني في شعره الذى بكى فيه وطنه وجدته يسيراً . وليس في تلك القصائد شاعر يطلب الرحمة لقومه ، وإنما فيها صورة الوطن بكل ما فيه من جمال ورجولة وذكريات عذاب .

ومجمل القول أننا إذا استثنينا أشعار ابن حمديس العاطفية في البكاء على وطن ضاع ، وجدنا سائر الشعر المتصل بالفتنة والفتح النورمانى إما ينعى ذهاب مجد بنى أبى الحسين الكلبيين كما في أشعار ابن الحياط ، أو يلوم الصقليين على تماديهم في الفتنة ، كما في شعر أبى محمد القاسم بن عبد الله التميمي فلهذا الشاعر قصيدة من طوال الصقليات ، يؤرخ فيها حال صقلية أيام الفتنة ، واقتتال الصقليين فيما بينهم ، ثم كيف دخل الإفرنج الجزيرة وقتلوا أهلها وغلبوا عليها ، ومنها مصوراً حال الفتنة بعد مقدمة غزلية <sup>(١)</sup> :

سقى الله هيم الغرب لا بعض هامه	كما يمنع الغمض السليم المنادم
وما كنت أسقى الغرب لو كان لم تكن	صقلية منه - وإن لام لأثم
وإنى لمنهم واحد غير أنه	وشى بيننا واش من البين غاشم
رزينا بذات البين حتى كأننا	نرى أن من يبغى سوى البغى آثم
يغير الفتى منا على مال نفسه	ويقتله عدواً أخوه الملائم
يجور دليل القوم عن سبل رشده	وبعضى على المكروه من هو نادم
نروح ونغدو فى أمور لو أنه	رأى بعضها ما عاود النوم حالم
كأن بحاراً بالوغى وكأنما	معاركنا طول الزمان مسواسم
فطوراً نذود الموت عنا وتارة	نموت كما مات الحماة الأكارم
فلو كان سلماً ذلك الحرب بيننا	ثلاثين عاماً ضامناً منه ضائم

ثم يتطرق بعد ذلك إلى وصف هجوم الروم عليهم فيقول :

سليبي عن الإفرنج إن شئت واسمعي  
 أتونا ولكن بالدروع أساوراً  
 على كل مشكول الطريد كأنما  
 إذا ما علا منا على الظهر فارس  
 سماء وأرض من جناح وحافر  
 فلا دجن إلا أن تثور عجاجة  
 كأنهم قد أحجموا حين أقدموا  
 حديثاً كنشر الرّوض والروض ناعم  
 ولكن أتينا والسيوف عزائم  
 قوائمه عند الطراد قوادم  
 فليس بعيداً أن تطير القوائم  
 وليل وصبح جحفل وصوارم  
 ولا مزن إلا أن تخر جماجم  
 فعادت عليهم والأنوف رواغم

والشاعر في هذه القصيدة ناظر إلى المتنبي في قصيدته «على قدر أهل العزم تأتي العزائم». وحين ينتهي من الوصف لحال صقلية يملأ قصيدته بالحكم فمن ذلك قوله :

إذا كان لا ينجيك أنك هارب  
 وقد يجهل الإنسان في بعض حلمه  
 وما السيف إلا من غرارة هليبه  
 كأنك في دنياك ما زلت جاهلاً  
 فلا تتزود غير ما أنت واجد  
 فلم يبق حزم غير أنك هاجم  
 ويحمل عنك الظلم أنك ظالم  
 وإن رث منه غمدته المتقادم  
 إذا كنت لم ينفعك أنك عالم  
 إذا رحت يقظاناً كأنك نائم

## الفصل الثانى

### الشعر الصقلى بين القوة والضعف فى العصر الإسلامى

- ١ - الشعر الصقلى والمحاكاة
- ٢ - أثر المدرسة النقدية الإفريقية فيه
- ٣ - قصور الشعر عن تصوير القلق الداخلى بصقلية
- ٤ . الشعر الصقلى بين حياة الزهد وحياة اللهو
- ٥ - الحمر فى الشعر الصقلى
- ٦ - الغزل والغناء



## الشعر الصقلي بين القوة والضعف فى العصر الإسلامى

فى قصر الفترة التى عاشها الشعر بصقلية وفى طبيعة الأجناس التى أنشأته ، وفى ضعف الحدود الوطنية لقطر هو نقطة التقاء المهاجرين من جميع الجهات ، وفى روح الاستسلام التى واجه الشعراء بها ضياع الوطن ، وفى مجيء الفتح النورمانى الذى أفرغ الجزيرة من علمائها وشعرائها ، على أعقاب فتنة وانقسام داخلى - فى كل هذه الحقائق يمكننا أن نتلمس بسهولة جوانب الضعف لا جوانب القوة فى الشعر الصقليّ .

وما زاد فى التقليل من أصالة الشعر الصقليّ وصور التجديد فيه ، اعتماده المحاكاة فى جميع خطواته ، وخاصة محاكاة المشاركة ، والمدرسة الإفريقية فى القيروان . أما تأثره بالأندلس فكان أقل من تأثره بإفريقية والمشرق . وقد غذاه المشرق بالدراسات الإسلامية وخاصة فى الفقه واللغة ، فعمق روح المحافظة فيه ، فامتلاً الشعر بالروح المدرسية القائمة على وضع النصائح النظرية والإرشادات الحلقية ، وأصبح الشاعر يملأ شعره باستعارات النحو والفقه ، ويكثر من الألفاظ ومن التلاعب اللفظى بالأسماء . والأمثلة على هذا كثيرة ، وأنا أضرب عن إيرادها عامداً ، وقد تغلغل هذا الأثر فى شعر شاعر وافر الحظ من الأصالة كابن حمديس ، وصبغ بعض شعره بصبغة تعليمية ثقيلة . بل إن شدة الاتصال بإفريقية والمشرق حرمت صقلية من التطلع إلى الأندلس . صحيح إن الأندلس استمدت كثيراً من الشرق ولكنها استطاعت أن تتميز بالمشجحات والأزجال ، أما صقلية فما نعتز فيها على شىء من هذين الفنين . وقد استقلت الأندلس فى الناحية الغنائية ، وعجزت عن ذلك صقلية فكل أغانيها واردة من المشرق ، وللغناء أثره البعيد فى الشعر ، وعدم استقلال صقلية بأغانيها مكن لها فى المحاكاة ، ووسع لها

من مجالها . وقد حفظ لنا ابن مكي في تثقيف اللسان أمثلة مما كان يغنى <sup>(١)</sup> ،  
فمن ذلك قول قيس بن الخطيم :

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب      لعمرة وحشاً غير موقف راكب  
وقول الآخر :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى      أنيقاً وبستاناً من النور حالياً  
أجد لنا حسن المكان وطيه      منى فتمنينا فكنت الأمانيا

وقول ابن الرومي :

أضحى ينغصني النسيم نسيمه      أفلا يهينني النسيم نسيم  
وقول ذي الرمة :

أقامت بها حتى ذوى العود في الترى      وساق الثريا في ملأته الفجر

وغير ذلك من أبيات لسحيم وكثير وجريير وجميل .

أما التأثير بإفريقية فربما كان يفوق التأثير بالمشرق ، وفي إفريقية وضعت  
الأصول المشرقية وضعاً جديداً وتدارسها الناس ، فكان التأثير المشرقي أيضاً  
يتسرب إلى صقلية من خلال المدرسة الإفريقية التي أنشأها ابن رشيق وابن شرف  
في النقد . فعلى أساس من كتب المشاركة في النقد ظهر كتاب العمدة والآنموذج  
وقراضة الذهب لابن رشيق ، وأعلام الكلام وما أشبهها من الرسائل النقدية لابن  
شرف . وقد طمس هذان الناقدان جهود من سبقهما ولخصا آراء النقاد الإفريقيين  
أنفسهم . وأصبحت النظرية النقدية التي يمثلها العمدة مطمح كل شاعر من  
شعراء القيروان ، وكل شاعر أصبح يحاول أن يحدو حذو أبي تمام في الاستعارة ، أو  
يكون وصافاً للخمر كأبي نواس أو يدندن بموسيقى البحترى ، أو يمस्क بريشة ابن  
المعز في التصوير — ذلك هو مقياس الجودة في كل من القيروان وصقلية ومن  
أوضح الأمثلة على ذلك ابن رشيق نفسه وابن حمديس وهما أعظم شاعرين نشأ

(١) الباب الأربعون : « باب غلط أهل السماع » .

على طرفى البحر الذى يفصل بين إفريقية وصقلية . أما الأول فقد مهر فى استخلاص أجمل المعانى عند غيره وتشكيله بأشكال جديدة <sup>(١)</sup> وأما ابن حمديس فقد وصف أيضاً بأنه خفى الأخذ من غيره <sup>(٢)</sup> . فاللبنات الأولى فى بناء ابن رشيق وابن حمديس ، مجلوبة من المشرق . بل إن ابن حمديس ليس خفى الأخذ دائماً وإنما تظهر على السطح فى شعره معانى أبى نواس وتعبيراته وتراه يعارض امرأ القيس والمعرى وأبا تمام وينتفض على بعض الصور فى ديوان ذى الرمة ، وعلى بعض الصور الأندلسية ، ولا يتورع عن معارضة معاصريه .

وأمر صقلية أضيق صدرًا من القيروان لأن صقلية ترى فى القيروان منارة تهتدى بأضوائها . وقد رأينا كيف كان الشعراء ينظرون إلى ابن رشيق . ونحن لا نرى فيما بقى من أشعاره ما يقدم على متوسطى الشعراء المشاركة . وابن حمديس أبعد منه . حظا فى الشاعرية ، ومع ذلك فإنك تجد ابن حمديس الصقلى يتناول شعر ابن رشيق بالمعارضة أو التصرف .

ويستوى تأثير المدرسة الإفريقية فى صقلية والقيروان . فكثير من الشعراء فى القيروان كانوا يترفعون عن الهجاء إما تجنباً للذم أو ذهاباً مع الكبر <sup>(٣)</sup> ، وهذا ما نجده عند ابن حمديس أيضاً فإنه لم يكن يهجو ، وفى ديوانه عدة قصائد يفتخر فيها بتعاليه عن التورط فى الهجاء . وكان من مذهب الكتاب أن لا يمدحوا ، وهذا قد يعلل انعدام المدح فى شعر أبى عبد الله بن الطوبى وهو من أجل كتاب صقلية .

والمدرسة الإفريقية كانت تكره « المحلية » لأنها لا تكفل للشاعر سيورة شعره فى الأقطار الإسلامية " فليس من أتى باللفظ محصور يعرفه طائفة من الناس دون طائفة . . . كالذى لفظه سائر فى كل أرض ، معروف بكل مكان " <sup>(٤)</sup>

(١) ابن سناء المالك : فصوص الفصول : ٨٥ .

(٢) الخريدة : ١٢ الورقة ٢٧ وما بعدها .

(٣) العمدة ١ : ٧١ .

(٤) العمدة ١ : ٥٩ .



وتحت هذا المبدأ لا يمكن أن ينشط الزجل ، ولا يمكن للنقاد ومؤرخى الأدب أن يرعوه ويتعهدوه بالتسجيل ، إن وجد ، وإلى حد ما تمتاز الأنداس على إفريقية وصقلية في هذه الناحية .

ولتلك المدرسة كثير من الحسنات فن ذلك تفرقتها بين الذوق الحضري والبدوي ، وإقرارها بتأثير البيئة أو ما يسمى اختلاف المقامات والأزمنة والبلاد . ولكنها من ناحية أخرى خضعت خضوعاً تاماً للقواعد الكلاسيكية حتى في طريقة الخلق : كيف ننظم ؟ ومتى ننظم ؟ وماذا نأكل ونشرب ليعتدل المزاج ونصبح قادرين على النظم ؟ وكانت تغلو في تطبيق المبادئ المشرقية فإذا أقر المشرقيون تشبيه واحد بثلاثة زاد المغاربة على ذلك ، فوجدوا تشبيهه بأربعة أوقع وأحسن ، ولذلك فإنهم حينما وصلهم قول البحري <sup>(١)</sup> :

كأنما ييسم عن لؤلؤ منظم أو برد أو أقاح

جعلوه :

كأنما ييسم عن لؤلؤ أو فضة أو برد أو أقاح

وليست صورة الضعف في الشعر الصقلي محدودة بالتقليد لنماذج المشرق والقيروان ، بل تتمثل في نواح أخرى منه ، فنحن نفقد في ذلك الشعر صورة للصراع بين المذاهب الإسلامية ، مع العلم بأن صقلية خضعت أولاً للخلافة العباسية ثم للفاطمين ، وأنه كان فيها — إلى حد ما — ميلان متصارعان ، غير أن هذا الصراع ضعيف باهت فيما وصلنا من شعر .

والشعر كذلك قاصر عن تصوير ذلك القلق الداخلى الذى كان يتمثل في كثرة التقلب . فها هنا شعب يثور ثم يعود إلى الندم والبكاء ، ثم يهب ثائراً وهو لا يزال يبكى ويستعطف ، شعب عاطفى سريع الغضب يقوم في طلب حقه فإذا سمع كلمة ترضيه عاد إلى الهدوء وقنع بالقليل ، ثم شعر بالندم لقبوله ذلك القليل ، شعب قليل الصبر شديد الجزع كلما حزبه أمر فزع إلى نصير ،

ويؤمن بالرأى فى قوة ويندفع فى سبيل تحقيقه ، فإذا لم يقطف الثمرة بسرعة خلاه إلى غيره . ومنذ القديم وصفه شيشرون بأنه مطبوع على التذمر ، وليس الذنب ذنبه فقد عرف فى كل حكومة سيطرت عليه معنى السيد المسترق ، فهو يتلمس دائماً سيداً خيراً من سيده ليطمئن إلى حال خير من حاله . ولقد ذاق طعم العبودية فى ظل ناس ، فما عليه لو حاول أن يتخلص منها أو أن يتلمسها فى ظل آخرين أخف وطأة وتعسفاً . وحقيقة الأمر أن تقلب الحاكمين عليه جعله مستغلاً ليس له من الحياة إلا شرف الخدمة لإرضاء لحاكميه . فهو طيب إذا ملأ خزان سيده بالمال وعنابره بالقمح واسطبلاته بالخيول . فهل تخلق هذه الحال فى نفسيته إلا التذمر والإذعان للبادرة الأولى والثورة كلما واتت الفرصة ، والتعلق بالآمال القليلة والتغذى باليأس الكثير ، والحقد على السيد الجشع . وإذا كان قد عاش أيام الحكومة الإسلامية فى رخاء نسبي ، فقد كان هذا الرخاء مصدر قوة جديدة فى الخصام — لأنه وجد بعض حقوقه فلم لا يستكملها ؟ وقد تفتحت عيناه بصورة أكبر على ما حرمه فلم لا ينال ما حرم ؟ ومع كل ذلك الرخاء النسبي فقد ظل اليأس فى حياته أكبر من الأمل — كان يرى الزعامة فى يد جماعة غرباء عنه ، وفرض عليه أن يكون جندياً ، وهو يكره القتال ، وألقى فى روعه معنى الاستشهاد ، فلم يفهمه ، كان يطلب الحياة والراحة ويقاوم الجهد والفقر والفناء ، ويهرب من تلك الأشباح فيتعبد أو يسلك نفسه معلماً فى كتاب .

ولم يعبر الشعر عن شيء من هذا ، وإنما عبرت عنه الأحداث والثورات ، ولم يكن أسرع من الجماعة الصقلية إلى التعبير عن عدم الرضى بالعمل ، ولا أسرع منها إلى ارتجال الموقف الملائم وارتداء الثوب المعد تمهيداً لانتهاز الفرصة . فلم يعمق فى نفسها الحزن لأنها لم تكن تتجرع مرارة الكبت الطويل ، ولا كانت تستسلم إلى شيء من الفكاهة لتروح به عن نفسها المتألمة ، وكانت إلى ذلك كله تنفر من الغرباء لأنها ترى فيهم نوعاً من « المستغلين » ولا تحب من الطراء إلا من يسرع الرحيل . فهي تحب الغرباء العابرين وتكره أولئك الذين يأتون أفواجا إلى الجزيرة ليزاحموها فى رزقها ، وقصر الشعر أيضاً فى التعبير عن هذا الصراع

الاقتصادى ، واكتفى الرحالون الذين صدمتهم هذه المشاعر بأن يصفوا صقلية بالجفاء — وهو جفاء ينعدم فيه لطف أهل المدن وملقهم اللسانى ، وتبرز من خلاله صورة للطبيعة الريفية الساذجة التى لا تستطيع أن توارب كثيراً من عواطفها ، وهو جفاء نحسه فى الشعر نفسه فإنه قل أن يجيء ملطفاً بشيء من رقة الحضارة التى تطالعتنا فى الشعر الأندلسى .

أوضح الصور فى الشعر الصقلى وأقواها صورتان تمثلان جانبي الصراع فى حياة المدينة ، وهذه ميزة عامة فى الشعر العربى منذ مطلع العصر العباسى ، فقد انقسمت الحياة بين اليمين واليسار ، بين آخذين بأسباب الدين والزهد والتقوى يدعون الناس إلى التحلى عن الدنيا ولذاتها ويخوفونهم العذاب ، وبين آخذين بأسباب من الحياة المستهتر المأجنة ، يرون فى إشباع النفس من لذة الخمر والحب وغيرها ، خير ما يسعى إليه الإنسان . وانقاد الشعر لهؤلاء وهؤلاء ، ولكن رعاة التقوى والزهد هزموا فى ميدان الحياة ، لأن الفن صورة للحياة لا دعوة للآخرة . وكلا الاتجاهين يدلنا على أثر المدينة — لا أثر الطبيعة والريف — فى حياة الشعر العربى على مرّ العصور .

وبالاتجاه الأول يحسّ المرء بفساد المجتمع فينطوى على نفسه ، ويتعد عن الناس لاعتقاده أنهم آفات ، وأن الشرّ بينهم « خضرم يزخر » ، أما الخير فهو « ثمد آسن » ، وينصح بالعزلة ولزوم البيت والاكتفاء بالقليل ، ويعلن عن يأسه من الصلاح ومن كل ما يصله بالحياة الدنيا ، من ذلك قول ابن الطوى<sup>(١)</sup> :

لو قيل لى أى شىء تهوى لقلتُ خلاصى  
الناس طراً أفاعٍ فلات حين مناص  
نسوا الشريعة حتى تغامزوا بالمعاصى  
فشرهم فى ازدياد وخيرهم فى انتقاص

وقد يزداد التعقد فى هذا الاتجاه حتى يلحق بالرهبة ، وتشيع فيه الدعوة إلى

(١) الترجمة رقم ١٥ فى مجموعة الشعر .

العزوبة ، كقول ابن مكي :

من كان منفرداً في ذا الزمان فقد نجا من الدل والأحزان والقلق  
ترويحنا كركوب البحر ثم إذا صرنا إلى ولد ، صرنا إلى الغرق

وتصطبغ هذه الدعوة الزاهدة - عادة - بالاتكالية وذم المال ، وفي التخذيل  
عن الكد المضنى في سبيل الرزق ، من ذلك قول أحدهم <sup>(١)</sup> :

يا حريصاً قطع الأيام في بؤس عيش وعناء وتعب  
ليس يعدوك من الرزق الذي قسم الله فأجمل في الطلب

أو كقول الآخر ، وغالى في تهجين السعى جملة <sup>(٢)</sup> :

لا تخشَ في بلدة ضياعاً حيثُ حياةٌ فثمَّ رزقُ  
قد قسمَ الله للبرايا رزقهمُ فالعناء حمقُ

وغنى صقلية بهذا الشعر نوع من الفقر الفنى في رأى ، فإ نطن أن هذا  
الشعر إلا صورة لروح الوعظ والتذكير ، وإلا تعبيراً عن تلك المدارس الفقهية  
التي كانت توجه حياة صقلية الثقافية . ذلك لأن هذا النوع من الشعر لا يلمح  
إلا الجوانب السلبية من الحياة ، وأعلى درجة من هذا الأدب الوعظى قول ابن  
الطوبى في تصوير روح التقوى <sup>(٣)</sup> :

يحب بنو آدم ربهم ولكنهم بعدُ يعصونه  
وإبليسُ قد أشربوا بغضه وهم بعد ذلك يطيعونه  
فهذا التنافى فما بالهم يرون الضلال ويأتونه ؟

وقد تقلبت الحياة بابن الطوبى ، وتركته ينال من أطايبها ، ويصيب من  
لذائدها ومتعها ، وبعد فترة قضائها في الحياة السياسية خلق له أعداء ومبغضين

(١) الترجمة رقم ٤٦ من مجموعة الشعر .

(٢) الترجمة رقم ٤٩ .

(٣) الترجمة رقم ١٥ .

ثم تغيرت الحكومة فسقط في السياسة ، فتوفر لديه شعور حاد بفساد المجتمع رعى به في أحضان الدين من جديد . ولكنه من أشد الشعراء الصقليين نقداً لبعض المظاهر الكاذبة في مجتمعه ، ونسمعه ينتقد التصوف بقوله (١) :

ليس التصوف لبسَ الصوف ترقعه      ولا بكاؤك إن غسّتي المغنونا  
ولا صياحٌ ولا رقصٌ ولا طربٌ      ولا تغاش كأنّ قد صرت مجنونا  
بل التصوف أن تصفو بلا كدر      وتتبع الحق والقرآن والدينا  
وأن تُرى خائفاً لله ذا ندم      على ذنوبك طول الدهر محزوناً .

أما الصورة الثانية فهي الإقبال على الحياة في نهم وظمأ ، والعب من كؤوس لذائذها ، ومع أن أهل الذمة لم يشاركوا كثيراً في إنتاج الشعر الصقلي فلمهم كانوا موضوعاً له . فأولئك الذميون هم أصحاب الدساكر والحانات ، وفي أدبهم خمر معتقة ، وفي غلمانهم وجواربهم ضروب من الفن ، وأطاف الشعر بهذه الموضوعات ، فكان وصف الخمر والغزل بالغلمان والجواري ، ووصف الراقصات ومجالس الشرب عديل تلك الأشعار التي قيلت في الزهد والقناعة والتوبة .

والخمر تشتري من الباعة في الحانات ومن الأديرة ، وعند ابن حمديس أن الراهبة في الدير هي التي تباع الخمر ، والساق في الشعر الصقلي غلام جميل ، إلا عند ابن حمديس فهو ساقية جميلة رخيمة اللفظ ساحرة المقلتين .

وكل هم الشاعر في الوصف هو الخمر نفسها . فلا يلتفت كثيراً إلى بائع الخمر نفسه ، ولا يصف رحلته إليه ، إلا في مثال واحد إذ نجد ابن الخياط الصقلي قد تحدث عن البائع ووصفه باللطف والحدق في إغراء الحالين بساحته على الشرب ، في قوله :

هذا وأشمط رب دسكرة      رحب الفناء لكل من أمّا  
مستزل جلباب زائره      ببشاشة تستزل العصما  
ضقنا به ذرعاً فهب لنا      يزجاجة خلنا بها نهما

وأكثر أوصاف الخمر تدور حول معان تتردد في غير صقلية كالقول بقدم الخمر ، والتلاعب بفكرة أنها عجوز فتية ، ثم تصوير الضحك والبكاء واتصالهما بمزج الخمر ، والحديث عن طلبها لثأر قديم ، والتغنى بقوة رائحتها وسطوعها ، وتهمنا من كبل الأوصاف التي تدور حول الخمر ثلاثة :

( أ ) فكرة اجتماع العنصرين : الماء والنار ، في مكان واحد .

( ب ) صورة الحباب فوق الكأس كالشبكة ، ويزيد ابن حمديس في هذه الصورة أن الماء الذي يصب على الخمر كالغائص في البحر يستخرج الدر الذي يرتفع على السطح .

( ج ) وصف الخمر بالفتك والقدرة على قتل الهموم واستمداد صور من القتال في التصوير كالتعبير بغارة الخمر على الهموم .

فتكرير هذه الصور الثلاث في الشعر الصقلي يجعلنا نقف عندها ، فيما بعد ؛ لنقرنها بجو صقلية وطبيعتها البحرية والحريرية ، حين يكون الحديث عن خصائص الشعر الصقلي .

أما الاهتمام كثيراً برائحة الخمر وأنها هي التي تهدي إليها السبيل ، فهو كثير جداً في شعر ابن حمديس ، حتى لا تخلو منه أى قصيدة يصف بها الخمر . ولابن حمديس في العطر والرائحة الذكية مذهب ينتظم كل شعره أو أكثره ، فكل ما يستهويه في الروضة أن تسطع رائحتها ، وفي الصبا أن تكون مسكاً ، ولا بد أن يكون النسيم ذا عبير ، والوطن يعرف بالرائحة الشذية ، ولا تعجبه الباقية التي لا رائحة لها فيهبجوها <sup>(١)</sup> مع أنه حرم على نفسه الهجاء ، ولا بد لهذه الظاهرة من صلة خاصة بحياته وذكرياته ونفسيته .

وابن حمديس هو شاعر الخمر ، وهو الفن الذي نشأ عليه في صقلية مع شيء من الفخر والغزل وكثيراً ما تكون قصيدته من أولها آلى آخرها في الخمر ومجالس الشراب <sup>(٢)</sup> والتغزل بمحاسنها ، مقدمة لقصائده بدلا من التغزل بجمال

( ١ ) انظر القطعة رقم ٢٠ في الديوان .

( ٢ ) انظر مثلاً القصيدة رقم ٥١ في الديوان .

المرأة . وفي كل مرة تستطيع أن تعدّ عنده نوعاً محدودة لها ولكنه يتلاعب في أدائها  
بمهارة تبلغ أحياناً درجة الجدة كقوله (١) :

ما درى خمارها عاصرها	فحديثُ الصدق فيها كالكذبُ
دفنوا اللذة فيها حيةً	وأنى الدهر عليها وذَهَبُ
ظنه كنزاً فلما انتسبت	منه للأنف درّى ذاك النسب
قلتُ إذ أبرزها في قعبه	أهَى بنتُ الكرم أم أمُ الحقبُ
قتلتني وهي بي مقتولةٌ	صَوَّلَةُ الميت على الحى عجب
كيف لا تصرّعنى صَوْلَةُ	وهي منى في عروق وعصبُ

فإذا أنت تناولت الأفكار عامة وجدتها مألوفة تتحدث عن القدم وحلول  
اللذة في الخمر وقوة الفتك فيها ، ولكن التعبير عن هذه الأفكار هو الذى أكسبها  
جمالاً جديداً فجعل لكل بيت موقعاً منفرداً ، وبخاصة فكرة اللذة الحالة في  
جسم الخمر ، ثم ذلك التعبير بالانتساب للأنف ، والتلاعب المثير بين البوة والأومة  
وبين كون الخمر قاتلة مقتولة تسرب في العروق والأعصاب . ثم تتصفح الديوان  
فترى في كل صفحة يتحدث فيها عن الخمر تكراراً لمعانى القدم وتأثير الخمر ،  
وجمال رائحتها حتى ليصدق فيه ما قيل في هجل : « حينما فتحت كتابه وجدته  
يقول الشيء عينه » ومع ذلك فإنه قادر على أن يضع الفكرة الواحدة دائماً  
في ثوب جديد . ومكرة القدم التى عبر عنها في الأبيات السابقة بمجهل الخمار  
العاصر ، وبأن الخمر أم الحقب يعبر عنها في أبيات أخرى بقوله (٢) :

ومدام قدمتُ فهي إذا	سئلتُ تخبرُ عن عاد لرم
سكنتُ أجوفَ في جوفِ الثرى	نسجَ الدهر عليه ورَقَمُ
خالفتُ أفعالها أعمارها	فأنت قوتها بعد القدم
فهي في الراوق إن رَوَّقها	لهبُ جار وماءٌ يضطرمُ
أفنت الاحقابُ منها جوهراً	ما خلا الجزء الذى لا ينقسم

(١) القصيدة رقم ٣٣ .

(٢) القصيدة رقم ٢٨٥ .

ويظل ابن حمديس يقلب هذه الصفة وغيرها في سائر قصائده ، يسهب فيها هنا ويقتضبها هناك ، وإذا اعتبرنا الشكل وحده — ومن حقنا أن نعتبره — وجدنا ابن حمديس في الخمر مجدداً بقدر .

وتقرأ شعره في الخمر — وقد ظلت الخمر موضوعه المحبوب حتى أواخر أيامه — فتحس أنه يعتنق فكرة التقديس لها خالصة من أجلها ، لولا أنه ينزل أحياناً بهذه الفكرة السامية ويصرح لنا أنه يحب الخمر لأنها تذهب الهموم . والظن قوى بأن ابن حمديس نشأ على تقديس الخمر — مبدأ اعتنقه وهو في صقلية ، وآمن باللذة غاية يسعى إليها ، ولكن الذي نزل بهذه الفلسفة عن درجتها القصوى شيئاً أولهما : أن ابن حمديس لم يتخلص — وهو يعاقر الخمر — من النظر إلى أنه يعاقر محرماً وهو يجادل نفسه في الواقع حين يقول :

يا لائمي في الخمر كم سيئة تجاوزَ الرحمنُ عنها وصَفَحْ

فهو اللائم وهو الملووم وهو الذي يضعف أمام تلك القداسة ، لأنه يتلقى لوماً آخر من أهله ينبه فيه شعوره بأنه يقترف إثمًا ، ثم قوى به الشعور حين كبرت سنه . أما العامل الثاني : فهو ضياع صقلية نفسها ، فإن كان قد طلب فيها الخمر للذة ، فإن طبيعة حياته بعد ضياع وطنه قد تغيرت ، ولا بد أن يطلبها لينسى آلامه وأحزانه ، وهذا أول أثر أحدثه ضياع وطنه في صميم فنه الشعري ، إذ قلب نظرتة إلى اللذة وكان من ذلك أثره في نواح أخرى .

أما الغزل في شعر الصقليين فهو وجد مبهم وشخصية المرأة فيه غير متحققة ، وليس هناك إلا أسماء تقليدية تتردد في الغزل كسلمى وسعاد وجمل وبثينة ، والثلاثة الأول تتردد في شعر ابن حمديس ، ونسمع عن شاعر يتغزل بجارية اسمها رونق وعلى العكس من ذلك الغزل بالمذكر ، فالأسماء التي تتردد فيه كثيرة ولها صلة بالحياة الاجتماعية . وينفرد ابن الطوبى بالغزل في الحسنات السود ، وتفضيّلهن على البيض ، لأن سواد العين أجمل من بياضها وأهم موقعاً . وفي الغزل بالغلّمان أسماء مسيحية وإسلامية ، وفي الأسماء الأولى صورة لأثر البيئة المسيحية ، يضاف إلى أثر الأدب والحانات ، والتغنى بذكر الصليب والزّنار والعذار ، والشوق إلى



لقاء الجحيم ، إن كان المحبوب من أهل النار ، ويمتد هذا النوع من الغزل إلى  
بيئات كثيرة فتجده عند الفقهاء . وفي هذه البيئة نشأت قصص من التضحية  
بالنفس في هذا النوع من الحب . ودارس هذه الناحية في الأدب لا يستطيع أن  
يغفل سيطرتها في هذا العصر بالذات على الحياة الإفريقية . وغلبتها على ابن رشيق  
وكثير من شعراء الأندلس .

أما الجوّ العام في جمال المرأة فلا يختلف عما هو في سائر الشعر العربي ،  
ولكن الشعر لا يهتم بوصف المرأة بمقدار ما يحتوى من الشكوى والدموع والتذلل  
وذكر الوجد والعذاب والسرير . وأضعف ما يكون الشاعر حين يحاول أن يجرى  
حواراً بينه وبين محبوبته ، فإنه يركب الإحالة البعيدة عن الحياة الواقعية ويتخيل  
القصة تخيلاً ، ويجرى فيها حواراً مصنوعاً متكلفاً ، ومع ذلك فلا يخلو هذا  
الشعر من لفتات في الحوار فيها جمال الواقعية كقول ابن حمديس (١) :

قالتْ وقد عانقها صحراً لم زُرْتْنَا في آخر الليل  
فأجبتها وغمرتها قبلاً هذا أوانُ إغارة الخيل

ولست أستطيع أن أكمم إعجابي بهذا الحوار القصير لأنه يمثل روح الفروسية  
التي نشأ عليها ابن حمديس بصقلية ، وهذه الأبيات وأبيات فيها قوة الحب -  
رويتها من قبل - ترفع عن الشعر الصقلي صفة التذلل المطلق في الحب . على أن  
من العجب أن يكون هذان البيتان لابن حمديس من قصيدة مطلعها :

ويلي على مملوكة ملكك رقي بحسن حديثها ويلى

فهذه الصبيحة المخبثة ، وتلك العبودية يجعلهما الشاعر مقدمة لتلك الفروسية  
العجيبة ، ولكن لا عجب فالفارسي كان يقدس المرأة أكثر من كل مقدس .  
وأخف من هذا الحوار قوة ولكنه حوار جميل أيضاً قول ابن حمديس (٢) :

(١) القصيدة رقم ٢٤٣ .

(٢) القصيدة رقم ٢٢٢ .

فَاوَصَّتْ فِي الْوَصْلِ عَيْنِي عَيْنَهَا      فَازْدَهَتْ عَجَباً وَقَالَتْ مَا لَدَيْكَ؟  
 أَهْلِيلُ أَنْتَ؟ مَاذَا تَشْهَى؟      قُلْتَ قَطْفِي بِيَدِي رِمَانِيكَ  
 فَاثْنَنْتَ كِبَرًا وَقَالَتْ: وَيَلْتَا      أَوْ هَذَا كُلُّهُ تَطْلُبُ وَبِكَ  
 أَنَا شَمْسٌ وَبَعِيدٌ فَلَكِي      وَضِيَائِي نَافِرٌ مِنْ رَاحَتِيكَ  
 لَوْ بَدَأَ أَمْرُكَ لِي مِنْ قَبْلِ ذَا      مَا رَأَتْ نَاطِرُكَ نَاطِرَتِيكَ

فأنا أجد جمالاً في هذه الشمس ذات الضياء النافر من الراحتين ، وفي القطعة عامة من حيث أنها صورة حية قريبة من الواقع .

ويمثل ابن أبي البشر أجمل ما في الغزل الصقلي من حيث الرقة في الشكوى والتوجع من الحب والسمير لبعده الحبيب والخوف من هجره ، ولكنه لا يتعدى في شعره ولقفة الشاعر الذي يتكلم في فضاء ، إذ قد لا يصور هذا الشعر كله حبا صريحاً أو ألماً ، أما غلبة الرقة في شعره فستمدة من حساسية فردية تعد نوعاً من التصعيد لقوة الشهوانية التي تغلبه أحياناً على أمره ، وتكسر قيود الكف والمنع ، فتتمثل في حديثه الكثير عن الفتك والحسارة كقوله (١) :

لَوْ تَجَاسَرْتُ عَلَى الْفَتْكِ بِهِ      لَمْ أَعُدْ أَقْرَعُ سَنَى نَدَمًا  
 أَيْ شَيْءٌ ضَرَّنِي لَوْ أَنْتَنِي      كُنْتُ فِي الْحُلِّ طَرَقْتُ الْحَرَمًا  
 أَنَا عِنْدِي مِنْ شَيْءٍ غُلَّتْهُ      مِنْ حَبِيبٍ مُسْعِدٍ مَا أُنَمَّا

وأمثلة هذا كثيرة أكتفي بالإشارة العابرة إليها .

وتتخذ صورة الوصل والهجر في شعره دائماً صورة الحياة والموت ، وإذا رق الحديث عن الفتك عنده كان اهتزازات شهوانية فيها صورة العزم المغلوب وهذا يتضح في قوله :

وَلَمْ أُنَلْ سِوَا سَوَى أَنْنِي      أَدْنِيَّتُهُ مِنِّي وَقَبِلْتُ فَاهُ  
 وَذُدْتُ عَنْهُ كَبْدًا شَارَفْتُ      وَرَدًّا فَحَفْتُ كَحْفِيفِ الْقَطَاهُ

(١) الترجمة رقم ٢ من مجموعة الشعر .

والرقة إجمالاً غالباً على شعره وأحياناً تنتقب بغشاء عاطفي رقيق أيضاً .

وفي الشعر الصقلي صورة حية لمجتمع يستمتع بالرقص والموسيقى والغناء وللراقص وجود كما للراقصة ، وأكثر الرقص مصحوب بالأنغام ، ولذلك تذكر الراقصة في الشعر الصقلي بحذقها التوقيع بقدميها ، حتى تجد عندهم هذا التعبير « رجلاه مزمار وعود . . » وتمدح الراقصة بالخفة ، ويتغنون بالتعبير عن خفتها ، فهي لو جالت بخطوها في عيسى ذى رمد لم يشتك الوصب ، وفي ديوان ابن حمديس صورة مستوفاة للراقصة التي أرسلت شعرها طويلاً متموجاً ، ولبست ثياباً ملونة تجرر ذيولها ، وهي توافق النغمات بقدميها ، وتبوء إلى كل عضو بما يحل فيه من أثر الحب ، فإن ذكرت دمعاً أشارت إلى العين ، وإن وصفت وجداً أشارت إلى القلب ، وهي مع ذلك تعبر عن تدلل المحبوب وتدلل المحب بما يليق بها من الإشارات الحسنة والحركات المنبهة على ما أرادت<sup>(١)</sup> . ولكن لا أجزم بأن هذا النوع من الرقص كان موجوداً بصقلية ، والخبر في الديوان لا يبين هل هو رقص أندلسي أو صقلي ، فإن كان صقلياً فهو قد انتقل منها إلى الأندلس ، وعرفه الأندلسيون ، وليس هناك ما يمنع أن يكون مشتركاً بين البلدين ، ولا أدري مبلغ ما يمكن أن يتمتع به من قيمة فنية حين يكون مصحوباً بالتمثيل ، والخبر نفسه يدل على أن الراقصة كانت تغنى أيضاً ، ومعنى ذلك أن من حولها من الجوارى كن جوقاً يحرك الأنغام ويردد بعض المقاطع ، وكانت الراقصة تحمل أحياناً طاراً تنقر عليه ، ومن حولها المغنيات الملحنات مقنعات بالعقيق ، يحملن الآلات الموسيقية التي منها العود والمزمار وقد صففت الشموع في نواحي المجلس .

ويستدل بما قاله ابن مكي في نقد المغنين أنهم لم يكونوا يحرصون إلا على أداء النغم ، أما النص فكانوا يحرفونه تحريفاً بعيداً في بعض الأحيان . وكان مجتمع إلى هذه الإساءة في حق المعنى إساءة أخرى آتية من قبح الأداء ولذلك كثر في

(١) القصيدة رقم ٨٤ في الديوان .

الشعر الصقلي ذم المغنين - وخاصة المغنى لا المغنية - واشتهر ابن الطوبى بالإكثار من ذلك الذم .

ولا شك في أن بعض الشعر الصقلي كان ينظم للغناء ، ويقول ابن حمديس في مغنية ، وهو يتحدث عن نفسه (١) .

تتغنى بنسب قلته فهوها راجع منك إليك

وبعض أشعار ابن حمديس ربما لم تصنع إلا للتغنى بها مثل قوله (٢) :

أما ومُرسل وحفٍ يُغرى بتقبيل كعبك  
ووجنة غمسها في الورد صنعة ربك  
لقد جنحت لسلمي كما جنحت لحربك

أو قوله أيضاً (٣) :

ملنى من لا أمله وأذاب القلب دله  
رشاً ينفّر خوفاً كلما ماشاه ظله  
يا عليل الطرف جسمى نظرة منك تعله  
نيط في خصر كبدف عجبى كيف ثقلاه  
يا غزالاً حرّم الا هدى وهو يحله  
إنما الحسن محل لك أو أنت محله  
بعضه في أوجه الذئب اس وفى وجهك كله

فإن أمثال هذه القطع المتفرقة في ديوانه ربما كانت من صقلية أيضاً، وهو احتمال ليس هناك ما يدل عليه بوضوح .

وابن حمديس إذا وصف المغنى اهتم كثيراً بوصف آلات الطرب لا كما

(١) الديوان رقم ٢٢٢ .

(٢) الديوان رقم ١٩ .

(٣) الديوان رقم ٢٤٥ .

هي حاله في الحمر فهاينه نالك قلما يقبل على وصف أدواتها . وفي هذه الأوصاف  
تندفق صور الحياة الحربية وتتغلغل هنالك كما هي في نواحي شعره الأخرى ، ومثال  
ذلك قوله في ضارب العود <sup>(١)</sup> :

يعدّ كفأ إليه ضاربةً      أعناقَ أحزاننا إذا ضربتهُ

### الفصل الثالث

ابن الخياط

شاعر صقلية فى العصر الإسلامى

١ - ابن الخياط بين شعراء صقلية

٢ - ممدوحوه

٣ - ابن الخياط وحياة الحرب والفتن أيام الكليبيين

٤ - وقفته من مشكلة الغيب والغد

٥ - الطبيعة الريفية فى شعره

٦ - البيئة المدنية فى شعره

٧ - صنعة الشعرية



## ابن الخياط بين شعراء صقلية

نستطيع أن نقدم من شعراء صقلية في هذا العصر ستة من الشعراء هم ابن أبي البشر وأبو عبد الله بن الطوبى وعبد الحلیم الصقلی وابن حمديس وأبو العرب الصقلی وابن الخياط الربعی .

وفي هؤلاء من لا يمثل صقلية تمثيلاً تاماً لأن الفترة التي قضوها فيها لم تكن طويلة ، فعاشوا البقية الباقية من أعمارهم في خارجها ، ولا بسوا أنواعاً أخرى من الحياة والجماعات ، واستمدوا من هنا وهناك ، وإن كانت النواة الأولى في تكوينهم الأدبي صقلية . وعبد الحلیم من بينهم ليس بصقلی والصواب أن يعد في شعراء العصر النورمانی ، لأن صلته بصقلية تمت في أواخر العصر العربي ، ولم تصلنا إلا مختارات قليلة من شعره لعبت الأيدي بنسبتها فليس من الممكن أن نجزم قطعاً بأنها لعبد الحلیم . وليس يتبقى ممن يمثلون صقلية إلا اثنان هما أبو عبد الله بن الطوبى وابن الخياط . فأما ابن الطوبى فكان كاتب الإنشاء ، والنثر عليه أغلب والنحو والطب من أدواته ، والموجود من شعره يصور اتجاهين : مشاركة في الحياة وإقبال على لذاتها وهو في هذا القسم يتغزل بالغلمان ويفتن بالعذار ويصف الرافصات ولا يغيب عن مجالس الغناء ، ويخاصم الناس فيهبو البخیل والدميم وذا اللحية الطويلة ، وينفر من الشيب ؛ والاتجاه الثاني عزوف عن الحياة ، وسأم من الناس ، وثورة على مخالفتهم الشريعة ونقد للمتصوفة ، وهو في كل ذلك يقتصر على البيتين والمقطوعة . فالشعر في يديه خواطر عابرة أو ألھية يتسلى بها ، ولا يعتمدھا ، فليست في شعره مكانية واضحة ، ولا حياة سياسية معينة ، وإنما هو سريع الممح للمعانى دائم الرصد لها ، فإذا استوفى المعنى في بيتين أو ثلاثة فذلك حسبه . يجب الإيجاز ويدير المقطوعة على نكتة أو لحة كقوله يلمز لإنساناً في عرضه :



صبرت على سوء أخلاقه      زماناً أقدر أن يصلحها  
فلما تزوج قاطعته      لأنى تخوفت أن ينطحا

أو قوله يهجو إنساناً كبير اللحية :

لحية حمدون دثار له      تكنه من شدة السبرد  
كأنه إذ غاب في وسطها      قطيفة لفت على ترد

وإذا كنت أنحى كل هؤلاء فعنى ذلك أننى أستبق ابن الخياط حين أحاول أن أعرف بالشاعر بين تلك الشخص العديدة التى استمدت حياتها من هواء صقلية ومائها . ولست أتكلم فى هذا الفصل عن مدى تمثيل هذا الشاعر لصقلية فقد كان هذا يستوجب منى أن أضع مميزات صقلية معينة ، أتولاها بالعرض والتوضيح قبل أن أتحدث عن هذا الشاعر ، وإنما أقصد إلى أن أعرف إلى شاعر صقلى لم يكن شاعراً كاتباً أو شاعراً لغوياً أو شاعراً طبيياً ، وإنما هو شاعر وحسب ، يحيا عمره معتمداً على تلك الملكة الشعرية ، فالشعر هو كل ما يميزه يومئذ فى الحياة ، وحياته تمضى على الأكثر فى صقلية نفسها وتتجاوب مع مجتمعتها وطبيعتها وأحداثها .

وليس هناك ما يميز هذا الشاعر عن غيره فى ما نعرف من أحداث حياته ، وليس فى المصادر عناية خاصة به ، وإذا كنا لا نقرأ شاعراً إلا حين نعرف تفاصيل حياته ، وإذا كنا لا نفهمه إلا بعد التمعن فى تلك التفاصيل ، فابن الخياط أبعد من أن نقرأه أو نفهمه لأننا نكاد نجهل كل شيء عن الظروف التى أحاطت به ، وما كتبه عنه غير متأثر إلا بقدر ضئيل من واقع حياته .

والفضل فى تعرفنا إلى شاعر صقلى واضح السمات يرجع إلى التجيبي صاحب شرح المختار من شعر بشار <sup>(١)</sup> فقد كان للتجيبي صلة بكثير من شعراء صقلية وأدبائها فى عصر نهضتها الأدبية ، وكان صديقاً لابن الخياط فهو فى الكتاب

(١) انظر فى الأسماء الواردة بهذا الفصل الترجمة رقم ٩٨ و ١٢٨ و ١٣٩ من مجموعة الشعر

المذكور يستشهد بشعره كلما استدعت المناسبة ذلك .

أما موطن هذا اللقاء بين الصديقين فهو صقلية نفسها — على الأرجح — لأن شعر ابن الخياط يدل على أنه بقي في صقلية حتى أيام ابن التهمة وفي هذا التاريخ كان التجيبي قد توفي وربما اشتملت عليه القيروان بعد ما انقطعت علاقته بابن التهمة، وإن لم يكن هناك ما يمنع الظن بأنه كان يسافر إلى القيروان كثيراً ويتنقل بينها وبين صقلية .

وإذا كان قد هاجر من صقلية بعد موت ابن التهمة أو قبله بقليل فإنه لم يشهد صقلية في عصرها الجديد — عصر الحكم النورمانى —

وفي بعض أحاديثه إلى التجيبي نراه يستشهد بكلمة لابن المقفع ، ويقر بأنه أخذ معنى معيناً من أبي تمام، ولا نص غير هذين يدل على ميل معين أو ثقافة خاصة أو اتجاه محدود .

## ٢

### ممدوحوه

ولا بد من وقفة عند ممدوحى ابن الخياط نفسه لنعرف الفترة التى عاشها في صقلية ، فهو قد مدح كثيراً من أمراء الكلبيين ، وهؤلاء هم الذين وصلتنا أسماءهم أو ألقابهم :

١ — مرتضى الدولة وإبناه

( أ ) صمصام الدولة

( ب ) مؤيد الدولة

ولا نعرف من هؤلاء إلا صمصام الدولة وهو الحسن بن أبي الفتوح يوسف ويوسف يلقب بثقة الدولة ولا نعلم أنه كان يلقب مرتضى الدولة، وإذن فنحن مضطرون أن نفترض بأن يوسف كان يتمتع بلقبين أو أكثر، فهو مرتضى الدولة

وهو ثقة الدولة الذى حكم من ( ٣٧٩ - ٣٨٨ هـ ) وليوسف هذا أربعة أبناء ذكرهم الكتب التاريخية وهم :

١ - جعفر الملقب بتاج الدولة سيف الملة ( ٣٨٨ - ٤١٠ )

٢ - على ( ولا نعرف له لقباً ولم يحكم )

٣ - أحمد الأكحل الملقب بتأييد الدولة ( ٤١٠ - ٤٢٧ )

٤ - الحسن الملقب بصمصام الدولة ( ٤٢٧ - ٤٣١ )

أما صمصام الدولة فقد منحه الخليفة الفاطمى ألقاباً كثيرة لا نعرف منها إلا الصمصام ، ولكن هذا الخبر يجعلنا نتأكد أن الوالى كان أحياناً يتمتع بأكثر من لقب . وليس فى أبناء يوسف من لقبه مؤيد الدولة ، وإنما فيهم الأكحل الملقب بتأييد الدولة وبين اللقبين من التقارب ما يجعلنا نعتقد أن مؤيد الدولة صورة أخرى لتأييد الدولة وفى مدحه ومدح أخيه الصمصام يقول ابن الخياط :

كلاهما زين أخوه به كما يزين الفرقد الفرقد  
من تره منفرداً منهما فى مجلس قلت : هو السيد

ويمكن أن يستشف من هذا الشعر أنه قيل فيهما فى موضع الثناء على أبيهما ثقة الدولة ، ومعنى ذلك أن صلة ابن الخياط تبدأ بثقة الدولة إلا أن ثقة الدولة قضى فى الإمارة عهداً ، وقضى وهو معتزل لها فى صقلية عهداً آخر ، ولم يفارق صقلية إلا حين تولى الأمر ابنه الأكحل ؛ وعلى ذلك إما أن يكون عهد ابن الخياط بمدحه بدأ وهو وال ، أو وهو معتزل للولاية ، وهذا لا يبعد صلته بالأمراء الكلبيين عن سنة ٣٩٠ هـ .

وابن الخياط يمدح من أمراء بنى أبى الحسين أيضاً :

١ - مستخلص الدولة

٢ - انتصار الدولة بن مستخلص الدولة

٣ - ابن انتصار الدولة

وقد ترجم العماد فى الحريدة لمستخلص الدولة ، واسمه عبد الرحمن بن

الحسن الكلبي ، وأورد له شعراً . وأما انتصار الدولة فاسمه الحسين بن عبد الرحمن (١) يقول الربيعي في مدحه :

عَلَّقَ رَجَاءَكَ بِالْحُسَيْنِ وَبَابِنَهُ      إِنْ الْعَلَائِقَ بِالْكَرَامِ أَوَاصِرَ

وأما حفيد عبد الرحمن ( ابن انتصار الدولة ) فلا نعرف عنه شيئاً .

ثم من هؤلاء الذين يمدحهم ؟ لأنهم يتمتعون بألقاب ولكن ليس هناك أى إشارة إلى أنهم حكموا صقلية فهل كانوا يحكمون في غير بلرم ؟ أو أن عبد الرحمن مستخلص الدولة كان قائداً في الأسطول أو صاحب قلعة من القلاع ؟ أكبر الظن أن عبد الرحمن هو ابن الحسن بن عمار الذي كان في يوم ما قائد أسطول الكلبيين ولا بد أن يكون انتصار الدولة ابنه كان صاحب مركز عال ، لأن ابن الحياط يذكر خروج خارجي ثار عليه ، ولكننا لا نعلم أين كان ذلك ومتى . وقد توفي عبد الرحمن وابن الحياط في صقلية فرثاه . ويظهر أنه فارق الوجود حين كان الكلبيون قد فقدوا كل سيطرة لهم في الجزيرة لأن ابن الحياط في هذا الرثاء يعزى الكلبيين عن صقلية . وربما أفاد هذا أن انتصار الدولة كان ذا سلطة في حياة والده لا بعده .

وإذا كان الصمصام والأكحل من ممدوحيه فهذا يعين صلته ببلرم . وهو يصف في شعره جلب الماء إلى بركة بدار الإمارة ؛ فأين قامت صلته بالممدوحين الآخرين ، وهل اتصل بابن الثمثة حين استولى هذا على سرقوسة أو حين امتدت سلطته إلى بلرم ؟

ومع ذلك فإن صلة ابن الحياط بهذا العدد من الأمراء الكلبيين تصور لنا مقدار ما نجهله من أخبار صقلية ورجالاتها .

( ١ ) هذا يخالف قول التعيجي : ٩ ونحوه ما أنشدني الربيعي أبو الحسن يستعجز الأمير انتصار الدولة عبد الرحمن حاجة .

### ابن الخياط وحياة الحرب والفتن أيام الكليبيين

هذا العهد الطويل الذى قضاه ابن الخياط فى صقلية على أبواب أمرائها جعله شاعر بنى أبى الحسين ، فهو يسجل لهم حياتهم الحربية والسياسية — الحياة التى تعد أبرز شئ فى تاريخ صقلية .

فى شعره وصف للمعارك كقوله من قصيدة يمدح بها انتصار الدولة :  
ويا ربّ يومٍ له مسعر إذا خمدت ناره أوقدا  
تخافُ به الرجل من أختها ولا تأمنُ اليَدُ فيه اليدا  
وترى رجالٌ بأعضائهم فثنى تراهن أو موحدًا  
ترى السيفَ عُرِيانَ من غمده وتحسبه من دمٍ مغمدا

وهو يسجل انتصاراتهم ويتحدث عن بعض الطامحين النافرين عليهم كقصيدة قالها يذكر ظفر انتصار الدولة بخارجى خرج عليه :

ظنّ الإمارة ظلّةً فإذا بها حربٌ يكاد أوارها يتأجج  
ومهندات كالعقاقى ماؤها مترقّرقٌ وطيها متأجج  
لا تستقر العين فوق مُتُونها فكأنما هى زئبق متدخرج  
ومداعس للخيل يرمح وسطها من غير فارسه طمرٌ مُسرج  
عقّرى وسالمة تعائرُ فى القنا العسجدى وذو الخمار وأعوج  
طرحت فوارسها على أذقانهم طرح الكعاب ففرد أو مزوج  
فى موطن سلب الحليم وقاره فكأنما هو مستطار أهوج

ويصف ضيق الأرض على الفريق المهزم الخائف ويصور ذعره وفزعه بقوله :

فى مثل يوم الحساب تحسبهم سكرى وكالسكر بعض ماشربا  
كأنما أرضهم قلوبهم فكلها قد أحيل فاضطربا

وقد عرضت هذه الأمثلة متتابعة دون أن أقف عند واحد منها لأعود إليها جملة . فهذه القطع تصور أهم جانب في حياة صقلية ، وهو حياة الجهاد والفن ، ولعلك تلمح فيها خصائص تنتظمها جميعاً فكلها صاحب بالحركة ، تضطرب وتهتز حسبما تضطرب المعركة وتهتز ، وفيها هذه المبالغة التي لا بد منها لتكبير الصورة وخاصة صورة الحرب ، فالخوف يتمثل على أشده في خوف العضو من أخيه ، والعيون لا تستقر على متن السيف ، لأنه كالزئبق المترجرج ، والأرض في عين الخائف كقلبه اضطراباً ، ونلمح في هذه الصور المنتزعة من غير قطعة واحدة أن الشاعر يجيد تصوير الاهتزاز والاضطراب ، ولا تنس جمعه في السيف بين الماء والنار فهي الصورة التي تلاقينا كثيراً في الشعر الصقلي ؛ والشاعر كغيره من الصقليين تستولى عليه حياة القتال فتندفص صورها في شعره كقوله :

واعلم بأنك إن غزوت نداهما بلواء مدحهما فإنك ظافر  
وقوله في تأييد النعمة بنعمة أخرى :

فابعث ولداً إلى وسميها مـدداً إن الكتاب منصور تواليها  
تلك كانت صلته مع الأمراء الكلبيين في المعارك والفن ، أما في حياة السلم فهو يعزى الأكحل بعد ما تألبت عليه صقلية بقوله :

لا تفرحن ولا تحزن لنائبة عليك بالخير أو بالشر لم يدم  
في كل أمر وإن طالت نجاحته حكم التعاقب في الأنوار والظلم  
وتارة أخرى يقول له :

أرى كل شيء له دولة لحكم التعاقب فيها عمل  
فلا تفرحن ولا تحزنن لشيء إذا ما تنهى انتقل

وهذا معناه أن ابن الحياط وقف مع الأكحل خاصة لما ثار عليه الصقليون ومع بنى أبي الحسين عامة ، وأخلص لهم ولم يكن في حبه شاداً ، فقد كان أمراء هذه الأسرة محبوبين عند أهل صقلية ، وكان فريق كبير منهم فيها يؤيدهم ،

حتى إن الصقليين لما غضبوا من سياسة الأكحل وابنه واستقدموا عبد الله بن المعز ،  
عادوا فندموا على ما فعلوه في حقه .

ولما مات مستخلص الدولة رثاه ابن الخياط وذكر أمراء من بني الحسين

وعزاهم عن فقد الجزيرة بقوله :

لَيْسَ لَكُمْ أَنْ الْجَزِيرَةَ بَعْدَكُمْ      كَمَا قَبِلَ فِي الْأَمْثَالِ لَحْمٌ عَلَى وَصَمٍ  
تَرْكُمُ بَقَايَا حَسَنِكُمْ فِي خَرَابِهَا      كَمَا ذَبَلَ النُّوَارُ فِي خَلَلِ الْحَمِ  
رَجَوْهُ كَأَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَا هِيَ      تَرْقُوقُ حَيَاةً وَامْزَجَ الْحَسَنَ بِالْكَرَمِ  
كَأَنَّهُمْ فَوْقَ الْأَسْرَةِ أَنْجَمُ      سَعُودٌ وَفِي الْهَيْجَا ضَرَاغِمَةٌ بِهِمْ

وهذه الأبيات لا تصور إخلاصاً فحسب ، بل تصور تفانياً في الحب  
— في حب قوم كانوا حماة للأدب والفنون — وحسبك أن الشاعر نسي وطنه ،  
ولم يجد في حاله البائسة ما يبيكه ، فوطنه لحم على وضم ، وما أدق هذه الكلمة في  
وصف الحال التي صارت إليها صقلية في تلك الفتنة ، ولكن من العجب أن  
يكون هذا شيئاً يتسلى به بنو أبي الحسين .

وهنا تشعر كيف أن ابن الخياط انساق مع الحزبية وتشفى بحال الجزيرة التي  
أصبحت أشلاء ممزقة ، وأشبع في نفسه ونفس أسياده شعورهم بأن صقلية تجني  
لقاء ما قدمت ، لا من إساءة اقترفتها في حق نفسها ، ولكن من خطأ اقترفته في  
حق الكلبيين . وهو إخلاص شاعر عاطفي ، في ساعة عاطفية ، استطاع أن يقول :

تَرْكُمُ بَقَايَا حَسَنِكُمْ فِي خَرَابِهَا      كَمَا ذَبَلَ النُّوَارُ فِي خَلَلِ الْحَمِ

فجعلنا نتناسى بهذه الإجابة في التصوير شدة نقمته على وطنه — كانت  
صقلية حمماً ، كان بركانها السياسي يقذف بتلك اللحم كما يقذف إتنا  
بالحمم فيتلف المزارع والكروم ويدبل النوار .

وهكذا أصبح الحسن الذي تركه بنو أبي الحسين تفارق ذابلة منبثة هنا  
وهناك في منطقة قد اكتست بالسواد .

### وقفته من مشكلة الغيب والغد

وهناك معنى يديره ابن الخياط كثيراً في شعره ، وهو يمدح الأمراء الكليبيين ، وذلك هو نفاذ البصيرة وبعد النظر ، حتى كأن الممدوح امرؤ يضرب بسهم في الغيب ، ولديه المقدرة القادرة على تصور ما يجيء به المستقبل ؛ من ذلك قوله في انتصار الدولة :

تبدو بخاطره الغيوب جليسةً ويرى الضمائر لآثرهن خواطر

وقوله فيه :

فطنٌ يحدثُ بالغيوب تظنياً فكأنما لحظاته في الخاطر

وقوله فيه وفي أبيه مستخلص الدولة :

فكأنما الحدثان خلف زجاجة تريانه خلال الغيوب شفيفاً  
وكأن أسرار الوجوه تصورت لكما بأسرار القلوب حروفاً

ويبدو لي أن هذا المعنى جاءه من ناحيتين : من تأثير الحالة السياسية المتقلبة التي كانت تنذر بالشر ، ومن حالته النفسية التي كان يعيها التفكير في الغيب ، وتحس بالعجز عن معرفة كنهه ، كلما حاولت ذلك ؛ فأقدر الناس أقدرهم بالنسبة إليه ، والعظيم عظيم لأنه يستطيع ما يعجز هو منه ، وهو يريد أن يشيح بوجهه عن الغيب لأنه يقلقه فيحيل الاطلاع عليه إلى غيره ، والحالة النفسية التي كان يجدها ومعنى العجز الذي كان يحسه إزاء الغيب ينقله لك بقوله .

وغدٌ وبعد غد بمضمونيهما عدةٌ تغيبُ والغيوبُ لها نبا  
وحوادثُ الأيام أكثرُ عبرةً من أن يحيطَ بها القياس فتحسباً



فهو مشغول بقياس القادم على الماضي ولكن هذا القياس يحيب ظنه ويرد تأويله في نحره .

ومن جراء هذه الحيرة تجده تعلق بالحاضر لا بالماضي ولا بالمستقبل ، بينما قضت الظروف على ابن حمديس مثلاً أن يعيش دائماً في ماضيه ، ولذلك تسمع ابن الخياط يقول :

ما كان أمس فقد فات الزمانُ به      وما يكونُ غداً في الغيب موعودُ  
وبين ذينك وقتُ أنت صاحبه      في حالتيه فهدومٌ ومحمود

وتعلو هذه الفلسفة عنده وتكون على أشدها في قوله :

تمتعْ بالمنام على شمال      فسوف يطولُ نومك باليمين  
ومتعْ من يحبك من تلاق      فأنت من الفراق على يقين

وقد كان وصف الممدوح بنفاذ البصيرة وبعد النظر واستطلاع الغيب ديدن المداحين من شعراء صقلية ، وليس لهذه الظاهرة صلة بفكرة الألوهية ، ورفع الممدوح إلى مرتبة عليّة ، ولكن فيها شيء من سخرية الواقع بالصقليين لإحساسهم بالعجز عن النفاذ في هذا الباب المغلق ، وليس في حياتهم السياسية ولا في شورايم الاجتماعية شيء من بعد النظر ، لأن المصلحة العاجلة كانت تبتسر أفكارهم ، وتختزل لباقتهم في حساب النتائج ، أما سخرية المستقبل بآراء ابن الخياط في ممدوحيه فغنية عن التنويه بها ، فقد كان من مصيبة أولئك الممدوحين ببعد النظر أن أفقدهم بعد نظرهم الجزيرة ، وأما سخرية الغيب بابن الخياط نفسه فهي تلك النومة الطويلة على اليمين .

بهذه الفلسفة في الغد والوقوف الحائر عند مشكلته نرانا إزاء شاعر صقلى ذى فلسفة ذات معالم بينة ، وقد رأينا ابن حمديس ذا مذهب في اللذة . وهذا شاعر ذو مذهب في تأمل الحياة ، وكلاهما صادق في استمداد تلك الفلسفة من واقع حياته بصقلية ، وقد كانت مشكلة الغد المحجوب في حياة الصقليين واقعاً

اجتماعياً وسياسياً - لا قدرأً فحسب - فهم على أطراف خطر دائم من جيرانهم ومن أنفسهم ؛ فليست المشكلة هنا ، كما يراها كل فرد ، ولكنها قضية الجماعة التي تعيش متوجسة خائفة فإذا ثقل عليها الخوف والتوجس ، تبتلد إحساسها بما كان وما سيكون . وقنعت من دنياها بالحاضر تحياه إلى أن يقع بها على حدود الزمان المقبل ، وهكذا أبداً .

وقد كان ابن الخياط من جرّاء واقعه الذي خلق فيه تلك الفلسفة يعيش في انتظار الأحوال أن تنقلب إلى أحسن ليعانق انقلابها ويحييه . أرأيت إليه وهو يرتفع بنى أبي الحسين ويتحدث عن بقايا الحسن وعن ذبول النوار وعن تلك الوجوه التي مزج مآزها الحسن بالكرم ، أرأيت إليه كيف انقلب في ساعة واحدة لما استوى ابن الثمّة على غارب الأمر وراح يسير في موكبه مهللاً يقول :

سر حيثُ شئتَ فأنت وحدك عسكرُ      والناسُ بعدَكَ فضلةٌ لا تذْكرُ  
لقد شهد ابن الخياط فتنة صقلية فلبس فيها عباءة الحكيم ، وذهب يحذر قومه أمرها ويحدثهم عن صدور الأمر الكبير من الصغير ، والنار من الشرارة ، ويقول :

وقلتُ تلاقوا الدهر إنها      إذا نغلتُ أعيت مطبة آس

فإذا جرت إلى الويل قال لهم : ألم أنبهكم ؟

لا يهنُ بعدها عليك حقيرُ      ربّ شأن يكون منه شئون

وشجرة الدهر التي نغلت وأعيت كل طيب - هذا التعبير دليل على يقظة حسية في ابن الخياط لما كان يراه في وطنه ، ولعل هذه اليقظة ثم اعتقاده أنه أدى واجبه بتلك النصائح هما الأمران اللذان خففا وقع الحزن على نفسه عند ضياع ذلك الوطن فلم يرثه بشيء .

ثم انتهت الفتنة بعد ما خرج ابن الثمّة من وسط اللهب فإذا ابن الخياط يطلب الحياة من جديد ، ويعيش كما يريد الحاضر وينسى الماضي ، لأنه خلق لحاضره وخلق حاضره له أملاً يكفيه حتى ينقضي ، ولم يكن مثالياً لنقول إنه سقط دون مثله وتنكر لها .

### الطبيعة الريفية في شعره

ونظن أن ابن الخياط في حياته المدنية التي تقلبت به بين الأمراء لم يكن شاعراً يعبر عن جمال الطبيعة الصقلية ، ولكن تلك الطبيعة تسربت إلى نفسه وكنّت في أعماقها .

ومن ثم ترى أن غيره من الشعراء لم يقفوا عند الكروم ومروج القمح ولا عند الجبال والعيون . وابن الخياط لم يقف عندها كذلك ولكننا لأول مرة نقف عند شعر صقلى تتردد فيه مناظر العنب وقطفه ، والسنابل الخضراء والصخرة التي يتفجر منها الماء . فهو يصف الكرمة بقوله :

وكان أقرطه على قضبانها منظومة سبجاً بها وعقيقا  
وكان قاطفها يميث بكفه من مأثها بالزعفران خلوقا  
ويقول فيها أيضاً :

ملاحية بيضا وسوداً حوالكا وحمراً وصفراً ملبسات مجاسدا  
كان على أيدى القواطف تحتها بما قنأت منها عروفاً مفاصدا

وليس في هذه الأوصاف شيء يلفت النظر ، وإنما الذي يستوقفنا هو موضوعها — وصف الكرمة — فإن الشعراء الآخرين تعلقوا بوصف الخمر دون العنب ، أما هذا الشاعر فله التفاتة — أى التفاتة — إلى ما يملأ ربي وطنه .

وهو يقول في أبيات يتنجز بها عدة من انتصار الدولة

وإن أولى نبات أن ثمره صنيعة أنت مولّاها وموليا  
فرُبها إنها سبع سنابلها في حبة بارك الرحمن لى فيها  
أودعتها في ثرى جعد فأنبتها مستأرضاً أرضها خضراً أعاليا  
فابعث ولياً إلى وسميها مدداً إن الكتائب منصور تواليها

فهذه الصورة الريفية الجميلة التي استغلها في معنى الصنعة والنعمة لا تجد لها مثيلاً في وحدتها واكتمالها وتدرجها من بين الشعر الصقلي ؛ وهي أول صورة ترف ريفيها وتهتز بالسنابل ، ولا شك في أن الوقوع عليها لمن يعيش في صحراء الشعر الصقلي ابن الكتائب والكراسات ، كسب يجعله يعلق بها كما يعلق الكرم بمن يدنونه — والتشبيه لشاعر صقلي آخر .

ويقول في تكرير التجربة مرة بعد مرة :

كالصخرة الصماء يرجعُ معولٌ مثلاً عنها ولا يتفطر  
لابل أصابرها على نزقاتها إن المياه من الصفا تنفجر

وتتردد هذه الصورة — صورة الماء المتفجر من الصفا — في شعره . وفي البيتين السابقين تحس في ذكر المعول صقلياً من أولئك الكادحين في الأرض ، وفي الأمواه المتفجرة صورة من تلك الينابيع التي تستوطن الصخر . ولا شك في أن صورة السنابل والحجر الذي انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً مستمدتان من القرآن الكريم ، ولكن الشاعر لم يقع على هذه الصور بمحض المصادفة أو لحض ورودها في القرآن ، ففيه صور أخرى كان يستطيع أن يستمدّها منه ولكن هذه المعاني تحتل من نفسه مكاناً عميقاً ، لأنها من البيئة الزراعية ذات السنابل أو ذات الصخور المتفجرة بالينابيع ، فاستحضار هذه الصور بعينها ملائم للمعنى حقاً ، وهو أيضاً دليل على اشتغال نفسه بها اشتغالا يؤكد تأثير البيئة .

### البيئة المدنية في شعره

ويمتد شعوره بالبيئة إلى الحياة المدنية ، وهنا لا نجد عنده التغنى بجمال الرقيق فحسب . بل شعور السيد الأرسقراطي إزاء عبيده فهو لم يصور شقاء العبيد ولكن صور شقاءه بهم ؛ ولم يحاول أن يستشف نفسية العبد ، أو أن يعتذر عنه بما أجراه عليه الرق . وفي هذا يقول :

لى عبد سوء وعبد سوء منكدة	والمسترق بعبد سوء مولاهُ
كاننى كلما أنهاه أمرهُ	وحين أمرهُ بالشيء أنهاه
قالوا سعادةُ فأل من سعادته	كأنهم جهلوا اسماً ضدّ معناه
إن الغرابَ أبو البيضاء كنيتهُ	فانظر بأى سواد خصّه الله

وهو كغيره من شعراء صقلية فتن بالغلطان النصارى وتغزل بهم فى غير تبذل :

كأنّ على لبّاتهمُ وخذودهم	وذائل ملساً من الحين وعسجد
ترى كبرياء الحسن فى لحظاتهم	تشابُ برهبانية المتعبد
إذا قبلوا صلبانهمُ رشفتهم	حصى برّد فيه مجاجةُ صرخد

وعاقر الخمر ووجد طلبته منها فى الدساكر ، وهو الوحيد الذى نجد عنده تصويراً لصاحب الحان وتحليلاً لخلقيتته .

وهو أول شاعر يصرح بنوع من الحياة الاجتماعية لم نسمعه عند غيره بصقلية إذ يجعل المسجد مجالاً للقاء المحبوب لا للعبادة والدرس وحدهما :

يا حبذا المسجد الذى جمعة	نا فيه مقصورةُ إلى العصر
ما كان إلا بستان تلهية	لولا مراعاةُ حرمة الشهر

أما القاعدة العامة عنده في معاملة الناس فهي الصبر حتى ينبض الماء من الحجر والرفق في القول والعمل . ومما قلل النقد في شعره للحياة الاجتماعية إيمانه بقلة الاكثراث وعدم الاهتمام بالأمور التي لا تعنيه مباشرة ، وعدم التعمق والتحقيق مع الناس والرضى منهم بالمجاز . وصفات الرفق واللفظ والرفقة تتجلى في واقعه العملي أكثر من صنعته الشعرية .

وإذا استنجز عدة تأخرت رأيته يترفق في التذكير بها واجتلاب الانتباه إليها ، كقوله يستنجز انتصار الدولة وعده بها :

وقائل قال لي أبشرُ بمنجحة      إن الأمير كريمٌ قال فانتصرا  
ما حاجةٌ هي أولى أن تفوز بها      من حاجة منحتها عينه نظرا  
إذا ابن مستخلص الإسلام قام بها      فاقعدُ فإنك قد وليتها الظفرا  
ألقيتها منه في سرٍّ يحولُ به      إذا تناسيتها مستبطناً ذكرا

وقد جعلته صلته بالملوك جباناً يفرق من نقد الحياة السياسية والاجتماعية ، ومن حكمه في هذا الشأن قوله :

إن سبَّ الملوك من شعب المو      ت فإياك أن تسبَّ الملوكا  
إن عفوا عنك بالذنوب أهانو      ك وإن عاقبوا بها قتلوكا

## ٧

### صنعتة الشعرية

أما في صنعتة الشعرية فإنه لا يحفل كثيراً باللفظ والرفقة ، وهو أقدر على تصوير المناظر العنيفة منه على تصوير المناظر الهادئة .

ومع ذلك فهو شغوف بوصف الحديث وسحره وجماله ، أي هو شغوف بالرفقة التي تنساب في الكلام ؛ وأوصافه للحديث ليست بشيء لأنها تقليد لشعراء

معروفين كبشار وابن الرومي ولا يزيد عن وصف الحديث بأنه رطب يانع  
أو خر معتقة أو فاكهة رطبة .

فهل يكون شغوفاً بالرقعة في الحديث لأنه لا يستطيع أن يسيطر على الموسيقى  
في ألفاظه ؟ استمع إليه يقول :

والحديث الذي يهزل منه في الهوى أريحية النشوان

أو يقول :

ما ضرَّ من قتهُ حديثك أنْ يحرمَ قوتاً بقية العمر  
اللحظُ راحٌ واللفظُ فاكهةُ والحد رامشةٌ من الزهر

فهل هذه العبارات التي تجيء فيها « يهزل » « وقته » « ورامشة » وهل تكرير  
عبد السوء في قصيدة سابقة مما يدل على كلف باللفظ الجميل ؟ ومع ذلك فليست  
كل أشعاره تسودها هذه الظاهرة من الإهمال في الموسيقى اللفظية ولا نستطيع أن  
نقول إن الخشونة هي الطابع العام في شعره .

وهو في صناعته قادر على أن يخلق جوّاً عاماً كما رأيت في صورة السنابل  
وهناك قصيدة يمكن أن نتخذها مفتاحاً يقودنا إلى طريقته في تأليف الشعر وتلك  
القصيدة هي :

ليس إلا تنفس الصعداء	وبكائي ، وما غناء بكائي
من رسول إلى السماء يؤدي	لى كتاباً إلى هلال السماء
كيف يرقى إلى السماء كثيف	يسلك الجسم في رقيق الهواء
عجز الإنس أن ترقى إليها	فعسى الجن أن تكون شفائي
أم ترى الجن تتقى شهب الرج	م فدعني كذا أموت بدائي

ليس في هذه القطعة حلاوة موسيقية ، وإنما فيها وحدة وتسلسل ، فالشاعر  
يعلن العجز ويتنفس الصعداء لعل أنفاسه تكشف عن حاله للال سماوي فتن به ،

ولكن أنفاسه لن تبلغ إلى هنالك لأنها أعجز من أن تقطع هذه المسافة الطويلة فأين الرسول الذى يقطعها ؟ ولكن الرسول الإنسى كثيف ، وكيف يمكن للكثيف أن يرقى فى الهواء الرقيق - لا شك أنها محاولة مخففة ، فليلجأ الشاعر إلى الجن ، إلى مادة نارية رقيقة غير كثيفة ، ولكن أليس الجن قد حرمت عليهم معارج الرقى إلى السماء وشهب الرجم تتلقاهم بالموت ، إذن فماذا بقى ؟ لا الإنس يستطيعون ذلك ولا الجن يقدرّون عليه فليبق الشاعر حيث هو يتنفس الصعداء ويرسل الدموع الحارة فذلك هو كل نصيبه فى الحياة .

وتسأل لم اختار الشاعر بناء هذه الصورة بهذا التدريج الذى لا تجد فيه ثغرة ؟ لأن أمامه فكرة معينة لا يريد أن يتخلى عنها وهى أن حبيبته هو " هلال السماء " .

وأحياناً تتميز قصيدته بالاندفاع الذى يسوق فى طريقه انسجماً عاماً فى التعابير ، وتفارق الشاعر خشونته إلا قليلاً ، كما فى هذه المقدمة الغزلية لقصيدة هنا بها ابن ثقة الدولة بالسلامة من الجدرى وفيها يقول (١) :

لا يطمعنك فى السلو تكهلى	أنا من علمت على الغرام الأول
إن كان غرك ذا الوقار فإنه	كالطيب يعبق فى القميص وقديلى
نسك نصبت به حباله مطعم	متعود قنص الغزال الأكحل
ولرب مأربة لبست لها الدجى	وقضت بها وطراً لطافة مدخلى
أسرى كما تسرى النجوم لحاجتى	والناس بين مدثر ومزمل





## الفصل الرابع

هجرة الشعر من صقلية

١ - هجرة العلم والشعر إجمالا



## هجرة العلم والشعر إجمالاً

فى خلال السنوات الثلاثين التى تم فيها الفتح حدث أول أثر مباشر فى الحياة العقلية والأدبية بالجزيرة فإن عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والصالحين غادر الجزيرة على دفعات - بعضهم فرّ فرعاً من أول هجوم ، فخرجوا كما خرج ابن الصفار " فارين بمهجهم تاركين لكل ما ملكت أيديهم " ، وبعضهم هاجر حين رجع أسطول ابنى تميم ويثسوا من صلاح الأمر بعد فسادة ، وبعضهم تسلل من بعد ، حين سنحت له الفرصة. ولا شك فى أن الحرب نفسها قد قضت على بعضهم فقتلوا أو ماتوا وخاصة لما انتشر الوباء فى بلرم ، وفريق منهم آثر الإقامة فى بلده (١). واختلفت وجهات المهاجرين فذهب جماعة إلى الأندلس ولكن أكثرهم حل فى شمال إفريقيا ووصل كثيرون إلى مصر. ولا شك فى أن كثيراً من الذين توجهوا إلى المشرق كانوا يضعون نصب أعينهم حقيقتين بارزتين ، أولاهما أن صقلية كانت ذات يوم ولاية تدين بالتبعية لمصر ، وثانيتهما أن مكة كانت مهوى أفئدتهم ، ولا يستغرب أن تكون الدوافع الدينية هى التى دفعت بكثير منهم فى ذلك الاتجاه، حتى لقد جاور بعضهم فى مكة فى ظل الدين الذى كان ينبىء على حياة المسلمين جميعاً ، وتمحى فى رحابه الحدود الجغرافية. وعاش الصقليون فى خارج بلدهم يتابعون تلك الدراسات التى كانوا قد قطعوا فيها مرحلة طويلة ، وأنشأوا لهم مدارس أدبية وفقهية ولغوية أينما حلوا (٢) ، فامتاز الصقليون فى مصر بجهودهم فى النحو واللغة والقراءات فى كل من الإسكندرية والقاهرة؛ وتمتاز هذه

(١) Amari : S.D.M. vol, 3, p. 169.

(٢) ليس من منهج البحث أن أتناول بالدرس جهود هذه المدارس الصقلية فى الخارج بالتفصيل، وهذا القدر هو الذى يتماشى مع الكيان العام للمنهج .

الحركة بما خلفوه من مؤلفات وخاصة ابن القطاع فى اللغة والنحو والعروض<sup>(١)</sup> وابن الفحام فى القراءات وأبو الحسن الصقلى فى النحو والعروض . ولم تذكر المصادر مؤلفاً معيناً لأبى الحسن ولكنى أظن أنه ترك فى اللغة كتاباً أو كتباً ينقل عنها ابن منظور فى اللسان<sup>(٢)</sup> . كما أن آراء ابن القطاع اللغوية مبثوثة فى تاج العروس وهى فيما يظهر نقول من كتابه فى الأفعال .

أما ابن الفحام فألف فى القراءات كتاب التجريد فى بغية المريد<sup>(٣)</sup> حتى قال فيه بعض معاصريه " ما رأيت أعلم بالقراءات منه لا بالمغرب ولا بالمشرق وإنه ليحفظ القراءات كما نحفظ نحن القرآن " <sup>(٤)</sup> . وعند السلى صورة واضحة عن هؤلاء الصقليين بمصر وعن ألوان نشاطهم الثقافى قد لا نجد لها فى مصدر آخر .

وفى إفريقية أتم المازرى عمل المدرسة الصقلية فى الفقه والحديث واشتهر فى التدريس حتى قصده الطلبة من نواح كثيرة فى الأندلس وإفريقية<sup>(٥)</sup> ودخلت تعاليمه وكتبه بلاد الأندلس مع تلامذته منها ، وكتبه بعضهم يستجيزه كتبه ، ومن أجازهم القاضى عياض ، وتخرج عليه من أهل إفريقية جماعة أصبحوا أعلاماً فى المذهب ، وقصدوا للتدريس فى المهديّة وقابس وتونس وغيرها . وشهد له بالتفوق والذكاء رجال من غير مذهبه قال السبكى فيه « أما المازرى . . . فكان من أذكى المغاربة قريحة وأحدهم ذهنًا ، بحيث اجتراً على شرح البرهان لإمام الحرمين ، وهو لغز الأمة الذى لا يحوم حول حماه ولا يدندن حول مغزاه

(١) من مؤلفاته الموجودة كتاب الأفعال طبع كلكتا فى ثلاثة أجزاء ، وفى معهد الخطوط بالجامعة العربية نسخة من كتابه البارع فى العروض .

(٢) انظر مادة « فدن » و « حمى » فى اللسان .

(٣) فى دار الكتب المصرية نسخة من هذا الكتاب .

(٤) السلى : الورقة ١٠٨ .

(٥) المازرى ترجمت عدة منها فى الديباج ص ٢٧٩ وفى ازهار الرياض ٦٥/٣ ، وغير ما يصور أثره فى المغرب وكثرة تلامذته التكملة لابن الأبار فتحت أرقام كثيرة فيها وردت أسماء تلامذته ( انظر مثلاً رقم ٢٧٥ ، ٦٣٠ ، ٦٧١ ، ٧٤٦ ، ٧٥٠ ، ٧٧٠ ، ٨٩١ ، ١٦٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٥١٢ . . . إلخ ) .

إلا غواص على المعاني ثاقب الذهن مبرز في العلم<sup>(١)</sup> .  
 وكان المازرى على وجه الإجمال مالكيّاً أشعريّاً متشددّاً « مصمماً على مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري رضى الله عنه — جليلها وحقيرها كبيرها وصغيرها لا يتعدها ويبدع من خالفه ولو في النزر اليسير والشئىء الحقير »<sup>(٢)</sup> .  
 وقد خالف الجوينى أبا الحسن في مسألة ليست من القواعد المعتمدة فقال عنه في شرح البرهان من خطأ شيخ السنة أبا الحسن الأشعري فهو المخطئ<sup>(٣)</sup> . وخير ما يصور روحه في الدرس والبحث وقفته من الجوينى في شرح البرهان ونقده للإمام الغزالي في الأحياء ، ولا ندرى إن كانت هذه الروح الشديدة المحافظة هي روح المازرى وحده أو هي طابع مغربي صقلى ، وعلى أى حال فقد رأينا المحافظة والتشدد يغلبان على مدرسة الفقه والحديث بصقلية<sup>(٤)</sup> .

أما الذين هاجروا إلى الأندلس فكانت تغلب عليهم صبغة الشعر ، وليس ذلك لتقارب بين البلدين في المذهب الشعري ، وإنما هو بتأثير من بعض الأمراء الأندلسيين وخاصة ابن عباد ، ممن كانوا يجزلون الهبات للشعراء .

ولا بد من أن نجتمع في الذهن صورة عن تلك التقلبات في الحوض الغربي من البحر المتوسط ونستعيد الأحداث التي وقعت على أثر النهضة الأدبية في الأقطار الثلاثة : إفريقية — صقلية — الأندلس . ففي بلاط المعز بن باديس كان الشعر الإفريقي في أقوى أحواله نشاطاً وحركة ولكن لم يمض وقت طويل حتى خربت القيروان وتفرق شعراؤها فغذوا الحياة الأدبية في كل من صقلية والأندلس — وقت أن كان حظ الشعر في هذين القطرين آخذاً بالصعود ولم يمض إلا سنوات حتى سقطت صقلية فإذا بكثير من شعرائها ينتقلون إلى الأندلس

(١) السكى : طبقات الشافعية ١٢٤/٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) انظر المقالات القيمة التي نشرها الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب باشا عن المازرى

مجلة لواء الإسلام عدد ٨ ، ٩ ، ١٠ من سنة ١٩٤٩ وانظر العيد المئوي لميلاد أمارى .

ويزيدون فيها من نشاط الحياة الأدبية . وهذه الصورة من التنقل هي القاعدة التي تفسر الشعر في المغرب أثناء القرن الخامس . وعلى هذا الاعتبار تكون صقلية الأدبية حلقة في سلسلة كبرى . أما مادة هذه الحلقة — حديدية كانت تلك المادة أو ذهبية — ففيها أثر من الصياغة المشرقية ؛ والشئ الغامض في هذه الحياة الأدبية بصقلية هو مدى تأثرها بالأندلس نفسها .

أما أشهر الشعراء المهاجرين من وجهة عامة فهم ابن حمديس وأبو العرب الصقلي وابن أبي البشر البلنوبي الصقلي ، والثالث بين هؤلاء توجه إلى المشرق وقد تقدمت الإشارة إليه بين من نزلوا مصر وزاولوا فيها الدراسات اللغوية والنحوية . ولكنه كان إلى جانب ذلك شاعراً وإذا استثنينا ابن حمديس كان شعره أكثر ما وصلنا لشاعر صقلي إذ يشمل الجزء المتبقي من ديوانه وجزءاً آخر اختاره العماد في الحريرة وجزءاً ثالثاً في مختصر الدرة وغيره ، ولكن في دراسة هذا الشعر على أنه صقلي حيفاً على دقة البحث ، إذ لا نلمح فيه أى ذكر أو إشارة لصقلية من ناحية ، كما أن الطابع الفني العام فيه مفارق لسائر الشعر الصقلي ، من ناحية أخرى . إنما من الطبيعي أن يدرس البلنوبي في ظل بيئات جديدة عاش فيها ، وفي ظل ثقافته اللغوية النحوية العروضية . والشعر الذى بقى له كله فى المدح والغزل وقصيدة واحدة فى رثاء أمه التى توفيت بمصر . وممدوحه كبنى الموقفى واليازورى وعز الدولة وابن المدبر ورئيس الرؤساء كلهم من المشاركة . ومن المظاهر البارزة فى شعره الرقة فى الأسلوب إذا قورن بالشعر الصقلي عامة ، واعتماد بعض أنواع من البديع . ومن المؤثرات التى تركها فيه تدريس العروض اعتماده أحياناً بناء القصيدة لتقرأ على عدة أوزان وهو الصقلي الوحيد الذى يحاول ذلك . أما دراسة اللغة والنحو فجعلته يوجه اهتمامه إلى محاولات تافهة من مثل الألغاز بالأسماء ، وجمع حروف المعجم فى بيت واحد . ولكن شعره عامة غير خاضع لنظرة عامة كونية وقد تستخلص منه وحدة تقع تحت عنوان اللذة ولكنها لذة تتبدد بها التزعجات المتضاربة وتمسخ منها ، فهى حيناً لذة الفاتك وحيناً لذة العفيف

ومن هذه الحيرة بين ما تمليه الشهوة وبين ما تحد منه قلة التجربة يقع الشاعر في التناقض البين . فقد يصور لك في قصيدة من شعرة أنه عَفَّ وَغَضَّ طرفه وقبل الكأس محمولا<sup>(١)</sup> على التشبيه والتخييل :

قبلت خدّ الكأس محمولا على الـ تشبيه أو ضرباً من التأويل  
بالرغم مني أن أصادف بغيّتي وأعود منها راضياً بيديل  
وغمضت من بصرى ولو أطلقتها لعلمت أين مواقع التقييل

ثم ينسى هذا التعفف الذي دفع إليه دفعاً بعد بيت واحد أو بيتين وإذا هو ينال كل ما اشتّاه ، فيقبل الحبيب ويعانقه بعد ما أظهر الندم على ما حرمه . وبين هذا الحرمان الواقعي والنيل المتخيّل يقع الشاعر في التناقض ، لأنه يبني من الأحوال التي يعالجها غيره واقعاً لنفسه لم يتحقق .

ولكن صقلية تتجسم في شعر أبي العرب - بعض الشيء ، وإن كنا حرمانا الشعر الذي قاله هذا الشاعر في صقلية إذ لم يصلنا إلا بعض القصائد التي قالها في الأندلس وهي على قلبها ترسم لأبي العرب حدود شخصية واضحة - شخصية الشاعر الجهاد الذي تسيطر عليه العزيمة والقوة . وهو في هذه الناحية وفي إيمانه بالخير يشبه ابن حمديس ولكنه يفارقه في النظرة الوطنية . فكلا الرجلين تلقى ضياع الوطن تلقياً يتفق مع نفسيته . فقد اجتمعت عوامل كثيرة على أن تحرم ابن حمديس كل عزاء بعد ما غلبه اليأس من العودة إلى وطنه . أما أبو العرب فإنه أظهر التجلد وتعزى عن هذا الوطن ، وأغلق باب التصريح دون حزنه فلم يبد إلا في فلتات قليلة نثينها في مثل قوله (٢) :

وهل في ضمير الدهر للقرب عودة فنغني كما كنا أم الصبر أعود  
ليلى ترضينا الليالى كأنها إلينا بإهداء المنى تتودد

(١) مجموعة الشعر رقم ١ ص ٥ .

(٢) مجموعة الشعر رقم ٦٢ من الترجمة .



وذهب يقنع نفسه - كما سبق أن أشرت - أن الأرض كلها وطن ما دام أصله من تراب ، وشغل نفسه حيناً بالتدريس ، فكان في كل تلك المحاولات ما يسليه قليلاً .

ولكن سقوط صقلية بعد إخفاق ابن عباد في سرقوسة ونوطس ووقوع الجزيرة في يد النورمان خلق ابن حمدس خلقاً جديداً ، ولم تستطع تلك الهجرة أن تنسيه صقلية ، فظل يحن إليها طوال حياته ؛ فإلى ابن حمدس شاعر صقلية أوجه الاهتمام في الفصل التالي .

## الفصل الخامس

### ابن حمديس أثر من آثار الفتح

- ١ - مجمل حياته
- ٢ - الشعر الصقلي في ديوانه
- ٣ - تحليل قصيدتين صقليتين له
- ٤ - أثر صقلية في نفسه وشعره



## مجمال حياته

كان ابن حمديس سرقوسي الأصل ، وربما لم يكن يزيد عمره ، حين سقطت بلرم ، عن سبعة عشر عاماً . وفي هذه السن الباكرة شهد صقلية تضيع من أيدي المسلمين بلداً بعد آخر ، وشهد ما هو أبعد أثراً من ذلك في نفسه ، فقد حضر طرفاً من وقفة وطنه وعناده للنورمان مع ابن عباد ، واشترك هو نفسه في الدفاع عن ذلك الوطن ، فهو يحدثنا عن المعارك البحرية التي كان يخوضها أهل بلده فيقول في إغراقهم لسفن الأعداء (١) :

صَبَّينا عليها ضَرْبنا من صَوَّارم فغاصت بهامن أسرها القلب أنفس  
ونحن بنو الثغر الذين سيوفهم ذكورٌ بأبكار المنايا تعرسُ  
فمن عزمنا هنديةُ الضرب تنتضي ومن زَندنا نارِيةُ البأس تقبسُ

وفي سرقوسة وهب شبابه للحب والحرب والتمتع بالحياة ولذاثدها ، فكان يخرج مع صحبه إلى الحانات أو الأديرة ليشرب الخمر ويسمع الغناء وينعم بمناظر الرقص ؛ وترك هذا اللون من حياة الفروسية أثره العميق في نفسه وخاصة وأنه لم يرو غليله منه . وفي أثناء هذه الفترة من حياته ببلده توفي جده وهو يرسم حياة مناقضة نقيضاً مفارقاً لشبابه العارم ، إذ توفي عن ثمانين عاماً قضاها في النسك ، وكان هو الشخص الوحيد من أقربائه الذي استطاع أن يودعه قبل أن ينزل في قبره (٢) :

تنسك في برِّ ثمانين حجة فيأطول ثممر فر فيه إلى الربِّ  
ضمتُ إلى صدرى بكفتي صدره وأسندتُ مخضراً الجناح إلى الجنب ،

(١) الديوان : القصيدة رقم ١٦١ .

(٢) الديوان : القصيدة رقم ٢٨ .

تبركت الأيدي بتسوية الثرى على جبل راسى الأناة على هضب  
ولم يكن قد تجاوز الرابعة والعشرين حين غادر صقلية وذهب يصحب  
العرب فى الصحراء الإفريقية سنة ٤٧١ هـ ؛ ولعله فى هذه الفترة من حياته اتصل  
بالأمير تميم ومدحه ، وربما كان يشير إلى ذلك بقوله فيما بعد يخاطب الحسن بن  
على (١) :

ومدحت غلاماً جـدّ أيبك وهـا أنا ذا شيخاً يفنا

ونحن نجهل كل شىء عن سبب هذه الرحلة أما ما ظنه أمارى من حادثة  
غرامية أخرجه عن وطنه مستمداً ذلك الظن من إحدى قصائده (٢) فقد صححه  
فيه البارون فون شاك إذ ليس فى القصيدة المشار إليها أى تلميح إلى مثل ذلك  
الحادث .

وإذا صدقت الروايات فإنه فى العام نفسه انتقل من إفريقية إلى الأندلس  
ودخلها سنة ٤٧١ هـ أيضاً . وفى التكملة (٣) أنه لما دخل الأندلس امتدح جماعة  
من ملوكها ثم صار من بعد إلى إشبيلية حيث المعتمد بن عباد ، وهذا يفيد أنه  
مدح جماعة آخرين قبل اتصاله بالمعتمد ، مع أن ديوانه يكاد يقطع بأنه قصد المعتمد  
دون أن يعرج على غيره . وهو يحدثنا أن المعتمد أقام مدة لا يلتفت إليه ولا يعأ  
به ، حتى كاد يستولى عليه اليأس وهم بالنكوص على عقبه . وهذه نقطة هامة  
لأنها تدلنا على أن المعتمد لم يستدعه كما استدعى أبا العرب وابن رشيق والحصرى  
وغيرهم . وبينما كان اليأس قد أخذ يدب إلى نفسه ، جاءه غلام يحمل شعماً  
ومركوباً ويدعوه لمقابلة المعتمد ، فلما وصل إليه أجلسه على مرتبة فنك ، وأراه  
منظراً وامتنح به قدرته على إجازة الشعر ومنحه جائزة سنوية وأزمره خدمته (٤) .

(١) الديوان : القصيدة رقم ٣٢٠ .

(٢) القصيدة رقم ٢ فى الديوان .

(٣) الترجمة رقم ١٧٨٣ .

(٤) انظر مقدمة القصيدة رقم ٣٤٤ فى الديوان .

وفي هذه الفترة التي استمرت ما لا يقل عن ثلاثة عشر عاماً ذهب ابن حمديس يطيل قصائده في المعتمد، ويذكر جهاده وانتصاراته على الفرنجة، ويصف المعارك التي كان يخوضها، ويشارك في حياة الأندلس اللاحية فيحضر الدعوات ويخرج إلى المنتزهات ويشرب الخمر ويلهو مع اللاحين ويتبارى مع المتبارين في صياغة الشعر .

وكانت سرقوسة التي خلفها وراءه لا تزال تجاهد ، وابن عباد الصقلي يغزو قلورية ويكسب نصراً بعد نصر ، وكل شيء من أحداث الوطن يزيد في الأمل ويجعل أوبة المغرب أمراً ممكناً ، وابن حمديس في المجالس وبين الناس يضحك للحياة وينال من طيباتها، فإذا خلا إلى نفسه تذكر صقلية ورجح الشك عنده على اليقين ، وكان يعكر عليه صفاء الحياة ما يرد عليه من أنباء أصحابه الذين قتلوا ولداته الذين خطفتهم المنية، وأقربائه الذين صرعتهم الحروب . وفي غمرة من تلك الغمرات اللاحية وصلته رسالة من وطنه تحمل إليه النبأ بوفاة أبيه وبأنه قبل وفاته كتب له رسالة يوصيه فيها بالبر ويحضه عليه . وفزع ابن حمديس للنبأ وزاد في حزنه لإحساسه بأنه غريب ، واجتمعت في نفسه عواطف الغريب الذي فقد شخصاً من أحب الناس إلى قلبه ، فرثى والده بقصيده باكية كانت أول الغيث من تلك الدموع التي ظل يبكي بها الوطن طوال حياته :

أتاني بدار النوى نعيه	فيا روعة السمع بالداهية
فحمر ما ابيض من عبرتي	وبيض لمتى الداجية
بدار اغتراب كأن الحياة	لذكر الغريب بها ناسيه
فثلت في خلدي شخصه	وقربت تربته القاصيه
ونحت كئلكي على ماجد	ولا مسعد لي سوى القافيه
وما أنس لا أنس يوم الفراق	وأسرار أعيننا فاشيه
ورحت إلى غربة مرة	وراح إلى غربة ساجيه
مضى وهو مني أخو حسرة	تمازج أنفاسه الراقيه

فلم يبك في القصيدة أباه بمقدار ما بكى نفسه، ولم يتأثر لموت أبيه بمقدار ما أثر في نفسه أنه لم ير أباه قبل الموت . وفي هذا الحزن الجارف تمثل تلك الصورة المحبوبة لديه ، وتذكر يوم الفراق ، وحسرة أبيه وهو يودعه ، كأنما كان يحس من يومئذ أنه يودعه إلى الأبد .

ولكن ابن حمديس لم يغادر الأندلس بل ظل يمدح ابن عباد متكئاً في مدحه على ما كان يعده أكبر حقيقة لديه ، إذ أخذ يذكره أن تعلقه به شديد وأن حبله به وثيق لم يقطعه موت أقربائه في الوطن ، ولم يجذّه موت أبيه ، وكان حقيقاً به أن يرجع ولكن لطف ابن عباد قيده (١) :

وكم حوى الترب دوني من ذوى رحمي      وما مقلتُ لبعدي منهم أحدا  
ولم يسرني من مثواك موتُ أبي      وقد يقلقلُ موتُ الوالد الولدا  
وما سددتُ سبيلي عن لقاءهم      لكن جعلتُ صفادى عنهم الصفدا  
وحسن برّاً إذا فاضتُ حالوته      على فؤادى من حرّ الأسى بردا

في هذه الفترة من حياته كان يشيد بانتصارات قومه ويمدحهم ويحضرهم على مواصلة القتال ويحذرهم الغربة، وينصحهم بالاعتماد على أنفسهم، فإنه لن يغنيهم تطلعهم إلى الناس . ولكن بصقلية سقطت فهز سقوطها قلبه ، ولم يكذب يفيق من هول الصدمة حتى رأى نفسه يقف إلى جانب ابن عباد الأسير في أغمات ، وكأنما شعر بصقلية تسقط مرتين، وربما كان في المرة الأخيرة حادث انكسار المركب به أثناء خروجه من الأندلس وغرق جارية له تسمى جوهرة . وهو يشير إليها في كتاب كتبه إلى ابن عمته أبي الحسن بعد أن كتبت له السلامة (٢) :

ألم أكُ في الغرق مشيراً براحتي      فلم أنجُ إلا من لقاء حماي  
ألم أفقد الشمس التي كان ضوءها      يجليّ عن الأجفان كل ظلام

(١) القصيدة رقم ١٠١ .

(٢) الديوان : القصيدة رقم ٢٨٢ .

طمعت بهذا كله في لقاءكم لتغرم نفس" أثلقت بغرام  
وأقام في أغمات مدة قريباً من المعتمد واتصل بأبي القاسم قاضى سلا (١)  
ومدحه، ولكن مقامه لم يطل وعاد إلى المهديّة — إلى الأمير تميم فدحه ومدح ببجاية  
المنصور بن الناصر بن علناس، ثم اختص بمداخلة بعد تميم ابنه يحيى وعلى بن  
يحيى والحسن بن على. وفي هذه الفترة الطويلة يجد الدارس قصائد تصور العلاقة  
بين صقلية النورمانية وشمال إفريقيا ويستشف منها كيف وقفت الأيام بآبن  
حمديس وقفة من يهاجم أعداء بلده لا بالسيف والرمح ولكن بالشعر.  
وطال به العهد في إفريقيا في ظل بني باديس وغيرهم، وظل يتردد ما بقي من  
عمره الطويل بين المهديّة وبونة وبجاية وميورقة وفقد بصره في أواخر حياته (٢)  
وأصبحت العصا ضرورة لازمة له، ومرة نراه يدخل على كرامة بن المنصور  
صاحب بونة، وهو كفيف البصر، فيقول له كرامة: كيف حال الشيخ فيجييه  
كيف حال من كان صاحب عينين فصارتا غينين فقال له كرامة: "خذ هذه  
العصا وتعكرز عليها" فد يده فوجد غلاماً باعه بعد ذلك بثلاثين ديناراً (٣). ومع  
ذلك فإنه لم يشر إلى فقدان بصره في شعره؛ وفي الثمانين من عمره كان نشاطه  
الفنى لا يزال قوياً — على ضعفه وشيخوخته — فكلم رثى من أناس ماتوا وهو في  
تلك السن، وكم نظر إلى الثمانين وهو لا يصدق أنه بلغها، وكأن رثاءه للناس  
كان رثاء يمهّد به للبكاء على نفسه؛ وكأن توقد الشعلة في ذلك العام كان إيذاناً  
بانطفائها وفناء ذلك «العنصر» الحساس. وفي شهر رمضان عام ٥٢٧ توفي ودفن  
ببجاية. أما القول بأنه دفن في ميورقة بجانب ابن اللبانة (٤) فخلط بينه وبين أبي  
العرب الصقلى، لأن أبا العرب هو الذى دفن بميورقة إلى جانب الشاعر المذكور (٥)

(١) الديوان: القصيدة رقم ٣٥٦ ورواية الأخيرة أكل.

(٢) أشار ابن خلكان إلى أنه عى انظر المكتبة: ٦٢٦ ورواية السلى تؤيد ذلك.

(٣) السلى: المعجم المجلد الثانى الورقة ٢٨٢.

(٤) هو نص ابن خلكان في المكتبة: ٦٢٦.

(٥) التكملة: الترجمة رقم ٥١١ وفيها أن أبا العرب كان طولا وابن اللبانة دحداحاً.



## الشعر الصقلي في ديوانه

أربعة وعشرون عاماً في صقلية — تلك هي كل الفترة التي عاشها ابن حمديس في وطنه، على التحقيق، أما إذا شئنا المجاز قلنا إنه عاش كل حياته في ذلك الوطن — أى في ظل تلك الأعوام التي وعى ذكرياتها وأحداثها. وقد كانت تلك السنون هي عصر الشباب، وفي ذلك العهد تكونت النواة الأولى لشاعريته فشعره في صقلية إبان الصبا هو شعر الفارس المحارب الذي يلتفت إلى آلات الحرب والسفن الحربية ويعتز بالقوة ويحب فيكون حبه عارماً وشهواته فاتكة، ويتردد بين عنف الحرب، ورقة الحب. وهذا ما نلمسه في قصيدة له من ذلك العهد مطلعها (١):

لى قلب من جامد الصخر أقسى وهو من رقة النسيم أرق

وفي هذا الشعر الذي قاله في الصبا فخر بالضرب والطعن وبالفتك الشبهواني، وهي نشأة عارمة تمثلها لك القصيدة التالية (٢):

وذا ذوائب بالمسك ذابت	بلغتُ بها المنى وهي التنى
منغمة لها إعزاز نفس	يصرفُ دلهما في كل فن
شموسٌ من ملوك الروم قامت	تدافع فاتكاً عن فتح حصن
بخد لاح فيه الوردُ غصناً	وغصنٌ ماسٍ بالرمان لذن
فطالت بيننا حربٌ زَبون	بلا سيف هناك ولا عجنٌ
وفاضت نفسها الحمراء منها	وفاضت نفسي البيضاء منى

(١) القصيدة رقم ٢٠٢ ويجرى معها من قصائد الصبا رقم ١٦١، ٣٠٦ وأظن أن ٢٤٣ من ذلك العهد. أما القصيدة رقم ٤٩ فتشير إلى غزوة أندلسية.

(٢) القصيدة رقم ٣٠٦.

فى هذا الشعر - والشعر الذى قاله فى صباه عامة - قوة الشباب واندفاعه وحرارته وحدة شهواته وصوره المستمدة من حياة القتال ومن دفاع الروم ومن مهاجمة الحصون. وقد ظل ابن حمدوس عاكفاً على هذه الصور يحبها لأنها كانت جزءاً من شبابه ؛ وبعد أن خفت صوت الشباب عنده ، ظل قوى الشعور جارف الرغبات ، يكلف بوصف المعارك البحرية خاصة .

وقد بقى ثمانى سنوات بعد خروجه من صقلية وهو يعلق أملاً كبيراً على جهاد ابن عباد الصقلى وبنى حمود بقصريانة وجرجنت ، ويتوقع أن يكمل جهادهم بالنصر فى النهاية . وكانت هذه الفترة كلها فى الأندلس وفيها نظم قصائده « الصقليات » وهو فى طور مزهر بالآمال ، وفيها أيضاً نظم القصائد التى يبكى فيها صقلية إثر سقوطها مباشرة <sup>(١)</sup> .

وفى القصائد التى كانت فى عهد الرجاء نجده يفتخر بقومه « بنى الثغر » الذين يغذى فطيمهم من حلب الأوداج ، ويثنى على شجاعتهم وحرهم للروم فى البر والبحر ، ونكاية سفنهم ونفطها المحرق فى أعدائهم ، ويقر لعدوه بالقوة شأن الفارس الذى لا يفخر فخراً كاذباً :

ومتخذى قمص الحديد ملابساً      إذا نكل الأبطال فى الحرب أقدموا <sup>(٢)</sup>  
كأنهم خاضوا سراياً ببيعة      ترى للدبا فيها عيوناً عليهم  
صبرنا لهم صبر الكرام ولم يسغ      لنا الشهد إلا بعد ما ساغ علقم

وفى كل قصيدة من هذه القصائد « خاتمة حنين » إلى الوطن هى أضعف ما فى القصيدة من حيث النفسية :

أحنّ إلى أرضى التى فى ترابها      مفاصلُ من أهلى بلين وأعظمُ  
كما حنّ فى قيد الدجى بمضلة      إلى وطن عودُ من الشوق يرزمُ

(١) القصائد التى نظمها فى دور الأمل بنجاح المقاومة هى ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ والقصائد التى قاذى يبكى الوطن إثر سقوطه هى ١٥٧ ، ٢٣٨ ، ٢٧ (بعد سقوطه بسنين) .

(٢) رقم ٢٦٩ .

وفراه في قصيدة أخرى يحرض « بنى الثغر » على الجهاد ، ويدعوهم إلى أن يتركوا النوم ، وأن يردوا وجوه الخيل نحو معركة تتكشف للروم عن ثكل ويتم ، ويصولوا عليهم بالسيوف ، وينفذ من ذلك إلى تذكيرهم بحق الوطن وعلوه على كل بلد آخر (١) :

فأهواؤكم في الأرض مشورة النظم	ولله أرض إن عدمتم هواءها
من البين ، ترمى الشمل منكم بما ترمى	وعزكم يفضى إلى الذل والنوى
ولا جارها وانحلم كالجار والحلم	فإن بلاد الناس ليست ببلادكم
وكم خالة جداء لم تغن عن أم	أعن أرضكم بغنيكم أرض غيركم
لدى كما نيط الولي إلى الوسمى	أخلى الذى ودى بود وصلته
ومت عند ربيع من ربوعك أورسم	تقيد من القطر العزيز بموطن
فلن يستجيز العقل تجربة السم	ولياك يوماً أن تجرب غربة

وفي هذه القصيدة يتكئ ابن حمديس على قوته الخطائية ، ويستفيد من تجربته التي عرفها في الحياة — تلك الغربة أو ذلك السم الذى ذاقه ، ولا يريد لغيره أن يجربه ، ولذلك يحرض أخاه في الوطن أن يموت مدافعاً عن وطنه ، فذلك أجدى عليه من الضرب في بلاد الناس. ولا ندرى أى روح أشاعتها هذه النصائح في نفوس السرقوسيين ، وأى قوة بعثتها في دمائهم ، ولكن الذى ندرىه حقاً أن هذه النغمة لم تطل ، فلم تلبث سرقوسة أن سقطت ، وغرق ابن عباد الذى كان يحيى الأمل في نفس الشاعر ، وسقطت قصر يانة وغرقت الأحلام التي كانت تراوح ابن حمديس وتغاديه في كأس من اليأس ، وسقطت دمة كان يحبسها وتحديثه نفسه أن اليوم الذى يذرفها فيه لم يحن بعد (٢) :

أعاذل دعنى أطلق العبرة التي عدمت لها من أجمل الصبر حابسا

(١) رقم ٢٧٠ .

(٢) رقم ١٥٧ .

لقد رت أرضي أن تعودَ لقومها      فسأت ظنوني ثم أصبحتُ يائسا  
 وعزيتُ فيها النفس لما رأيتهما      تكابد داءً قاتل السمّ ناحسا  
 وكيف وقد سيمتُ هواناً وصيرتُ      مساجدَها أيدي النصارى كنائسا  
 إذا شاعت الرهبانُ بالضرب أنطقتُ      مع الصبح والإساءة فيها النواقسا  
 صقليةٌ كاد الزمانُ بلادَها      وكانت على أهل الزمان محارسا  
 فكُم أعين بالخوف أمست سواها      وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا  
 أرى بلدى قد سامه الرومُ ذلةً      وكان بقوى عزه متقاعسا  
 وكانت بلادُ الكفر تلبس خوفه      فأضحى لذلك الخوف منهنّ لابسا

ومن حقنا هنا أن نسجل لابن حمديس هذه الروح الدينية التي شاعت في هذه القصيدة ، إذ لم نلمسها من قبل إلا في كلمة الجهاد المبهمّة ، أما هنا فإن المسجد قد احتل مكانته من نفس الشاعر ، والغيظ على تلك النواقيس التي كان يدقها الرهبان دقّ في صدره — كان ابن حمديس يحب الوطن سواء اقترن بشعور ديني خاص أو لم يقترن ، وكانت ذكرياته من ذلك الوطن سيفاً وكأساً وقينة ، فلو أنه كان يمس الوتر الديني في قصائده لكان كاذباً مع حياته ومشاعره . لقد كان يقدم الوطن على كل اعتبار آخر لأنه « الدين » الأوّل الذي يؤمن به ، أما في هذه القصيدة فإن الدين لا يذكر إلا سمة من سمات التغير التي جرت على الوطن وأهله . وحسبك أن لا تلمح في ذكر الدين هذا استنفاراً أو طلباً للنجدة ، فكل ما هناك صورة من تغير حال الوطن بعدما فقد حماته الأبطال ، ولذلك ذهب ابن حمديس يثني على بطولتهم ويشيد بانتصاراتهم في قلورية ، ويعرج على قصر يانة فيبكي دروس الإسلام منها ، ويتذكر سرقوسة وكيف أصبحت دار منعة لأعدائها ، ولا عجب فقد أصبح أهلها الأبطال تحت الثرى ، ولم يكن للأعداء حيلة فيها وهم فوقه ، والذئب يتبختر في الغيل حين يغيب الأسد .

ومن المصادفات أن المعتمد سجن وسيم الذل سنة ٤٨٤ وتمّ للنورمان احتلال صقلية كلها في هذا العام . وفقد ابن حمديس صقلية والأندلس معاً ، وعادت المقادير فطرحته إلى أفريقيا . فوجد نفسه من جديد في بلاط تميم . واجتمعت كل المآسى في نفسه تذكّر بالفردوس المفقود - ذكر صقلية وفتنتها وشبابه في وطنه وصحبته للعرب متبطلا يضيع عمره سدى . وافتخر بنفسه واستشعر اليأس من العودة إلى الوطن . ووصف بطولة قومه ورثى موتاهم . ومدح تميماً لأنه حاول ذات يوم أن ينقذ وطنه فأخفق . وتمثل الحال التي هو عليها فبكى جازعاً لما حلّ به . ومن يومئذ ألقت الدموع مجازي عينيه . وفي قصيدة أو ملحمة من تلك الملاحم جمع ابن حمديس كل تلك الخواطر ، فثّل فيها فنه الشعري كله . وكأنها البرزخ بين ما قبلها وما بعدها وسأقف عندها لأن فيها صورة ابن حمديس -- ابن صقلية

## ٣

## تحليل قصيدتين صقليتين

لم تكن الفقرة السابقة من حديثي عن ابن حمديس أكثر من عرض وترتيب زمني مقارب لتماذج من الشعر قالها منذ أول عهده بالقرىض ، حتى وقف عند ذلك البناء المتماهى . يتحدث عنه حديث الذي يحس عمله الطبيعية بالحياة انقطعت . لأنه دفن تحت الأنقاض كثيراً من الأحباب ، وأصبح التشرد في حياته هو قانون تلك الحياة ، وفقد الوطن أي عصر الشباب ، أي الأمل . وغدا يحيا الحياة كما تجيء . لا كما يريد ، ويتعلل بأشياء من تفاهاتها فيمدح هذا وذاك ، وحيناً يصفق للانتصار - وحيناً يعزى بالانكسار ، ولكن نفسه كانت غائبة عن كل تلك المشاهد تحوم في ربوع سرقوسة والقصر القديم ونوطس . فالفصائد التي قالها في صباه ، أو التي قالها في الأندلس وهو يرجو الأوبة . أو التي قالها بعد سقوط وطنه حتى تلك الوقفة عند تميم بن المعز هي التي تهمن في

هذه الدراسة لأنها هي القصائد الصقلية من حيث الروح والموضوع والزمن .  
وربما كان عددها لا يزيد عن تسع قصائد .

وليس معنى ذلك أنه نسي صقلية فلم يعد يحن إليها ولكن معناه أن تقلب الحياة به قد باعد بينه وبين تلك النشأة، وحكمت عليه السن بالنضج، واستوى له قدر من التجربة، وقدر من الضعف الجسماني، وكان لهذا كله أثر في تلوين فنه بلون جديد غير ذلك اللون الذي سنسميه صقلياً، وكان له أثره في تغيير فلسفته ونظريته إلى وجوده . وإن لم تتغير نظريته إلى صقلية . وقبل أن أنتقل إلى تحليل قصيدته التي يمدح بها تميم بن المعز أدود أن أقف عند هذه القصائد الصقلية وأجمل خصائصها العامة لتكون أساساً لما بعدها من نظرات .

هذه القصائد الصقلية من أصدق شعر ابن حمديس عاطفةً، وسمتها العامة القوة، لقوة الموضوع، ولذلك نحس أن الشاعر يتدفق فيها بكلام متحمس لا يحتاج إلى تلوين أو تصوير، فليس فيه سند من صنعة، وليس فيه وقوف عند التشبيه وعبادة له . وتغلب عليها روح الجندي الفارس الذي يغرق في الحب والحرب، وفيها النواة الأولى لما سيكون موضوعاً رئيسياً للشاعر - أعنى وصف السفن والمعارك البحرية، إلا أن القصائد التي قالها قبل أن يغادر صقلية تدل على أنه كان يعني باللذة أكثر من أي شيء آخر، وإذا كان لنا أن نحكم منها على مستقبل شعره، قلنا : إنه كان يصبح شاعر حب وخر، وإن سواهما من الموضوعات، كان يكون ثانوياً بالنسبة إليه . وهذه القصائد الصقلية الخالصة فيها ذهاب بالنفس شديد، ولكن الرحلة إلى الأندلس ثم ضياع الوطن غيراً كثيراً من ذلك الاتجاه، والتأثير الأندلسي يتضح في بعض المظاهر السطحية والمعاني العامة أكثر مما هو في الروح . ولكن الأثر الصحيح هو الذي أحدثه ضياع الوطن : فغمّة الحزن الجديدة . وتغير نظريته إلى اللذة، والإحساس بالغربة كاملة، كلها تتصل بفقد لوطنه وكالها صبغت شعره بلون آخر غير قوة الشباب .

والقصيدة التي أشرت إليها تمثل هذا الطور من حياته، ففي تحليلها بيان

لمذهبه في الشعر ولبعض خصائصه ويزيد هذا المذهب وضوحاً مقارنة هذه القصيدة بأخرى قالها بعد ثلاثين عاماً من نظمه للأولى، والموضوع في الثانية تشوقه وحنينه إلى صقلية، وبالمقابلة بين القصيدتين يظهر الأثر الذي أحدثه الزمن في شعر ابن حمديس .

أما القصيدة الأولى فمطامعها :

تدرعت صبرى جنة للنوائب      فإن لم تسالم يا زمان فحسارب  
وفي هذه القصيدة يخلق ابن حمديس الفارس الذي فقد قرنه شخصاً كثيرة  
ليبارزها، ويصب عليها نعمة يعجز أن يوجهها إلى عدالة السماء أو إلى القدر، فهو  
يطالعنا بالتحدي أو يطالع به الزمان الذي أودع عنده ثأراً لا يموت، ليقبل الزمن  
محارباً إن لم يشأ السلم، فإنه قد عجم من ابن حمديس حصاة لا تلين لعاجم،  
وهذه الفكرة الحربية تستولى على نفسه فيظن أنه في المعركة حقاً، فإذا به يتحدث  
عن السيف ومآربه فيه، ثم يشفق من هذه الثورة على الزمن لأنه يحس أن غدره  
قليل إذا قيس بغدر الصاحب :

أتحسبني أنسى وما زلتُ ذاكراً      خيانة دهرى أو خيانة صاحبي  
تغذّي بأخلاقى صغيراً ولم تكن      ضرائبه إلاّ خلاف ضرائبي  
ويا ربّ نبت تعتريه مرارة      وقد كان يسقى عذب ماء السحاب  
علمتُ بتجريبي أموراً جهلتها      وقد تجهل الأشياء قبل التجارب

فن هو ذلك الصاحب الخائن ؟ أترانا وقعنا على السر الذي فارق الشاعر من  
أجله صقلية وذهب يجوب في الأرض ؟

وابن حمديس شاعر عاهد نفسه على أن لا يهجو ولكن أي ثورة هذه التي  
يعلمها في قصيدته ؟ إنه يتحدى الزمن ويهجو الصحراء الإفريقية التي عوض بها  
عن وطنه :

بلادٌ جرى فوق البلادة ماؤها      فأصبح منه ناهلاً كل شارب

فطمْتُ بها عن كل كأس ولذة      وأنفقت كنز العمر في غير واجب  
بيت رثاس السيف في ثنى ساعدي      معاوضةً من جيد غيداء كاعب

وإنه ليمقت هذه الصحراء التي لا تجمع له بين الحب والحرب ، لأنها ليست  
عوضاً صالحاً عن ذلك الوطن ، ولأنها لم تحقق له أمنية كان يطلبها :  
بصادق عزم في الأمانى يحلنى      على أمل من همة النفس كاذب

فما هي تلك الأمنية التي طلبها في غير وطنه ؟ أتراه طلب العلا كما يقول في  
بعض قصائده ؟ وما العلا ؟ أم تراه ذهب يطلب المال ؟ لست أدري وإن كنت  
أقف عند التعابير « المالية » الكثيرة في ديوانه ، وعند طلبه الصريح أحياناً للمال  
من ممدوحيه ، وأحس أحياناً بأنى لم أستطع أن أقول إن المال كان غاية له .  
فهل هناك رابطة بين رحلته وبين الذهب وهو يقول لابن عباد في الأندلس (١) .  
بالله يا سمرات الحى هل هجعتُ      في ظل أغصانك الغزلانُ عن سهرى  
وهل يراجعُ وكرأُ فيك مغتربُ      عزّت جناحيه أشاركُ من الغادر  
ففيك قلبي ولو أستطيع من وله      طارتُ إليك يجسمى لحةُ البصر  
قولي لمنزلة الشوق التي نقلتُ      عنها الليالى إلى دار النوى أئثرى  
نلتُ المنى يابن عباد فقيدي      عن البدور التي لى فيك بالبدر

وهل تلك البدرُ هي التي انتزعته من أحضان الوطن ؟ ليس من السهل أن  
يجيب الإنسان على ذلك إن كان يتحدث عن ابن حمديس ، لأن مسألة الفقر  
والغنى غير واضحة في شعره ولن تكون واضحة عند شخص متحفظ في بعض  
أمر تتصل بنفسه وبيئته ، متحرج يعرف مواقع القوة ويتحراها ، ويعرف  
مواطن الضعف ويتجنبه ، وحسبك مفتاحاً لشخصيته أنه حين رثى امرأته جعل ذلك  
على لسان ولديه ، ولكنه حين رثى جاريته تفجع عليها وتغنى بجمالها ، وفي هذه



اللمحة دلالة على نفسيته حين تتصل الأمور بحياته اتصالاً وثيقاً .

إذن فهو ثائر في قصيدته ناغم مغيط يتهجم على الزمن ويتمرر بذكر الخيانة ويهجو الصحراء وسكانها ، ويأبى على غبن ناله بها بعد وطنه ، ويعلم أنه لا يجد من يأنس إليه بل لعله أحسن أنه أصبح منبوذاً يضيق الناس به ، شريداً غريباً لا وطن له ، حتى طيف كان يزوره في المنام أصبح يصد عنه مزوراً :

ولا سكنٌ إلا مناجاةُ فكرة      كأني بها مستحضرٌ كلَّ غائب  
ولما رأيتُ الناس يرهبُ شرهم      تجنبتهم واخترتُ وحدةَ راهب  
أحتي خيالُ كنت أحظى بزوره      له في الكرى عن مضجعي صدّ عتاب  
فهل حال من شكلي عليه فلم يزُرْ      قضاة جسمى وإيضاض ذوائي

وسكن قليلاً حين ذكر الطيف واستحضر كل غائب — كل ما عرفه بصقلية ، فإذا به يذكر الوطن أو السماء التي كان يطلع فيها كوكباً ، وعرج على صداقاته ونداماه ، ووقف عند الحمر ولم يستطع أن يخفي علينا السبب النفسي الذي حمله على تلك الثورة المستطيرة ، وانقلب السكون من جديد إلى صيحة تطير في أذيالها النعمة والأسى . إن سبب تلك الثورة الحانقة معروف لنا حتى ولو لم يصرح به ، إنه عجزه عن أن يعود إلى وطنه :

ولو أن أرضي حيرةً لأنيتها      بعزم يعد السير ضربةً لازب  
ولسكن أرضي كيف لي بفكاكها      من الأسر في أيدي العلوج الغواصب  
لئن ظفرت تلك السكالب بأكلها      فبعد سكون للعروق الضوارب

ولقد عرفنا ابن حمديس من قبل يثني على أعدائه ويصفهم بالشجاعة والقوة ، ولكنه في هذه الفورة من الغيظ نسي كل ذلك وأقذع في السب ، وهو عفيف اللسان ، وعذره العجز وقلة الحيلة التي يصورها قوله « كيف لي بفكاكها من الأسر » — كلمة أسير مقيد في الأصفاد يريد أن يبلغ وطنه فلا يستطيع .

وهذه الأصفاد هي التي تغل روحه الشاعرة في هذه القصيدة وتشد عليها فيجىء شعره صيحات من الغضب والنقمة والسخط والتحدى .

وابن حمديس يخفي تحت السخط والنقمة حزناً مكبوتاً مكفوفاً ليس له مسرب يتصعد فيه أو ينحدر . وكيف يكون له مسرب وهو قد بدأ قصيدته بالتجند وادراع الصبر . وهذا الكبت في الحزن آت من حقيقة واحدة لو وجدت في القصيدة لاتخذت شكلاً آخر . وتلك الحقيقة هي فقدان صوت « الصارخ الفزع » . إنه لا يتفجع على وطنه ليستصرخ الناس ويستنجدهم ويهيب بهم للعمل من أجل وطنه باسم الدين أو باسم الجهاد ، ولا يتحدث عن وطنه ليستمد منهم عطفهم ودموعهم ، هو ناقد حقاً ولكن على من ؟ إنه مع إعلانه في القصيدة بمسئولية بنى وطنه ، لأنهم تفتانوا في فتنة وحطبوا لنارها — مع ذلك كان شعوره الداخلي يحدثه أن هنالك مسؤولية أكبر تقع على عاتق المسلمين الذين تخلوا عن صقلية حين كانت في حاجة إلى نصير ، ولكن عوامل نفسية من القوة لم تخل بينه وبين الإفصاح عن هذا الشعور ، فذهب يتحدث عن غدر الصاحب وخيانتة . وأكبر الظن أنه ليس هناك صاحب معين ، وإنما ذلك رمز إلى كل المسلمين الذين تجاهلوا الأخوة الإسلامية والقرابة الدينية ، وتركوا صقلية تعاني الموت وحدها ، وهو مندهش مستغرب من السلبية المطلقة التي واجه المسلمون بها ضياع وطنه ، حيران في أمره وأمر المسلمين معه ، وأقوى شيء يصور هذه الحيرة تساؤله الجازع « كيف لي بفكاكها من الأسر » .

لم يكن ابن حمديس يحمل بنى وطنه مسؤولية ضياعه ، كما فعل بعض الشعراء الصقليين ، لأنه كان يقدّر دور الجهاد الذي قامت به سرقوسة ونوطس وقصريانة ، فهو إذا تحدث عن الفتن بين قومه مر بها مروراً سريعاً لأنه موضوع بكرهه ويراه مناقضاً لما يحس به حقيقة ، ولعل الذي حمله على التعرض له في هذه القصيدة وقفته أمام تميم الذي حاول إنقاذ صقلية ، وكانت فتنة الصقليين من أسباب الإخفاق الذي منى به جيشه ، وأحب من هذا الموضوع إليه أن يتحدث

عن بطولة قومه في الحرب البرية والبحرية وعن بلائهم في الروم ، ليكون هو واحداً منهم وليعد من أبطالهم ويتحقق وجوده النفسى في وجودهم ، ولكن تلك البطولة قذفت بهم في هوة الفناء فغاروا كما تأفل النجوم « وأبقوا على الدنيا سواد الغياهب » ولم تكن الدنيا التى أبقوا عليها ذلك السواد إلا التى كانت تراها عيناه، ومن خلل السواد أخذ يتطلع في حسرة إلى المعاهد والديار، وبعد أن كان يتحدى الكون ، تحدثه شعلة الحنين في صدره فإذا به يبكى كالضعيف :

ألا في ضهان الله دارٌ بنوطس      ودرت عليها معصرات الهواضب  
أمثلها في خاطرى كل ساعة      وأمرى لها قطرة الدموع السواكب  
أحنّ حنين النيب<sup>(١)</sup> للموطن الذى      مغانى غوانيه إليه جواذبى  
ومن سار عن أرض ثوى قلبه بها      تمنى له بالجسم أوبسة آيب

وفي كل تحية وداع أو خاتمة قصيدة يغلب الحزن ذلك الرجل القوى فتساقط الدموع من عينيه .

هذه القصيدة بناء شاق وأكثر قصائد ابن حمديس أبنية شاهدة فيها أجزاء كثيرة تجعل منها في النتيجة كلاً ضخماً كبيراً وتمتاز — كما تمتاز قصائده العاطفية الأخرى التى نظمها في هذه الفترة — بعد ضياع صقلية مباشرة — بوشيجة تنظم أجزائها وتضمن لها الاتساق والانسجام، فهى بناء ضخيم من حيث النغم وتراكب الأجزاء وتسلسلها، ومما يلفت الانتباه أن أكثر قصائده في هذه الفترة بخلاف المقطوعات التى نظمها وهو في صقلية جاءت على البحر الطويل .

وإذا كانت صقلية هى موضوع القصيدة لم يحس الإنسان هذه التجزئة في القصيدة ولكن ابن حمديس، حين كان يفقد التعاطف بينه وبين الأشياء الى يتحدث عنها، كان يرقص نظره بين أجزائها ويسافر فيها مستقصياً ليتكلم عن كل جزء على حدة — ذلك أصبح شأنه إذا وصف قصرأ أو أسداً أو سفينة أو أى

(١) في الديوان : حنين البنت .

شيء آخر ، يحضر الأشياء المبعثرة كلا على حدة ويسلم نفسه إلى التشبيه ولا يعنيه من بعد أن يكون منها صورة مغمورة بالانسجام ، ولست أدعى أن الوحدة مفقودة في قصائده — وقد تكون — ولكني أحس بالفرق بين القصائد التي تزخر بالعاطفة والحنين إلى صقلية وبين غيرها من القصائد . فابن حمديس الشاعر الصادق ، لا الشاعر الصانع ، هو ابن هذه الفترة الغارقة في أحلام صقلية . أما القصيدة الثانية فطلعها (١) :

قضت في الصبا النفس أوطارها وأبلغها الشيب إنذارها

وفي هذه القصيدة يريد ابن حمديس أن يجمع أمامنا أجزاء ذكريات قديمة فليس من الغريب إذا جمعها مبعثرة ، لأن ذاكرته تقفز من منظر إلى آخر . وإنما يوحد بين هذه المناظر أنها مستمدة من الماضي ومن صقلية ؛ وتنسبط صورة الخمر — التي أصبح محروماً منها — على كل منظر وتصرف الشاعر عن إطالة النظر إلى المناظر الأخرى . وتركه للخمر حين نظم هذه القصيدة حقيقة هامة تفسر هذا الاضطراب في ذكر الخمر ثم الانصراف عنها والعودة إليها وهكذا ، والدليل التاريخي على هذه التوبة تصريح ابن حمديس نفسه في غير قصيدة أنه تارك ما ارتآه في الصبا وقوله في قصيدة كتبها إلى ابن عمته أبي الحسن وهو في سن الستين (٢) :

فرغت من الشباب فلست أرنو إلى لهُو فيشغلني الرحيقُ  
ولا أنا في صقلية غلاماً فتلزمي لكل هوى حقوق  
ليلى تعمل الأفراح كأسى فإلى غير ريق الكأس رقيق  
تجنبتُ الغواية عن رشاد كما يتجنب الكذب الصدوق  
وإن كانت صبايات التصابي يلوح لها على كلمى بروق

(١) القصيدة رقم ١١٠ .

(٢) القصيدة رقم ٢١٥ .

وقد نظم هذه القصيدة في الستين أيضاً ففيها اعتراف الفنان لنفسه لا للناس بأن الخمر هي محبوبته الجميلة ، وإن يكن انصرف عنها ، وللسن حكمها ومن ثم لن تسمع ذلك النغم الصاحب الثائر الذي سمعته في القصيدة السابقة ، ولا تلك القوة التي تتحدى الناس أجمعين ، فلا السيف من آلاته ، ولا الغضب من أدواته — إنه أفنى آلات الحرب ووقع في عمر مسالم هادئ ، خمدت فيه الجذوة القديمة ولم تبق إلا ذكراها — لا وطن ولا شباب ، هذه هي الغربة الكاملة التي أحسها ابن حمديس حينما كبر ولذلك نسمعه في بعض قصائده إذا ذكر الوطن صدر قصيدته بذكر الشيب — وهو غربة عن الزمان الجميل — ثم فنى الكلام إلى الوطن — وهو غربة عن المكان الجميل — وأصبحت تلك النقلة في الزمان والمكان هي المؤثر الوحيد في نفسه وشعره ، ولو كانت ذات طرف واحد لما كان حزنه بهذه الحدة .

وفي هذه القصيدة غاب الوجود كله من حوله وانعدمت صور الأشياء من ذاكرته إلا صورة ليلة ساهرة قضها في صقلية . كانت ليلة ذات أشباه ، رأى فيها شيئاً واحداً تعددت له الأسباب ، رأى الخمر فذكرته بالساقية ، ثم رأى النداءى فعاد يتحدث عن الخمر ، ثم تذكر ليلة في دير فرجع إلى الخمر . . . رأى الخمر في عدة أوضاع وأحس بها هنا وهناك كأنما تخيلها تتسرب كالروح في جسم الوجود ، رآها في يد الساقية ليلاحظ اختلاط لونها بخضاب كف الساقية كأنه رأى المعجزة أو اتحاد العنصرين ، وهو كلف بالعناصر فإذا تغزل خاطب حبيبته بقوله (١) :

عذبتنى بالعنصرين بلظى حشاي وماء عيني

فالعنصرين في شعره سيطرة بعيدة المدى . ورأى الخمر بين النداءى تبعث الضياء وتنسج شبكاً من الحباب تصيد به ما يحاول منها أن يطير ، ورآها في الدير

واهتدى إليها برائحتهما الجميلة ، وإلى جانبه نديم متفرس عارف بالخمير يستطيع أن يحسب عمرها من رائحتهما .

في كل حين وقفة عند الخمر ، تتردد فيها المعاني الخمرية التي أشرت إليها من قبل في شعر الخمر الصقلي عامة ، وهي اجتماع العنصرين ، وفكرة الشبكة والصيد، واستمداد بعض الصور الحربية في قتل الخمر للهموم أو شنها الغارة عليها . وليست هنا وقفة عند الخمار أو الساقية أو الندامى أو لون الخمر وأثرها بقدر الوقوف عند رائحتها ، فهي التي هدت الشاربين إلى نفسها بما أذاعته من سر لأنوفهم ، وهي عديل المسك في دارين ، والمتفرس فيها يزيكها برائحتهما وشم طيبها . وتماثل ذلك المجلس الخمرى صورة القيان والمغنيات والراقصة ، والقاعة مضاءة بالشموع التي تحمل الدجى على رأسها ، وتحاول أن تهتك أستار الظلام بالنور ، وكأن الآجال مسلطة على أعمارها فهي تنمحق ولا تفنى في يسر . ولم يقل ابن حمديس إن هذه الشموع مثله تسعى إلى الفناء مع أنه كان يحس بمر الزمن ويعد عمره عدا . ولم يتعز بمنظرها وهي تموت فقد كان يريد أن يبعد فكرة الموت عن نفسه لأن الموت لا يتفق والشباب ، وهو في هذه القصيدة يصور الشباب . ولكنه في واقع أمره كذلك الشموع — حمل مسئولية الأسى على رأسه طيلة عمره ، من شدة أسفه على وطنه وشبابه فيه ، حتى ليقول لنا إن الناس قد بكوا الشباب ولم ينصفوه ، وجاء هو يستدرك ما فات الناس جميعاً <sup>(١)</sup> :

بكى الناس قبلى فقد الشباب      بدمع القلوب فما أنصفوه  
وإني عليه لمستدرك      من البث والحزن ما أهملوه

وهو كذلك الشموع صهر نفسه شعراً حزيناً منيراً بصدق العاطفة ، وهو الذى ينمحق عمره بما سلبت عليه من أجل .

وقد اختلفت هذه القصيدة في النغمة عن سابقتها فليس لها ذلك الشكل

(١) القصيدة رقم ٣٢٧ .

« القوطى » الضخم ؛ ولكنها حزينة ذابت فى أثنائها وطواياها تلك الفحولة التى كانت تملئ قصائد الشباب ، ونخفتت تلك الفروسية التى كانت تشيع القوة فى النفس ، وفيها أوتى ابن حمديس القدرة على التعبير الجميل — لا التعبير القوى كما فى أختها السابقة — إذ كان الحزن قد مسح شعره بهذه المسحة الحبيبة، وكان فضجه فى السن قد صرفه عن القوة إلى محاولات أخرى يزين بها شعره . فالفهوة تذيع لأنفك أسرارها ، وفى التردد بين الحركة والسكون جمال عجب يتمثل فى قوله :

وقد سكنت حركات الأسى قيان تحرك أوتارها

وتكاد القصيدة كلها تكون نموذجاً لجمال التعبير ، وفيها القدرة على التصوير الجميل . كصورة الشموع التى تقل الدجى على رأسها :

تقل الدياجى على هامها وتهتك بالنور أمثارها

وفيها صورة بارعة للراقصة ونخلة حركتها . ومع ذلك فإن الشاعر لا يزال فى بعض صوره يذهب مع تلك المبالغات التافهة المحلية ، وهى أمور تسربت إلى شعره منذ البدء فلم يسلم منها من بعد ، فالدن مضمار للكوب ، والدموع أنهار صقلية لولا ملوحها — مبالغات فيها الاستجلاب المتكلف لصورة بعيدة أو حقيقة مستحيلة ؛ واجتمع إلى القدرة على التعبير الجميل تلك الحركة التى تنبض بها كل صورة وكل لفظة ..

وربما كانه يستعين على التصوير بالتحريك لأنه يحس بسكون القوى الطبيعية فى جسمه ، وتأمل كيف يخونه الضعف الجنسى الذى صار إليه فيعلن عن نفسه بقوله فى القيان :

فهذى تعانق لى عودها وتلك تقبل مزمارها

وكلمة « لى » فى هذا البيت ، التى تدل على الملكية والتخصيص إنما

تؤكد ضياع ذلك الملك الذى كان - ضياع قوة الشباب ، ولكن الشاعر قد نسى واقعه وهو يخلق هذه القصيدة ، وعاش فى فترة الشباب يوم كانت تلك الملكية من أدواته .

وسواء أحسّ الشاعر أم لم يحسّ بضعفه فإنه لجأ إلى أمور يخفى بها وجه ذلك الضعف ، فاستمد من روح الفتك القديمة بعض تعابيره :

خطبنا بنات لها أربعا ليفترع اللهو أبكارها

وتلاعب تلاعباً جميلاً - لفظياً كان أو معنوياً - ليزين الصورة :

طرحت بميزانها درهمي فأجرت من الدن دينارها

أو جانس فى اللفظ أو اتكأ عليه - كما كانت تضغط يده على العصا - وهو يشد على الحروف شداً يخيل إليك معه أنه يفتعل القوة افتعالا .

فالساقية « زرّرت » أزرارها والقيان « سكّنت » حركات الأسي ، وواحدة منهن « تقبّل » مزمارها والشمع عمد « صفّفت » وهى « ثقل » الدجى على هامها وكأنها « تسلّط » عليها آجالها « فتمحق » أعمارها والأسي « يهيج » التذكار وهكذا فى كل القصيدة حتى تستطيع أن تصلح بعض الروايات فى قراءة أبيات معينة منها فابن حمديس لا يقول فى هذه القصيدة « وراهبة أغلقت دبرها » ولكن يقول « غلّقت » ولا يقول ثور فيقتل ثوارها وإنما يقول « فإن ثرن قتل ثوارها » حتى إذا انتهى الوصف فى هذه القصيدة ووقفت الحركات ، وقف ابن حمديس - كما يفعل دائماً - وقفة الحزين الذى يجر لحنه الأخير جراً ليشعرنا بأنه قارب النهاية فقال :

ذكرت صقليّة والأسي يهيج للنفس تذكارها

ومنزلة للصبا قد خلت وكان بنو اللهو حمارها

فإن كنتُ أخرجتُ من جنة فلانى أحدث أخبارها

وعند هذه الغاية نشهد آدم القديم يتحدث عن نفسه وعن الجنة التى أخرج



منها . غير أن آدم أخرج من الجنة حقاً فهل خرج ابن حمديس من جنته مختاراً أو وجد من أخرجه ؟ ويعود هذا التساؤل ينير الحيرة في غربة مختارة أو غير مختارة ، وحسبنا أن ابن حمديس يقول إنه أخرج من هذه الجنة دون أن يذكر لنا الخطيئة التي أخرجه أو الثمرة المحرمة التي أكل منها . ولكن من تتبع ابن حمديس في ديوانه يجد « الذنب » شبحاً يلاحقه كقوله في غربته (١) :

ألم ترَ أنا في نوى مستمرة نروح ونغدو كالمصر على الذنب

وقوله في الصحراء (٢) :

كأنك في ذنب عظيم بقطعها فأنت إلى الرحمن منه تتوب

وتردد صورة آدم في نفسه فيقول (٣) :

قد كنت في عهد النصيح كآدم لكن ذكرتُ هوى الدمي فنسيت

ولست أرى بأساً من اعتبار ابن حمديس تحت ظل ذنب معين بهذه الأبيات وغيرها .

نعم إنه آمن بأن حياة اللهو كانت ذنوباً، وأظهر الندم عليها في آخر عمره ، وكانت صورة جده الشيخ الناسك الذي ضمه إلى صدره تتعرض من وراء السنين لتتنظر إليه نظرة لوم على حياته اللاهية ، ولكن لعل الخطيئة الكبرى كانت تشغل حاله ، والخطيئة الكبرى في حياته أنه قصر حتى في حق وطنه ، وإذا كان آدم قد نسي فأكل من الثمرة فإن ابن حمديس نسي الثمرة حين كانت في حاجة إلى رعايته . لقد رأيناه يحرض الصديق على أن يموت دفاعاً عن وطنه فلم يقل هذا لنفسه ؟ ورأيناه دائماً يتمدح ببطولة قومه يمدح نفسه فيهم ، ويتستر وراء حادثة أو اثنتين باشر فسمما العمل فعلاً من أجل وطنه ، ولكن ضميره كان يحدثه

(١) القصيدة رقم ٢٨ .

(٢) رقم ٢٩ .

(٣) رقم ٤٧ وانظر أيضاً رقم ٤٠ .

بالذنب الذى ارتكبه ، ومن ذلك الذنب نجمت طائفة كبيرة من الحزن الذى ظل يصيب حياته حتى لقي الأجل . وقد كنا دائماً نتساءل لمّ خرج من صقلية فدعنا نسأل لمّ لم يعد إليها ، ففي الجواب على هذا السؤال تفسير لفكرة الذنب . لقد قال لنا إنه يعيش فى ظل مثل معينة ولا يطيق أن يرجع إلى بلد فقد حرّيته : ولو أن أرضى حرةً لأتيتها بعزم يعدّ السير ضربة لازب ولاكن أرضى كيف لى بفكّاكها من الأسرى أيدى العلوج الغواصب وحدهنا أنه يطلب العلا وتكلم عن ذلك كلاماً مبهماً . أما فى الحقيقة فإنه لم يرجع لأنه كان يتمثل وطنه عاتياً عليه ، وكان ذا حس مرهف بمرارة ذلك العتاب ، فأثر الغربة ليغسل بدموعه ما كان يعده ذنباً . لم تكن عودته مستحيلة حتى أيام الحكم النورمانى ، وكان أهله يكاتبونه لعله يعود ، فكان يقول لهم : كيف أعود إليكم وأمرى بيد القضاء وبأى عين أراكم شيوخاً بعد أن عرفتكم شباناً ، وترونى شيخاً بعد أن عرفتمونى غلاماً ؛ ولم تغرب ؟ ألا تذكرون أننى أطلب العلا (١) :

وكيف أرى لى قصلد وجهى إليكم إذا كان فى كف القضاء زماى  
وما هى إلا غربة مستمرة أرى الشيخ فيها بعد سن غلام  
كأن قذالى بالقتير معوض قبيلة سام من قبيلة حمام  
وما شيب الإنسان مثل تغرب يمرّ عليه اليوم منه كعام  
وهل رحت إلا طالباً بالنوى كأنى منها للنجوم مسام

لم يكن ابن حمدىس كاذباً فى حزنه على وطنه وما صار إليه قومه ، ولكنه كان مغلوباً بطمع واحد صرف قوته فى وجهة أخرى — ذهب يطلب العلا — ولا أستطيع أن أفهم من هذه العلا إلا أنه ذهب يطلب الشهرة بالشعر . كان ذلك هو حلمه منذ أن أصبحت تطيعه القوافى — وإن لم يصرح لنا بهذا — ولم تكن

صقلية المحدودة تسع أطماعه المترامية ، وخرج وهو يقدر أن يعود ، ثم أرادت له الأقدار شيئاً آخر فلم يعد يستطيع أن يرجع إلى صقلية ليعيش مادحاً لقوم أعلن عليهم سخطه ، ورأهم سبب المصيبة التي حلت بوطنه ، ورضى بالغربة ليبكى تقصيره في حق الوطن ، ولم تطمئن به حاله حيث وقع ، لولا أمل " كان يراوده بأنه سيكون شاعراً كبيراً في بلاط أمير كبير .

#### ٤

### الآثار التي تركتها صقلية في نفسه وشعره

كثرت المؤثرات في حياة ابن حمديس وفي شعره بعد صقلية — زادت تجاربه في الحياة ، واتسعت ثقافته ، وأخذت وقدة الشباب تخمد في كيانه ، واحتضنته بيئة أو بيئات جديدة تغاير صقلية في مؤثراتها ومظاهرها ، فأصبح في شعره مجال للتجربة التي تهيئها السن ، ومجال آخر للثقافة التي يزوده بها الدرس . وبعد أن كانت صقلية تريد لشعره أن يسلم من وصف الناقة والرحلة للمدوح ، ووصف الأطلال عادت البيئة الإفريقية فأمدته بهذا اللون ، وأملت عليه الحروب المتتالية بين إفريقية وصقلية أن يفسح للدين والجهاد في سبيل الإسلام — بدلا من الجهاد في سبيل الوطن — موضعاً في شعره .

ولكن هذه الحياة بما فيها من ألوان لم تستطع أن تنسيه صقلية إذ لم يكن لها قبل بمحو الشباب وذكرياته ، بل لعل صقلية ظلت أقوى من كل مؤثر جديد إذا كان صدق الشعور دليلنا على قيمة كل مؤثر ، جديداً كان أو قديماً . وما كان ابن حمديس يتحدث عن شعوره ببساطة صادقة مزودة بشعلة عاطفية ، إلا حين كان يذكر صقلية أو شيئاً يتعلق بها ، وما كان يصحو إلى حقيقة وجوده المنظوى على مأساة ، إلا حين كان يبلغه كتاب من قريب أو صديق أو

يصله نعي قريب صقلى أو صديق - وكانت أكثر ذكرياته من وطنه تتصل  
بمتعة الشباب وصداقاته ، أى تتصل بالأشخاص ، وفى إحدى القصائد نراه يذكر  
الوطن بأزهاره فقد رأى النيلوفر مرة فقال :

هو ابن بلادى كاغترابى اغترابه      كلانا عن الأوطان أزعجه الدهر

وهذه العلاقة بالناس وذلك الحب لهم يفسران لنا جانباً هاماً من شخصية  
ابن حمديس الشاعر الذى كان يحب الجماعة ولا يقوى على العزلة ، أما النعمة  
التي قد تصادفنا فى ديوانه على الناس وأهل الدهر فنقمة عارضة تملئها حوادث  
عارضة .

ولما كان هذا البحث لا يتحمل دراسة الآثار التي تركتها صقلية فى نفسه  
وشعره بالتفصيل - لأن شعره يتصل أثناءها بغير صقلية - فلأى أجمل تلك  
الآثار إجمالاً :

١ - قضى ضياع الوطن بتغير فلسفته فى اللذة - كما أشرت من قبل -  
وبعد أن كانت الخمر غاية فى نفسها أصبحت عوناً له على نسيان الهموم .  
ولقوة همومه أصبحت الخمر أداة تحركها بدلاً من أن تعمد لها ، وقد لمح هو  
هذه الظاهرة فى حياته ، فى قصيدة لعلها من القصائد التي قالها بعد سقوط صقلية  
فقال :

يجر على شرب الراح همّاً      ويورثُ قلبيَ الشدوُ اكتئاباً  
وفى خلق الزمان طباع خلف      تمرُّ فى فى النغب العذابا

٢ - ومن ثم اتصل الحزن بقلبه وبجيته ، فقضى طول عمره يبكى مصائب  
الناس ويشاركهم فى أتراحهم . نعم إن نصيبه من الشعور الإنسانى كان وافرأ  
ولكنه كان فى كل مصيبة جديدة يبكى صقلية القديمة ؛ وكانت الجزيرة تحضر

في نفسه دون استدعاء واستجلاب ، لأنها دائماً حاضرة لاتغيب . وقد يفهم من هذا أن بكاءه مع الآخرين كان تظاهراً ، ولكن الأمر لم يكن كذلك فإن صقلية كانت تتمثل له في كل حزن فيبكي مصائب الآخرين بشعور من الحزن عميق الجذور ، وذلك التمثل الدائم قد جعل حزنه في كل مرحلة وعند أية مصيبة يظهر صادقاً . وكانت كل حاجة لديه تتمثل له بناء ينقض لأمرين : لأن صقلية تهدمت وأصبح يراها طلالاً - ويبكي الأطلال من أجلها - ولأن ابن حمديس بناء كانت الأعوام تشرف به على السقوط . وحدة بكائه على ماضيه مستمدة من علاقة هذا الماضي بصقلية ، ومن ثم عاش في ذلك الماضي ، فكان كالرحالة الذي يحدث عن عجائب ما رأى ، وكان في استطاعته أن يكبر تلك الذكريات ويضخمها لأنه كان يطل على مشارف كل حاضر يجد من أبعد نقطة فيه ، ومع ذلك فإن ابن حمديس لم يغال في ذلك .

٣ - واستولى عليه الشعور الدائم بالغربة وفي هذا وحده دليل كاف على أن البيئات الجديدة لم تكن تتجاوب مع قلبه . وقد بدأت الغربة في حياته حقيقة تتصل بيوم الفراق ، وانتهت أكبر حقيقة تاريخية عاطفية في حياته ولما شاء أن ينظر إلى أول يوم أزمع فيه الرحلة ، قرنه بالتنبؤ لها ، وأنها ستكون رحلة وحسب ، طرفها الأول يوم الفراق وطرفها الثاني الأجل . وربما لم يكن لهذا التنبؤ من وجود ولكن عز عليه أن لا يكون للاشفاق من فراق الوطن نصيب في قلبه منذ البداية وإلى هذا يشير قوله :

وقالت غرايبٌ دَرَجَنَ بينه      سيستدرج الأيامَ وهو غريب  
فما كان إلا ما قضى بالها به      فهل كان عنها الغيبُ ليس يغيب ؟

وتنبه هذا المعنى - الغربة - في حياته لما مات أبوه ، وأصبح يرى في وطنه منبعاً بقذف بالغرباء سواء في ذلك من يموت أو من يرحل :

ورحت إلى غربة مرة وراح إلى غربة ساجيه

ولما توفيت عمته لم يؤلمه شيء بقدر ما آلمه أنها ماتت غريبة :

فيا ليتني شاهدتُ نعشك إذ مشى      حواليه لا أهلى حفاةً ولا صحبي  
ودفنتك بالأيدي الغريبة والتقت      مع الموت في إخفاء شخصك في حذب

وحسبك أنه رجل لم يطعن به جنبه في أى مكان حله ، حتى إنه ليحس في الثمانين أنه غريب ، وقد كان من المنتظر أن ينسبه مر الأعوام أمله بالعودة إلى الوطن ، ويمهد وطناً جديداً ، ولكن الأعوام زادت شعوره بأن الوطن في ذلك الاتجاه الواقع على مسافة كذا من حيث يسكن ، وظل ينظر في تلك الوجهة إلى البقعة التي انتزع منها . رجل في الثمانين من عمره لا يزال يحس أنه غريب أى بعد مضي ست وخمسين سنة منذ أن خرج من وطنه ؟ إن كان لهذا دلالة فإن معناه أن الوطن كان — كل شيء في حياته — وليس كثيراً أن يكون أى أثر إلى جانبه سطحياً ؛ في سن الثمانين قال يرثى ابنته (١) :

أراني غريباً قد بكيْتُ غريبةً      كلانا مشوقٌ للمواطن والأهل  
بكتنى وظننتُ أنني مت قبلها      فعشت وماتت وهى محزونة — قبلى —

ومن هذا الوجد الشديد تشخصت الغربة في نفسه فلم تعد معنى مجرداً هائماً ، وإنما أصبحت هي ابن حمديس ، فإذا ذكرت الغربة أو دعيت أجاب :

أنا من صاح به يومَ النوى      عن مغانيه غرابٌ فاغتربُ  
طففت في الآفاق حتى اكتهلت      غربتى واحتنكتُ سن الأدب

وتلك الغربة التي اكتهلت هي ابن حمديس الذي اكتهل .

٤ — وبقدر ما عمقت صقلية شعوره بالحزن لم تستطع أن تخلق له « مشكلة » يحاكمها ويحوم حولها ويحاول حلها ، كان الحزن في حياته ذكريات متصلة وحلماً

طائفاً من عالم الماضى ، ولكنه لم يصبح فى حياته فلسفة ولا كان نتاجاً لها ؛ حتى الموت ظل حيث كان — ظل تلك القوة الجبارة التى تتخطف العصم وتردى عقاب الجو — كما رآه أبو ذؤيب ذات مرة ، أما هو فلم يسأل نفسه عن المتناقضات التى طرحته الحياة فيها ، ولم تتعقد فى نفسه مشكلة الوجود أو مشكلة الفناء ، ولم يصرخ نائراً لأنه غريب ، بل لم يستفد من هذه الغربة فى المكان فلسفة الغربة الإنسانية عامة ، — كان يشعر دائماً بالعجز إزاء كل مشكلة فيتركها لنفسها ، وكان يطمئن نفسه بعجز الطبيب الذى لا يرد العوادي عن نفسه ، وبعجز الفيلسوف ” عن طرق ليست لأهل العقول منسلكة “ ، وبعجز القائد القوى الذى لا يغنى عنه سلاحه . وظل ينحدر فى درجات السلم لا ليسأل نفسه إلى أين ولكن ليعد تلك الدرجات ، أربعون ، خمسون ، خمس وخمسون ، ستون ، ست وستون ، كان مشفقاً من أن يبلغ النهاية ولما بلغها كانت صقلية لا تزال على شفتيه ، والغربة لا تزال محور حديثه ، وكانت الشيخوخة قد حالت بينه وبين رؤية مشاهد الوجود بعينيه ، ليرى — بعين الخيلة — صقلية وشبابه فيها .

## الفصل السادس

### حياة الشعر في العصر النورمانى

- ١ - شعر هذا العصر من حيث الكم والاتجاه.
- ٢ - وصف القصود والمتنزهات .
- ٣ - الشعر فى البيئة الإسلامية .
- ٤ - مقارنة بين الشعر فى البيئة الإسلامية والشعر فى البلاط النورمانى .





## شعر هذا العصر من حيث الكم والاتجاه

كل ما تبقى من شعر هذا العصر هو ما اقتبسه العماد عن ابن بشرون المهدوى الصقلی، وهو عثمان بن عبد الرحيم بن عبدالرزاق بن جعفر بن بشرون بن شبيب من قبيلة الأزد. وهو صاحب كتاب "المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر".

وهذا القدر الذى بقى يشمل اثني عشر شاعراً<sup>(١)</sup>، عاشوا فى الفترة الأولى من العصر المشار إليه أى أنهم فى الغالب عاصروا رجاء الثانى؛ وليس هناك ما يدل على أن بعضهم عاش فى زمن ابنه غليالم الأول. وكل ما نملكه من الشعر الصقلی فى عهده نقش فى قصره المسمى بالعزيزة<sup>(٢)</sup>. وهناك نقش آخر فى مدح غليالم الثانى وذكر لفقيه صقلی اسمه الشيخ أبو الحسن على بن أبى الفتح بن خلف الأموى الصقلی<sup>(٣)</sup> فى زمنه أيضاً كان له بابن قلاقس علاقة. وإلى عهد غليالم الثانى يضاف ما قاله ابن قلاقس فى مدح أبى القاسم بن حمود وغيره من رجالات صقلية. أما الشعر المهاجر فى هذا العصر إلى الجزيرة فلدينا منه شعر الإدريسي الجغرافى<sup>(٤)</sup> وذكر ليحيى الشاعر القفصى التيفاشى<sup>(٥)</sup> الذى كان فى صقلية أيام غليالم الأول، وقتل فى الثورة التى ذبح فيها المسلمون سنة ٥٥٠ هـ وقصيدة لشاعر آخر من بنى رواحة فى مدح صاحب صقلية حين انكسرت به سفينة

(١) انظر التراجم ٣ - ١٣ والترجمة رقم ٦١ من مجموعة الشعر الصقلی.

(٢) Amari: Le epigrafi Arabiche di Sicilia, p. 31.

(٣) الخريدة - قطعة من أول القسم الخاص بشعراء مصر وفلسطين بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية مصورة من مكتبة نور عثمانية رقم ٣٧٧٤.

(٤) الترجمة رقم ٦٣ من مجموعة الشعر.

(٥) الخريدة ج ١١ الورقة ٥٣.

وأسر<sup>(١)</sup> ، وقصيدة للشيخ أبي الحسين بن الصبان المهدي<sup>(٢)</sup> تدل على أنه كان في صقلية .

في هذا العصر انفصلت صقلية بتاريخها عن ممالك الإسلام وأصبحت أحداثها الداخلية التي لا تهم العالم الإسلامي غامضة ، وأصبح الشعراء في بيئهم منعزلين لا تربطهم روابط بالمسلمين توضح حالهم ، ولولا أن ابن بشرون عاش في الجزيرة مدة وخصص من كتابه فصلاً لشعرائها ، ولولا أن العماد اطلع على هذا الكتاب لجهلنا ما نعرفه الآن عن حياة الشعر في صقلية النورمانية ، فليس من الغريب أن لا نسمع عن شعراء مسلمين في بلاط غليالم الثاني أو فردريك الثاني وابنه منفريد فيما بعد ، لأنه إن كان هناك شعراء حقاً فإنه لم يسعفهم الحظ بابن بشرون آخريدون آثارهم فتخترق حدود الجزيرة إلى غيرها . وحتى القدر الذي أورده العماد عن ابن بشرون ليس كاملاً في أجزائه لأن الأصبهاني حذف أكثر الشعر الذي وجدته في مديح الكفار ، وصرح بذلك في قوله « واقتصرت من القصيدتين على ما أورده ، لأنهما في مدح الكفار فما أثبتته »<sup>(٣)</sup> ولدينا شاعر هو عبد الرحمن بن رمضان المالطي ويصفه ابن بشرون بأنه كان غزير الشعر ، وأنه استنزف جهده في مدح رجار ، ومع ذلك فليس هنالك في شعره الموجود شيء من مدائح .

وهؤلاء الاثنا عشر شاعراً فيهم نحوى وفقهان وأربعة غلب عليهم الشعر وخمسة كانوا كتاباً . ولا بد من الإشارة إلى غلبة النثر على المشهورين في هذا العصر والذي سبقه ، وهذه حقيقة هامة لا تسعفنا المصادر كثيراً في تصور مظاهرها ونتائجها وعلاقتها بالشعر ، ولا تمكننا من القول بأن صقلية في العصرين أنتجت نثراً خصباً يوازي نشاطها في الشعر ، أما أولاً فلأننا لانعرف لها نثراً كثيراً

(١) المكتبة : ١٥٣ من المسالك .

(٢) الحريدة : ١١ الورقة ٥٨ .

(٣) انظر الترجمة رقم ٧ ورقة ١٢ .

وأما ثانياً فلأنها في الواقع اتجهت إلى الشعر اتجاهاً جعلنا نحكم لها بكثرته . ولقلة هذا الموجود من النثر لانستطيع أن نحكم له بالتفوق على الشعر ، إلا أن في رسائل ابن الصباغ في العصر السابق والنثر الذي أورده ابن بشرون كمية - على قلتها - تعطينا فكرة طيبة عن النثر في صقلية ، فهو نثر عامر بالحياة فيه صنعة ولكنه ذو موضوع حي .

ومهما يكن من أسباب فإن الذين أخلصوا للشعر وحده أبين شخصية ممن غلبت عليهم نواح أخرى من النشاط ، فلا ابن الخياط وابن حمديس وأبي العرب الصقلي مشخصات بينة على قلة ما نملك من شعر الأول والثالث ، أما شعراء العصر النورمانى فليس فيهم شاعر يهيم لنا شعره رسم صورة عامة لشخصيته . ولا بد من أن نقرر منذ البدء أن الشعر في العصر النورمانى عاش في بيئتين في كل منهما خصائص اجتماعية ونفسية مختلفة ، ولذلك نستطيع أن ندرس هذا الشعر على أنه قسمان :

( أ ) شعر يتصل بالملك النورمانى وبلاطه وفيه المدح ووصف المباني والمنتزهات الملكية وفيه الرثاء لأقرباء الملك أو أبنائه فالشاعر عبد الرحمن المالطى أكثر شعره في مدح رجار "يسأله العودة إلى مالطة ، ولا يحصل منه إلا على المغالطة " وعمر بن حسن النحوى الصقلى وقع أسيراً في يد النورمان فهو يمدح رجار لعله يطلقه : وعبد الرحمن البثري وابن بشرون وعبد الرحمن الاطرابنشى من الوصافين لقصور رجار ومنتزهاته ، وأبو البضوء سراج الكاتب يرثي رجار الابن البكر لرجار الثانى .

( ب ) شعر يصور حياة المسلمين وعلاقاتهم فيما بينهم وفيه العتاب والمدح والرثاء وشعر الرسائل ، أو يصور أموراً ذاتية كالغزل بالمؤنث والمذكر وشعر المحبون .

## وصف القصور والمنتزهات

ولأتناول من هذا الشعر ما يتصل بوصف القصور والمنتزهات فإنه الموضوع الذى يبدو - لأول وهلة - أنه مليء بالحياة ، وهذا يضطرنى أن أُلِمَّ عاجلاً بشيء من حال بلرم نفسها ومن قصورها ومنتزهاتها التى جدّت فى العصر النورمانى . ولا شك فى أن البساتين والمياه والأرجاء والقصور كانت أهم مظهر للمدينة فى العصر الإسلامى واستمر هذا المظهر وازداد فى العصر الذى يليه ، وشهادة المعاصرين فيه تكفى فى هذا المقام . يقول الإدريسى <sup>(١)</sup> : ” والمياه بجميع جهات صقلية مخترقة ، وعيونها جارية متدفقة ، وفواكهها كثيرة ومبانيها ومنتزهاتها حسنة تعجز الواصفين ، وتبهر عقول العارفين ، وهى بالجملة فتنة للناظرين “ . وجاء بعده ابن جبیر فلم يملك نفسه من إظهار إعجابه بها <sup>(٢)</sup> ” فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ، ومراد عيش يانع أخضر . عتيقة أنيقة ، مشرقة موفقة ، تتطلع بمرأى فنان ، وتتخايل بين ساحات وبساتين كلها بستان . . . يشقها نهر معين وتطرد فى جنباتها أربع عيون ، قد زخرفت فيها للملكها دنياه . . . ( فهو ) يتقلب من بساتينها وميادينها بين نزه وملاعب . فكم له فيها - لا عمرت به - من مقاصير ومصانع . . . إلخ “ ويقول هوجو فلقندو <sup>(٣)</sup> « ومن ذا الذى يستطيع أن يعبر عن إعجابه بالبنائات المدهشة فى هذه المدينة وبكثرة ينابيعها المنبثقة هنا وهناك ، وحلاوة أشجارها الدائمة الخضرة وقنواتها التى تمد السكان بما يحتاجون ؛ ومن ذا الذى يستطيع أن يستوفى وصف جمال السهل الأفيع . . . يا للسهل البهيج السعيد

( ١ ) نزهة المشتاق فى المكتبة : ٢٩ وانظر فى هذه الصفحة وصف قصر رجار .

( ٢ ) ابن جبیر والمكتبة : ٩١ .

( ٣ ) G. Waern · Med. Sicily p. 81-83

الذى يحمل فى أحضانه كل نوع من الأشجار والثمار ، ويبدى للعين أنواع المباحج ، ويسحر كل ناظر ويحلب قلبه ، فلا ينفك من رآه يصبو إلى مناظره ؛ هناك ترى الكروم التى قد أرسلت فروعها واسترسلت فى خضرتها ، وهناك جنات يبنى المرء على آلائها وأبراجها المخصصة للفرجة والحراسة ، وهناك أرحاء الماء ودلاؤه صاعدة هابطة . . . ” ويمضى فلقدنوا فى هذا الاستقصاء فيذكر أنواع الثمار من الرمان الحلو والحامض والليمون والبرتقال واللوز وأنواع التين والزيتون والنخيل والقصب .

أما القصور فقد بنى منها ملوك النورمان قصر الفوارة وقصر العزيزة وقصر القبة وكثيراً غيرها ؛ وقد أمر رجار بأرض واقعة على فرسخ من بلرم ، فجعل هناك بركة ، وأمر بأن يوضع فيها السمك من كل نوع وعلى مقربة منها بنى قصراً جميلاً رائعاً هو الذى عرف بقصر الفوارة ، كان يكثر فيه أيام الشتاء وأثناء الصوم لكثرة السمك هنالك . أما فى الصيف فكان يفرّ من الحرارة ويقصد المنتزه ليسلى نفسه بالصيد . والمنتزه جبال وغابات حول بلرم أحاطها رجار بالأسوار ، وجعل منها منتزهاً جميلاً غرست فيه أنواع الأشجار وريبت بينها الحيوانات ، وعنده بنى قصراً يجلب إليه الماء بالقنوات الأرضية <sup>(١)</sup> وليس هنا مكان وصف الفن المعماري والفسيفساء فى هذه القصور ، أو تبين الآثار الإسلامية فيها ، فذلك موضوع متصل بالفن ، ولكن هذه الصورة الوصفية تهيّء الجو لتناول الشعر الصقلى الذى قيل فى وصف القصور والمنتزهات .

فى هذا الجو عاش البشّرى الصقلى فهو يصف المباني التى أنشأها رجار فى قصيدة يمدحه بها فيقول :

وقصورٌ منصورية حطّ السرورُ بها المطية  
واعجبٌ بمنزلها الذى قد أكملَ الرحمنُ زيه

والملاعب الزاهي على	كل المباني الهندسيه
ورياضه الأنف التي	عادت بها الدنيا زهيه
وأسود شاذرّوانه	تهمي مياهاً كوثريه
وكسا الربيع ربوعها	من حسنه حللاً بهيه
وغدا وكلل وجهها	بمصغات جوهريه
عطرّن أنفاس الصبا	عند الصبيحة والعشيه

والشاعر يذكر في هذه القصيدة المنزل والملاعب والرياض والأسود التي تتدفق المياه من أفواهها، ثم يلتفت إلى ألوان الأزهار وعطرها الذائع في الصباح والمساء — « يذكر » فقط ولا شيء وراء هذا الذكر لأنه أعجز من أن يعبر عن إعجابه، فهو يطلب إلينا أن نعجب بكل هذه الروائع، وهو كشعراء الطبيعة في العصر السابق ينظر إلى الأجزاء ويعدّها، إلا أن الفرق بينه وبينهم أنه هنا غير مهتم بالتشبيه اهتمامهم، ليس لأنه عاجز عن توضيح هذه العناصر بما يقارنها، ولكن لأنها أقوى منه فغلبته بفكرة تفوقها، وأن لا شيء يدانيها، فالملاعب يزهو على كل المباني، والرياض الأنف تزهو بها الدنيا، ومنزلها قد أكمل الرحمن زيه، وبيثة الشاعر الدينية قد أسعفته شيئاً ما في تصويره الجنة مثلاً أعلى لهذه القصور والمتنزهات البديعة، ومع ذلك فأى فرق بين هذا الوصف وبين قطعة فلقدنو في تعداد أنواع الثمار ومحاولته الإفضاء بإعجابه بتلك المناظر والقصور؟ بل ربما كانت قطعة فلقدنو أكثر انفعالاً من قطعة البثري.

وعرض البثري الشاعر قصيدته هذه على ابن شرون وطلب إليه أن يعمل على وزنها ورويا فقال :

لله	منصورية	راقت	بهبجتها البهيه
وبقصرها	الحسن البنا	والشكل	والغرف العليه
وبوحشها	ومياهاها الـ	غزر	العيون الكوثريه

فقد اكتست جناتها من بينها حللاً بهيه  
 غطى عبر ترابها بمدبجات سندسيه  
 يهْدَى إليك نسيمها أفواه طيب عنبريه  
 واستوقفت أشجارها بأطايب الثمر الجنيه  
 وتجاوبت أطيّارها في الصبح دأباً والعشيه  
 وبها رُجارُ نَمَى العلا ملك الملوك القيصره  
 في طيب عيش دائم ومشهد فيها شبيه

وإذا كنا لا نستطيع أن نهم البثري صراحة بعدم التأثير والاستجابة لفتنة القصور والأشجار والمياه ، فالأمر مختلف مع ابن بشرون إذ أنه دفع إلى المحاكاة دفعاً فردد ما قاله البثري أو كاد ، وكلاهما ذكر الحلال ووصفها بأنها بهيه ، وأشار إلى الرائحة العطرة التي يحملها النسيم ؛ ثم زاد ابن بشرون ملاحظته للأشجار المستوسقة بأثمارها ، وتجاوب الأطيّار في أعاليها . وربما لم يغفل البثري هذين المنظرين لأن قصيدته غير تامة . وتسيطر صورة الجنة على ابن بشرون أكثر من صاحبه فهنا الغرف العلية والعيون الكثرية والمدبجات السندسية ، فالمثال عند الشاعرين واحد . وكما وقف هذان الشاعران أمام القصور ومنتزهاتها وقف عبد الرحمن الطرابنشي أمام منتزه المعتزلة المعروف بالفوّارة يقول :

فوّارة البحرين جمعت المني عيش يطيب ومنظر يستعظم  
 قُسمت مياهك في جداول تسعة يا حبذا جريانها المتقسم  
 في ملتقى بحريك معترك الهوى وعلى خليجيك الغرام نعيم  
 لله بحر النخلتين وما حوى الـ بحر المشيد به المقام الأعظم

ففي فوّارة البحرين تجمعت المني « عيش يطيب ومنظر يستعظم » ولا بأس بهذا الجمع لأن المني لا تجمد الأشياء حسب ترتيب منطقي ، ولكن أرايت



إلى كلمة « يستعظم » كيف أضعفت من شأن المنظر ولم تجعله عظيماً بحال، إنها دليل فقر في القدرة على التعبير عند الشاعر. وهذا يجعلنا نلتفت إلى القصيدتين السابقتين ونرى فيهما مثل هذه الظاهرة لا في الألفاظ فحسب بل في ضعف التراكيب في تلك الصيحات التعجبية من مثل: الله منصورية، لله بحرالختلين، وأعجب بمنزلها . . . إلخ لنضيف فقراً آخر قد ذهب بالتأثر الصحيح والانفعال الصادق . ثم ما هذا الانتقال من فوارة البحرين إلى إعلامها أو إعلامنا أنها قسمت في تسعة جداول ؟ ثم لماذا « حبذا جريانها المتقسم » هذا عجز يدن على أن الإحساس بالمنظر ميت أو معدوم أصلاً في نفس الشاعر .

وطريقة الشاعر في الوصف أن يعدد المناظر التي رآها كلا على حدة كأن يقول :

وكان ماءَ المفرعين وصفوهُ	درُ مذابٌ والبسيطةُ عندم
وكان أغصانَ الرياض تطاولت	ترنو إلى سمك المياه وتبسم
وكان نارنج الجزيرة إذ زها	نارٌ على قُضْب الزبرجد تُضرم
وكانما الليمون صفرة عاشقٍ	قد بات من ألم النوى يتألم
والنخلتان كعاشقين استخلصا	حذر العدا حصناً منيعاً منهم

وهذه هي الطريقة التي رأيناها عند ابن حمديس وغيره من شعراء العصر السابق، والخيط الذي يربط بين أجزاء قصيدته هو حروف التشبيه، فإذا وصل إلى النخلتين انصرف عن كل منظر آخر سواهما وأطال الوقوف نسبياً عندهما . ولاورد أبياته فيهما قبل أن أحاول استكشاف السبب الذي دفعه إلى ذلك :

والنخلتان كعاشقين استخلصا	حذر العدا حصناً منيعاً منهم
أو ريبة علقتهما فطسا ولا	تهيبان ظنون من يتوهم
يا نخليَّ بحجري بلرم سقيما	صوب الحيا بتواصل لا يُضرم

هنيئاً مرّ الزمان ونلتما كلّ الأمانى والحوادث نوم  
 بالله فيثا واسترا أهلّ الهوى فبأمن ظلكما الهوى يتجرّم  
 ولكي نفهم سر هذا العشق للنخلة لا بد من أن نعرف أن هناك معنى مبهماً  
 يحوم الشاعر حوله من أول القصيدة إلى آخرها، ومهما ينصرف عنه فإنه يعود إليه  
 من جديد، وذلك المعنى المبهم هو «الهوى» — الهوى الذى لا يعرف حدوداً ،  
 ويكفى أن يكون أى هوى كان حتى يصلح لذلك المسرح الذى يخيم فيه الغرام. ثم لا  
 بد أن نضيف إلى ذلك الهوى المبهم تلك الثنائية التى تأسر الشاعر أسراً قوياً :  
 فالقوارة هى قوارة البحرين أو الخليجين ، والبحر بحر النخلتين ، والماء يجرى فى مفرعين ،  
 والماء يذكر مع البسيطة كالدر على العندم ، والحوت فى الماء يقابل الطير فى أعالي  
 الشجر ، والنخلتان ؟ هذه الثنائية تفسر ذلك الهوى المكبوت فالشاعر يرى  
 الأزواج فى الطبيعة ويفقده فى حياته ، وأجسل ما يرمز إلى هذا الأزواج  
 النخلتان اللتان ترتفعان بين تلك الأشجار بقامة إنسانية جذابة فهو يدعو للنخلتين  
 بالهناء طوال الأيام وبأن تنالا الأمانى والحوادث عنهما غافلة — دعوات غريبة حقاً.  
 ثم لم كانت الوقفة عند النخلتين لا عند أى شجرتين أخريين ؟ ربما كان من  
 أسباب ذلك تفردهما بطول يلفت النظر ، وربما كان أقوى من هذا السبب ألفة  
 يجدها الشاعر بين قلبه والنخلة لو كانت مما تورث لقلنا إنها موروثه لأن  
 النخلة بنت الصحراء<sup>(١)</sup> فهى أقرب إلى نفسية الشاعر من أى شجرة أخرى سواء  
 أكان عربى الأجداد أو إفريقى النشأة ، هى رمز البداوة التى لم تمت من نفسه  
 على الرغم من بعد عهده بها . هذه النخلة جلبها آباؤه أو أجداده ومعها الحمل  
 لطبعوا على الأرض الصقلية طابع البداوة — التى أرادت أن تنقل الصحراء حيثما  
 انتقلت.

ومهما يكن فى هذه الأشعار من ضعف فى العاطفة والأسلوب فإنها التفاتة

(١) يذكر هوجو فلقندو فى رسالته لصديقه ويشير إلى البلح ولكنه لا يجسر أن يقول إنه  
 مأ يؤكل .

استطاعت أن تجعل من الطبيعة الصقلية ذات القصور والمنتزهات موضوعاً ولا يوازئها - مع ما هنالك من فروق - إلا وقفات ابن حمديس عند تصور إشبيلية وبجاية . أما شعراء العصر الإسلامي السابق فلم يكن اهتمامهم بهذه الناحية واضحاً .

## ٣

## الشعر في البيئة الإسلامية

ونخلى هذا الشعر في بلاط الملك النورمانى وبين منتزهاته لئرى حال الشعر بين الجماعة الإسلامية ، ونطلع على روافده الاجتماعية والنفسية ، ونعرف إلى أى حد تأثر بالأوضاع الجديدة . وقد عرفنا من قبل ما صنعه الفتح بالجماعة الإسلامية ، وكيف نفي منها الأكثرية المثقفة ، وأبقى أقلية من العلماء والأدباء ؛ ثم رأينا كيف احتفظ الحكم النورمانى بالجماعة المفيدة له في الحياة العملية - بالتجار والصناع أو بتلك الطبقات المدنية التي كانت رسخت فيما بينها قواعد المال ، وبالجنود الذين كانوا ضرورة لازمة لحماية المملكة الجديدة . وشاهدنا كيف انقلب المسلمون في بعض النواحي إلى أرقاء لاصقين بالأرض وكيف انحصر في ربة هذا الرق عدد كبير منهم .

هذا المجتمع الإسلامي الجديد ليس هو المجتمع الذي عرفناه من قبل وإنما هو مجتمع ذمى يدفع الجزية ، مجتمع كان يتمتع بالسيادة على غيره من الأجناس ، فأصبح يحاول بالطرق السلمية الضعيفة أن ينال بعض الحقوق التي قد تقر به من الأجناس الأخرى ، أو إن شئت التمثيل فقل إنه مجتمع كان أسداً ففسخ ثعباناً ، وحالته الاجتماعية والنفسية والحلقية تلخص في الجوانب التالية :

( ١ ) فقد السيادة وأصبح محكوماً بعد أن كان حاكماً ، ومنع الإيمان المطلق برمز معين كانت قدانسته في الحياة السياسية ذات أثر في حياته لاتصالها

بالدين ، وذلك الرمز هو الخليفة ، وليس من الممكن جحد الأثر الذى كان للخلافة فى عقليات الناس يومئذ .

( ب ) أصبح حكمه حكم الأقلية ، له ما للأقلية من دأب ونشاط ، بسبب المنافسة ، وفيه ما فى الأقلية من محاولة المحافظة على الكيان الجماعى والتمسح بأذيال السلطة الحاكمة والتقرب منها بشتى الوسائل ، ثم فيه ما يتبع ذلك من مدهانة وتملق صاغر والتفاف حول الحامى كالتفاف الكلب على صاحبه ، وقد يصبح هذا الحامى موضع نزاع الجماعة نفسها إن كان فيهم ذوو أطماع ، فيحاول كل فريق أن يستأثر بعطفه ، فتتقسم الجماعة على نفسها وخاصة إن تقرب الحامى لجماعة دون أخرى أو لفرد دون آخر يوقع الجماعة فى خصام فتصبح قوتها مشلولة بالاختلاف والتناحر ويفيد من ذلك صاحب السلطان .

( ج ) صار دائم التوجس والخوف من عدوان يقع عليه بين لحظة وأخرى وأصبح يعد نفسه لمقابلة الشر بالشر ، لا للإنتاج المفيد فى وقت السلم ، وفى هذه البيئة يكثر الشطار والنهازون للفرص ، كما تكثر العيون التى تسعى لتكيد للجماعات الأخرى فى السر .

( د ) أصبح من سماته التدين والالتفاف حول عمود الدين لأنه المبدأ الذى يربط الجماعة ذات الجنسيات المختلفة ، وهو الذى يحدد علاقتها بغيرها من أهل الأديان الأخرى ، ومن أشق أحوال الشعور الدينى كبته خوفاً أو تقية ولذلك لا تكاد الأقلية تشعر بشيء من القوة حتى تصخب متظاهرة بشعائرها فى شيء من التحدى تعرفه القرون الوسطى صخباً جماعياً ، أما الفرد نفسه فيشيع الصدقات ويعين الفقراء ويعطف على الغرباء من أهل دينه . والعداوة الدينية مريرة تسير الحياة ، وبما يذكىها رؤية الثراء فى فريق دون آخر ، ورؤية المسجد الذى حوّل كنيسة ، وترجع فريق دون غيره فى الوظائف العليا ، وكلمة نائية نددت فى حق واحد من غير دينه . . . إلخ ثم تستمد كل هذه المظاهر سيقاً كتب عليه اسم الدين أثناء الثورة والهباج .

( هـ ) امتحان فريق من الأقلية بالفتنة في دينه وبلجوه أحياناً إلى تغيير دين آبائه لإخفاقه في دنياه ، أو لحب غلب عليه ، أو لشهوة عابرة يقضيها كالتخلص من الضريبة ، أو الرفعة في المناصب ، وما أشبه ، ومثل هذا له نفسية خاصة أبرز ما فيها القلق .

( و ) الفوضى في حياة الأسرة وخروج الابن على طاعة أبيه ، وثورة البنات على أهلها ، وانحلال سلطة الأب والزوج ملجأ يعوذ به الخائض ويتخلص به مما يعتقد ظلماً واستبداداً ، وغلبة المداراة أو النفاق الاجتماعي لا في السوق والمكتب والديوان فحسب ، بل في البيت وبين أفراد الأسرة الواحدة .

ونسرف إن قلنا إن المسلمين كانوا غالباً يعرفون الرضى عن حالتهم في صقلية ويدنون بالقناعة فيما صاروا إليه — كانوا يخافتون في تذرهم ، ويهمسون فيما بينهم وبين أنفسهم بالشكوى ، فإذا وجدوا رجلاً كابن جبير يحدثونه بمخاوفهم وآلامهم نفضوا بين يديه كل ما كان خافياً ؛ ولدينا قطعة نثرية فيها هذا التذمر والقلق ، يقول فيها كاتبها بعد إعلان الشوق لصديقه : ” لكنى إذا رجعت إلى شاهد العقل ، وعدلت إلى طريق العدل يمازج قلبي سروراً ، ويخالط شوقي بهجة وجوراً ، بما ألهمك الله تعالى إليه من صفاء النية والإخلاص والظفر بأمل النجاة والخلاص ، فأتلو عند ذلك ” ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ” ثم أرجع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : ” الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن ” فأعلم أن الأمور كلها مقدورة وأنها في اللوح مسطورة ، فأفرع إلى الدعاء لمقدّر الأمور الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، أن يحسن لنا العقبى ، ويقضى لنا بالحسنى ، ويسبل علينا من العافية سترًا سابغاً ضافياً ، ويوردنا من السلامة مورداً سائغاً صافياً “ (١) .

وقد صور الشعر هذه الحياة للجماعة الإسلامية إذ نجد صوراً من الغضب والرضى والتعاطف فهناك من يسعى بين اثنين — فقيهين — فيتعاطبان بشدة

( ١ ) الحرية ١١ الورقة ١٩ انظر الترجمة رقم ١١ من مجموعة الشعر .

ليتصافيا ، وهناك رسائل في الشعر تصور مبلغ التلطف في مخاطبة الواحد الآخر ورسائل منشورة مليئة بالعتاب الذي يبلغ أحياناً حد الغضب ، وهناك من يحجب عن أحد الرؤساء فيؤثر هذا في نفسه حتى ليرغب أن لا يكون له صلة بما قد نسميه « الواجب المتعارف » بين جماعة متآخية في الدين يؤذى الفرد منها إلى درجة النفور أن يحس الإخلال في هذا الواجب آتياً لا من الغريب بل من القريب ؟ ثم ألا يدل هذا الإسراع إلى التعبير عن القلق أنه مستوحى من روح ذلك التضامن الذي يمليه الواجب المتعارف ؟

وليس عبثاً أن نسمع في هذه البيئة شاعراً لا يدعو إلى التنفير من الناس فحسب بل يقوى صوته فيدعو إلى إعلان الحرب عليهم وينهى عن الاغترار بالتبسم والملق الذي يبدونه (١) :

إخوان دهرك فالفهم      مثل العدا سلاحكا  
لا تغترر      بتبسم      فالسيف يقتل ضاحكا

وهل نستطيع أن ننسب إلى عدم النجاح في التقرب من الحامى والإخفاق في المنافسة، وإلى التباين الذي تحدثه الحكومة المؤسسة على النظم الإقطاعية - هل نستطيع أن ننسب قول الشاعر (٢) :

وكم خامل في الناس أمسى مرفعا      ترقى إلى العلياء كل سنام  
فتعسا لدهر حطّ علو مراتبي      وقلل إخواني وأكثر ذامى  
إذا اخضر يوماً منه للمرء جانب      غداً فجلا للعين كف لثام

(١) الخريدة ١١ الورقة ٨ والترجمة رقم ٥ من مجموعة الشعر .

(٢) الخريدة ١١ الورقة ١٠ والترجمة ٩ من مجموعة الشعر .

نعم هذا معنى شائع كثيراً ولكن هل من الغريب أن تنبت الأسباب  
المشابهة نتائج متشابهة ؟

ثم ماذا كان أثر التدين في شعر هذا العصر عامة ؟  
لقد انعدم الشعور الديني في القصائد التي تدور حول الملك النورمانى  
وأسابيه ، وماتت كلمة الجهاد ، فلم نعد نسمعها أو نسمع متعلقاتها في الشعر ،  
إذ لم يعد يجمع بين الممدوح والمادح رابطة دينية ، أو يحفز به إلى الثناء عليه شعور  
ديني يجانب حاجاته الدنيوية — هذا صوت قد خفت أبدأ ، وقد كان المتوقع أن  
يكون كبت هذا الشعور في العلاقة بين الشاعر وصاحبه سبباً لتسربه في ظل  
الحياة الإسلامية الخالصة ، ولكن إذا استثنينا قصائد الرثاء وجدنا الصبغة الدينية  
تمحى في الشعر الإسلامى الخالص أيضاً ، حتى لنجد أشعار الفقهاء لا في الحب  
فحسب بل في المجون والغزل بنى الأصفر .

وحب الحياة أو الثورة النفسية على الواقع الديني تتضح في شعر الإدريسي  
إذ يحاول في قصائده أن يقتل الشعور بالحرمان ، ويصور تحقق الرغبات والغرق في  
اللذة في زيارة تستغرق طول الليل ، وقد كان هذا العامل الجديد قادراً على أن  
يكسب الشعر في هذا العصر حيوية لم نعرفها في كثير من شعر العصر الإسلامى  
ولكن هذه الحيوية لم تكمل له لأن عمره كان قصيراً ، ولأن الثورات قد باعدت  
بين المسلمين والطمأنينة التي تبث في الصدور حب الحياة .

ومهما يكن فقد برزت في هذا الشعر بعض مظاهر القوة وخاصة في التصوير  
وأصبحنا نجد مثل هذه الصورة الفكاهة في قصيدة مجونية<sup>(١)</sup> .

تجذب خصرأ مخطفاً بكفل مرجرج  
كمثل زق ناقص على حمار أعرج

(١) الحريدة ١١ الورقة ١٢ والترجمة رقم ١٠ من مجموعة الشعر .

أو هذه الصورة الأخرى<sup>(١)</sup> :

بتنا على فرش العفاف وبيننا      نجوى ترق لها الصفا وتلين  
والليل كالزنجى شد وثاقه      والنجم مطّلع عليه أمين

#### ٤

مقارنة بين الشعر في البيئة الإسلامية والشعر في البلاط النورمانى

ولتوضيح الفرق بين الشعر في الجماعة المسلمة والشعر في بلاط الملك النورمانى أتناول شعر الرثاء بالمقابلة وأدع المدح ، لأن الذى وصلنا منه فى رجار قليل لا يسمح بعقد مقارنة وافية . أما الرثاء فلدينا منه قصيدة لأبى الضوء سراج فى رثاء ولد رجار كما أن هناك عدة قصائد فى رثاء بعض زعماء المسلمين . وكثرة الرثاء والتفجع على من يموت من هذه الجماعة فيه إحساسها بالخسارة الاجتماعية كلما ذهب فرد عظيم من أفرادها ، ولا بد من أن نقدر الفروق القائمة فى كل مناسبة حتى لا يقع الحيف على أبى الضوء فى قصيدته . يقول أبو الضوء<sup>(٢)</sup> :

خبا القمرُ الأسى فأظلمت الدنيا      ومادَ من العلياء والمجد أركانُ  
أحينَ استوى فى حسنه وجلاله      وتاهتْ به أوطارُ عزّ وأوطانُ  
تخطّفه رَيْبُ المنون مخاتلاً      على غرة ، إنَّ المنون نحوّانُ  
كذلك أغراض البدور يعوقها      إذا كملت من حادث الدهر نقصانُ  
فهو يصف الظواهر التى صاحبت وفاة المرثى ثم ينحى على الموت الخائن  
القادر الذى استلبه حين استوى فى جلاله ، ومثله بالبدور الذى يعتريه النقص  
إذا سعى إلى الكمال .

وبعد أن انتهى من هذه المقدمة قال : إنه من الحق أن يبكى عليه بدموع

(١) الخريدة الورقة ١٥ والترجمة : ١١ .

(٢) المصدر السابق الورقة ١١٨ والترجمة : ٦١ .



بيض وحمى كالدرد والمرجان ، وأن تحرق الأكباد وتمرض الأنفس وتعظم الأتراح والأحزان . فانظر كيف جعل الشاعر البكاء حقاً على سواه أما هو فلا شأن له بتنفيذ هذا الذى يعده حقاً :

لحق بأن يبكى عليه بأدمع لها فى مسيل الخلد درً ومرجان

ثم ما قيمة تشبيه الدموع فى موطن الحزن أو تقسيمها إلى فئات إن كان الحزن صحيحاً؟ وقد ذكر الدموع فى هذا البيت فلم عاد يذكرها بعد بيت واحد ؟ وتبتاع أحزان وتهمى مدامع وتجمع أمسواه غزار ونيران

وما الفرق بين الدمع هنا والدمع هنالك وما هذه الأمواه إلا الدموع ؟ وما الفرق بين قوله : وتعظم أتراح - وتكبر أشجان - وتبتاع (؟) أحزان ؟ من هنا ترى الفقر شاملاً فى كل شيء - فى العاطفة ، فى الأسلوب ، فى الترتيب ، والشاعر إنما يحشد ألفاظاً تتصل بمعنى الحزن ولا تنطوى عليه . وقد يكون هذا من ضعف شاعريته ، ولكن مما زاد الضعف وضوحاً ، انعدام العاطفة فى موضوع يحتاج إلى قسط كبير من الصدق ولا ينفع فيه الانفعال البسيط . ضيع هذه القطعة مقابل قول محمد بن عيسى :

عزّ العزاء وجل البين والجزع وحلّ بالأنفاس منه فوق ما تسع  
يا عينُ جودى بدمع خالص ودم فما عليك لهذا الرزء ممّتنع  
فالجسم ينحلّ والأنفاسُ خافتةٌ والقلبُ يخفق والأحشاء تنصدع  
كونى على الحزن لى يا عينُ مسعدةً فإن قلبي لما تأتته تبع

فهنا هذا التحويل المقارب للتحويل السابق ، وفيه هذه الدموع البيضاء والحمراء ، وفيه تصوير للحالة الجسمية والنفسية التى نزلت به من جراء الحادث الجلل - فيه كل التكلف الذى ورد فى القطعة الأولى ولكن فيه عنصراً واحداً ينقص شعر أبى الضوء فقد أبى أن يقول للناس إنه بكى أو أن كبده احترقت أو أن الماء

اجتمع مع النار من شدة حزنه هو — أبي أن يقول ذلك لأنه في حقيقة الأمر صادق مع نفسه لم يحزن ولم يبك ولم تحترق كبده؛ وإذن فلم يرثي ولم يطلب إلى غيره أن يفعل ما لم يفعله؟ كلا الشاعرين يرثي شخصاً غريباً عنه وكلاهما يلجأ إلى التهويل في تصوير الحزن ولكن حتى في هذا التهويل فرق لأن التعاطف المشترك مفقود بين أحدهما وبين المرثي .

ثم انظر إلى المسألة حين تخف حاجة الشاعر إلى هذا التعاطف القائم في أصله على وحدة ما — والوحدة الدينية يومئذ أقواها — واستمع إلى أبي الضوء بعد الأشياء التي حزنت على ولد رجار تجده يقول :

تبكت له خيماته وقصوره      وناحت عليه مرهفات ومرآن  
وعاد صهيل الخيل في لهواتها      حنيناً وعاقتهن "الجثم" وأرسان  
وما ناح ورُق الأيك إلا له فلو      دَرَت لبكت قبل الحماثم أغصان

فهذا ميت قد بكت عليه الخيمات والقصور والمرهفات والمران والخيل والورق وكذلك مرثي ابن عيسى بكت عليه الخيل والسيوف (المرهفات) والخطية (المران) . فالباقون متقاربون أو متشابهون ولكن أين الفرق؟ استمع إلى ابن عيسى يقول :

بكته المذاكى المقربات وقطعت      شكائهما إذ منه أعدم الركضا  
مشت وهي بين الخيل أنزرها دما      وأبرزها جسما وأهزها نحضا  
وكادت سيوف الهند تنشق حسرة      وأجفانها تنشق عنها لكى تنصا  
وخط على الخطية الرزء أحرفاً      أرادت لها خفضاً فحولها خفضا

تجد أن صورة أبي الضوء ألطف لأن فيها عبوراً سريعاً في الصورة — المستحيلة أصلاً — أما ابن عيسى فوقف عند المحال يغرق فيه ، ويمد في

جوانبه، ويضئى على الصورة زيادات تزيدها افتعالاً؛ ولا شك في أن أبا الضوء حين جعل سهيل الخليل حينئذ كان ألطف طبعاً من محمد بن عيسى الذى أخرج الخليل عن طورها حتى قطعت الشكائم ونحل جسمها وبانت عظامها وأدركها الهزال والإعياء . فلما لم يكن أبو الضوء في حاجة إلى سند من شعور عميق في هذا المعنى استطاع أن يجلوه خيراً من ابن عيسى .

ثم راح أبو الضوء يصور هول ذلك اليوم وأنه تشيب فيه الولدان ويشبهه بيوم الحشر وقد اجتمع فيه الرجال والنساء حتى ضاقت بهم الأرض ، ولحظ لبسهم للسواد فشبههم بالأغربة ، بعد أن كانوا في ثياب اللهب كالحمائم :

كأن منادى البعث قام منادياً      لحشر فهب الخلق طرا كما كانوا  
وقد ضاق رحب الأرض بالخلق فالتقت      جموعهمُ مرجاً رجالٌ ونسوان  
وكانوا بلبس اللهب بيضاً حمائماً      فعادوا وهم في ملبس الحزن غربان

وهذه المعاني مفرقة عند ابن عيسى في غير قصيدة . ففي معنى يوم القيامة يقول :

شهدنا على قرب بمشهد موته      مشاهد لم تخط القيامة والعرضاء

وفي لبس السواد :

سعوا مشاة وهم في الزى أغربة      مسودة من وراء النعش تتبع

وانفرد ابن عيسى بمعان لم يكن أبو الضوء يستطيع أن يقترب منها وهي أمور إسلامية كذكر العيد وحال السرور فيه ، وكيف منعت الوفاة الناس من ورود المصلى ضحى ، والتعزى بالرسول والصحابه ، والتحدث عن الملائكة التى جاءت لترفع الميت إلى السماء . فأبو الضوء إنما يحشد المبالغات حشداً لأن المضطرب الذى يهرى فيه محدود ، وربما لم يساعده كثيراً في الرثاء أنه ليس من الشعراء الذين يجدون العزاء في مظاهر كونية حتى يلجأ إلى الحكمة والتفلسف في

أمر الموت فهو ضيق الباع قصير الرشاء من ناحيتين : ناحية المعاني التي لا بد له أن يتجاوزها في مثل موقفه ، وناحية مذهبه الشعري ، والضعف في الناحية الأولى يجيء من ضعف الشعور الديني المتبادل . وهناك معنى لا يمكن أن يتعرض له أبو الضوء ، وأفاد منه الشعراء المسلمون في رثاء عظمائهم ، وهو أن كل مفقود منهم فإن فقدته ضربة في صميم العزة الإسلامية بالجزيرة وركن كانوا يستندون إليه فخفضت هيتهم بعده :

لقد مات فيه عُدَّةٌ أَىْ عُدَّة	لنا فعدمنا كلَّ عيش به يَرْضَى
وأبصارنا كانت تسامى له وقد	غداً الكلُّ منّا طرفه اليوم قد غَضَا
وقد كان طرفي ليس يغضى على القذى	فأصبح عن أقدائه اليوم قد أغضى



الفصل السابع

هجرة الشعر إلى صقلية

ابن قلاؤس الإسكندري



## هجرة الشعر إلى صقلية - ابن قلاقس الإسكندري

كل ما تقدم من حديث عن شعر العصر النورمانى يشمل عصر رجار على وجه الخصوص، وليس بعده شعر عربى صقلى إلا نقوش على القصور من أمثلتها فى قصر لجليالم الثانى<sup>(١)</sup> :

تأمل وقف وانظر تر خير إيوان نخير ملوك الأرض غليالم الثانى

ولكن إغراء الأدباء والشعراء بالقدوم إلى صقلية وتشجيعهم على ذلك بالمنح والعطايا كان لا يزال دأب الملك النورمانى منذ أن سن رجار هذه الطريقة. ولعل هذا هو الذى أثار ابن قلاقس عن مصر وحمله على زيارة صقلية إذ ليس هناك إشارة واضحة إلى الدافع الذى حدا به للقيام بتلك الرحلة. وذكر ابن ميسر فى تاريخه « أن رجار كان يحب مديح الشعراء ويحبزهم فذهب إليه جماعة من الشعراء ومدحوه منهم ابن قلاقس ، وأمر أن يصنف له تاريخ فصنف له تاريخ كبير<sup>(٢)</sup> ». وفى هذا النص سهو فإن ابن قلاقس لم يزر رجار وإنما زار صقلية أيام غليالم الثانى، وأما التاريخ الكبير الذى صنف له فربما كان إشارة إلى كتاب الإدريسى وهو فى الجغرافية لا فى التاريخ. ولسنا ندرى هل اتصل ابن قلاقس بغليالم الثانى أو لم يتصل ؛ فقد كان غليالم حين دخل ابن قلاقس صقلية سنة ٥٦٣ هـ لا يزال تحت وصاية أمه. وليس فى ديوانه - أو ما تبقى منه - قصيدة فى مدح صاحب صقلية. وينص الصفدى على أنه مدح ملك صقلية الإفرنجى

---

(١) Amari : Le Epigrafi arabiche di sicilia p. 72.

(٢) تاريخ ابن ميسر : ٨٥ .



( غليالم ) وأن جملة ما أعطاه هذا الملك مركب مملوء جبناً<sup>(١)</sup> وما قد يؤيد هذا النص أن ابن قلاقس عرف شخصاً يسمى « جردان »<sup>(٢)</sup> وهو يدعى في ديوانه وزير صاحب صقلية ، ومدحه بقصيدة مثبتة فيما بقي من شعره . واتصاله بالوزير أو بهذه الشخصية العظيمة مما قد يجعل اتصاله بصاحب صقلية نفسه محتملاً . ولكن من هو ( جردان ) هذا ؟ إن التاريخ لا يسمى إلا أسطفان المستشار عند والده غليالم الذي كان بمرتبة الوزير . ولكن إذا صدقنا ابن جبير الذي يتحدث عن وزراء غليالم بصيغة الجمع لم نستبعد أن يكون هنالك وزراء كثيرون لغليالم ولا يبعد أن يكون جردانو واحداً منهم ، بل ربما كان الأرجح أن جردانو وكثيرين غيره كانوا أعضاء المجلس Curia في بلاط الملك ؛ وإذن فيكون جردانو أحد أولئك الأعوان الشيوخ . وفي مدحه يقول ابن قلاقس<sup>(٣)</sup> :

وَجَرْدُنَا المَدَائِحَ فَاسْتَقَرَّتْ      عَلَى أَوْصَافِ جُرْدَنَّا الوَازِرِ  
فَنظَّمْنَا المَفَاخِرَ كَالْأَلَى      وَحَلَيْنَا المَعَالِي كَالنَّحُورِ  
وَقَمْنَا فِي سَمَاءِ العِزِّ نَرْعَى      جَبِينَ الشَّمْسِ فِي اليَوْمِ المَطِيرِ  
وَأَعْجَبُ مَا جَرَى أَتَا أَمِنَّا      وَنَحْنُ بِجَانِبِ اللَّيْثِ المَهْصُورِ

وواضح أن ابن قلاقس يحوم حول المدح لينفذ إلى صفات يمدح بها ، ويهيم في القول فيستعمل ألفاظ المفاخر والمعالي والعز ، ولكن قدرة الشاعر في هذا الإبهام جعلت التحويم حول المدح خيراً من المدح نفسه ؛ فلما نفذ إلى المدح المباشر عاد يرتطم بصخور المبالغة ، وهو يحاول أن يقلبها على كتفي ممدوحه ويقول :

لَهَيْبُ صَوَاقِقِ العِزِّ مَاتَ مِنْهُ      يَكَادُ يَذِيبُ أَفْتَدَةَ الصَّخُورِ

( ١ ) أعيان مصر مجلد ٢ الورقة ٢١٩ والنص على أنه مدحه عند ابن خلكان أيضاً .

( ٢ ) في نسخة الديوان المطبوعة يسمى يزجرد .

( ٣ ) النص في الحريرة نسخة نور عثمانية .

وماءٌ مكارم الأخلاق منه يكادُ يردّ صاعدةً الزفير  
وأغراسُ الأمانى فى يديه تهزّ معاطفَ الروح النضير

ويدل ما تبقى من رسائله على أنه تعرف فى حضرة غليالم إلى القائد غارات  
ابن جوشن " خاصة المملكة الغيلية بصقلية " وفى كتاب له كتبه إليه شكر على  
ما لقيه فى جنبه من حفاوة وإكرام " فقد فارق جنبها (الحضرة) الكريم ممثلاً  
اليد نعمةً ، والفم نعمةً ، والباطر آمالاً ، والناظر أموالاً ، اصطناعاً منها ،  
وتفضلاً أبى الله أن يصدرَ إلا عنها (١) .

وكاتبَ كذلك السديدَ الحصرى وهو اسمٌ يذكّرنا بمنافس ابن الحجر  
الذى يسميه هوجو فلقدنو Sedictus وفى كتابه إليه دعابة تدور حول  
شهر رمضان ، وأنه شهر عظيم البركة ، ثقل الحركة ، ودعاء لعله أن يمضى  
سريعاً ، ويقضى بنحجر هلال الفطر سريعاً (٢) . ولكنه كان أكثر أنساً بشخص  
ثالث اسمه ابن فاتح وهو شيخ فقيه أديب بصقلية ، يطلب إليه فى رسالة عوناً  
على السفر " فإن رأيت (الحضرة) أن تيسر له أسباب سفره ، وتفتح له أبواب  
ظفره ، قبل خروج ركبها العالى ، فلسان شكره ينقلب دعاء ، ويكون له سمع  
الإجابة وعاء " (٣) .

فهذه الرسائل قد عرفتنا بثلاثة من المسلمين فى بلرم ولعلمهم كانوا جميعاً من  
رجال الدولة ومن الزعماء فى بنى قومهم .

ولكن ابن قلاقس فى صقلية اختص بمدائح أبا القاسم بن الحجر ،  
ابن حمود زعيم المسلمين حينئذ فى الجزيرة والذى نعرفه من التاريخ أن أبا القاسم

(١) ترسل ابن قلاقس : ٣٤ من نسخة خطية رقم ٦١٧ أدب بالتيمورية .

(٢) المصدر نفسه : ٤٧ - ٤٨ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٣ .

كان يلقب بالفائد ، وينافس في الزعامة مسلماً آخر ، ويحرض المسلمين على أسطغان ، وأنه كان من الأغنياء ذوى الإقطاعات الواسعة ، وقد رأى ابن جبير له وإخوته وأهل بيته فى بارم قصوراً مشيدة أنيقة ، وكان ذا أطماع بعيدة ، يحلم بعودة الجزيرة إلى حوزة المسلمين ، ويعمل لذلك ، حتى ليقول الهروى إنه اجتمع به فى صقلية فأعطاه أبو القاسم كتاباً إلى السلطان يحثه فيه على أخذ الجزيرة <sup>(١)</sup> . ولعل هذا التدبير قد استغله أعداؤه فوشوا به إلى الملك ، فغضب عليه وصادر أمواله حتى أغرمه ما يزيد على ثلاثين ألف دينار مؤمنية ، وتخلت عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه ، حتى بقى دون مال <sup>(٢)</sup> ولما زار ابن جبير صقلية كان غليالم قد رضى عنه ، وأخذ ينفذه فى بعض أشغاله السلطانية " نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله " <sup>(٣)</sup> .

ولما نزل ابن قلاقس فى ساحته كان لا يزال على حالته الأولى من الرفعة والغنى ، فدحه بقصائد كثيرة ، وألف له كتاب " الزهر الباسم فى أوصاف أبي القاسم " والكتاب كما تصوره القطعة التى اقتبسها العماد فى خريدته لا يعدو أن يكون فى مقدمته وصفاً للرحلة التى قام بها الشاعر حتى بلغ إلى ممدوحه ، ثم المدائح التى قالها فيه وفى أبنائه ، ثم وصف لبعض المجالس التى استدعت قول الشعر .

ولكن ما هو المنصب الذى يحتله أبو القاسم بدقة ؟ إذا اعتمدنا على الزهر الباسم نثره وشعره ، سمعنا ابن قلاقس يصفه بالبلاغة ويقول : إن " ألبس قلمه المداد عرى من الفصاحة قس " إياد ، وأنطق طرسه الرسائل أخرس عن الخطابة سحبان وائل ، يلزم لديه ابن العميد سميت العبيد ، ويغدو عليه عبد الحميد غير حميد ، يقول له الصاحب أنا عبد لا صاحب ، ونهاية الصابى أنه بألفاظه صابى ،

( ١ ) الهروى - الإشارات إلى معرفة الزيارات ، المكتبة الملحق الثانى : ٢ .

( ٢ ) ابن جبير - المكتبة : ١٠٢ .

( ٣ ) المصدر نفسه

حتى لو انقلب الديوان ديوان شعر والقرطى (؟) أقراط شذر لكان هو المقرظ  
المعلّى والمقرط المحلى «<sup>(١)</sup> فأبو القاسم كان صاحب ديوان ولكن أى ديوان ؟ وما  
هو القرطى الذى يشير إليه ؟

ثم هو فى موضع آخر يمدحه بقوله <sup>(٢)</sup> :

وبيمناك طيرُ يمنٍ وسَعَدُ      أصفرُ الظهر أسود المنقار  
قلمٌ دبّرَ الأقاليمَ فالكُتَّةُ      ب به من كتائب الأقدار  
يا طرازَ الديوان والمملك أصبح      ت طراز الديوان والأشعار

هو صاحب قلم يدبّر الأقاليم ، والأقاليم اصطلاح كان جارياً فى صقلية  
على الأقسام العسكرية - فى الغالب - ثم ما الذى جعله يعرج على الطراز ؟  
هل كان لأبى القاسم علاقة بديوان الطراز فى بلرم ؟ وأوضح من هذه الأبيات  
قوله فيه <sup>(٣)</sup> :

وتلتقى كُتُبُهُ الكُتائبَ فى      جيشٍ من الخطّ صائد الصيّد  
بكل لفظ كأنه نفسٌ      غيرُ ممل بطول ترديد  
صَحّتْ معانيه فانتسبن إلى      فَضْلُ ابتكار وحسن توليد

فهذا يخيل إلينا أنه كان صاحب ديوان الإنشاء ولعل الأصح أنه كان  
رئيساً على كل "الدوائر" الإسلامية من ديوان لإنشاء وطراز وسلطة إدارية وغيرها.  
وإذا كان أبو القاسم فى بلرم فعنى ذلك أن ابن قلاقس أقام فى ظله هنالك .  
فهل تعرف إلى غيره فى مدينة سرقوسة ؟ أو هل عرّج عليها فى دخوله إلى صقلية  
أو فى رحيله عنها ، لأنه يقول <sup>(٤)</sup> :

(١) الخريدة نسخة نور عثمانية الورقة ٥٢ .

(٢) الخريدة نسخة نور عثمانية الورقة ٥٤ .

(٣) المصدر نفسه الورقة ٣٣ .

(٤) الديوان : ٨ والنص هنالك محرف كثيراً وانظر الأبيات فى معجم البلدان مادة بلرم

قد سعى بي الوشاةُ نحو علاهُ فسعوا لي فلا عدمتُ الوشاةُ  
حرّكوا لي الشبابةَ منهم فظنّوا أنّهم حرّكوا عليّ الشبابةَ  
فدعا من بلرم حجّتي فلبّيتُ وكانت سرقوسةُ الميقاتا

فمن هو الذي سعى به ؟ وهل اجتمعوا في سرقوسة ثم توجهوا إلى بلرم أو أن  
هناك شخصاً آخر سافر إليه ابن قلاقس ونزل عنده في سرقوسة ؟ وهذه القصيدة  
— حسب ما في الديوان — يقولها في مدح رجل يسمى القاسم بن خليع .

والظن قوي بأنه عرج على سرقوسة سواء كان ذلك في عودته إلى وطنه  
أو في قدومه إلى صقلية ، لأن هناك قصيدة نونية يصف فيها رحلته ، وربما كان  
الوصف ينطبق على رحلة من بلرم إلى سرقوسة لا العكس ، وليست القصيدة في  
ديوانه وإنما احتفظ ياقوت بقطع متفرقة منها في معجم البلدان ولعل لها مقدمة  
غزلية هي تلك التي أوردها الصنفدي في أعيان النصر<sup>(١)</sup> ومطلعها :

أصبحتُ بين سوائف وعيون وقفاً على أمنية ومنون

وإذا كانت هي حقاً فلدينا من هذه القصيدة قطعة فريدة ، هي قصة رحلة  
فيها شيء كثير من صفات الشعر الجميل ، فيها الانفعال والحركة وفيها قدرة شاعر  
ذو دربة في قلب الأداة الشعرية في يديه كالعجينة المرنة ، ولم يستطع الموضوع  
نفسه — موضوع الرحلة — أن يقف في سبيلها بحيث يجعلها جامدة ، أو يجعلها  
حقيقة جغرافية منظومة ، لأنها استمدت قسطاً وافراً من حيوية ابن قلاقس الشاعر  
الشاب العنيف المنفعل دائماً ، وقد مرّ في وصفه بثرمة وجفلوذ والقارونية واجتاز  
بيقطس وليبري وحاذى ميلاص إلى أن بلغ مسيني ، فنزل فيها ثم عاد فجدد  
الرحلة إلى سرقوسة فهو يقول في ثرمة وجفلوذ :

فدخلتُ ثرمة وهو تصحيفُ اسمها لولا حسينُ الندب ذو التحسين

في حيثُ شبَّ الماءُ جمرةً قيطه  
وشربتُ ماءَ المهل قبل جهنم  
حتى إذا استفرغتُ منها طاقتي  
أجفلتُ من جفَلوذاً إجمال امرئ  
مع أنها بلدٌ أشمٌ يحفه  
تجرى بأعيننا عيونُ مياهه  
وتركتها والنوءُ ينزل راحتي

ويقول في مسني وسرقوسة :

وأظلُّ أنشد حين أنشد صاحبي  
وحللتُها وحللتُ عقدَ عزائمي  
فأقامني تسعين يوماً لم تزل  
بتجلفٍ لا يستقل جناحه  
بردٌ جرى في معطفه وفكته  
ثم استقلتُ بي على علاتها  
هو جاء تُقسِمُ والرياحُ تقودها  
حتى إذا ما البحرُ أبدته الصبا  
ألقته به النكباءُ راحةً عاثت  
وتكلفتُ سرقوسةً بأماننا

من ذا يُمسِنِي على مسني  
بيدي إلى السيد المبادر دوني  
نفسى بها في عقدة التسعين  
ولو استطار بريشتي جبرين  
وكلامه وعجانه المعجون  
مجنونةٌ سُحِبَتْ على مجنون  
بالنون أنّا من طعام النون  
ذا وجنة بالموج ذات غضون  
قلبتُ ظهورَ مشاهدٍ لبطون  
في ملجأ للخائفين أمين

وفي هذه القصيدة التي عليت على موضوعها وذللته ، واستحقت اسم الشعر ،  
يحدثنا ابن قلاقس كيف كره ثرمة لشدة حرارتها ، ولم يجد فيها صدرًا رحبًا إلا  
عند رجل اسمه حسين ، ثم أجفل من جفلوذاً كما يجفل الذي يطلب بالدين أو  
بالدين — شأن مسلمي صقلية قبل زيارة ابن قلاقس لها بقليل — وسر الشاعر  
من جفلوذاً ومن رياضها وعيون مياهها المحفوفة بالنساء الجميلات — صورة صقلية

ريفية لم يلحمها إلا شاعر غريب ، وفي مسينة أقام تسعين يوماً — إن صحت رواية البيت — عند جلف ثقیل الظل لا تخفّ روحه ولو علق في جنبه جناحي جبريل مع أن مسينة نفسها أعجبت به حين نزلها غرة شعبان سنة ٣٦٣ هـ<sup>(١)</sup> وأعلن عن إعجابه بقوله :

بلد أعارتهُ الحمامة طوقها وكساهُ حلّة ريشه الطاووس  
فكأنما الأزهارُ منه سُلّافةٌ وكأنّ ساحات الديار كؤوس  
صورة صقلية أخرى لم تفتن إلا شاعراً غريباً .

وعاد بعدها إلى تلك الخجولة التي كانت تسحب نفسها على ماء مجنون مثلها ، سفينة هوجاء تحلف لهم بالنون أنهم سيكونون طعاماً للحيتان ، وأخيراً رحبت به سرقوسة فنزل في ملجأ أمين .

لا نعرف على وجه الدقة المدة التي قضاها ابن قلاقس في صقلية ولكنه كان في اليمن سنة ٥٦٥ هـ ، فقامه فيها ربما لا يتجاوز السنتين . وفي أثناء هذه الإقامة تعرّف إلى حياة بلرم وبعض رجالها ، وحضر مجالس الشراب ، ووصفها وذهب يطيل المدائح في أبي القاسم بن الحجر ، ويثني على قدرته في الكتابة وعلى جوده ، ويمدح بنيه أبا بكر وعمر وعثمان ، ويهنئه بالصوم والعيد ، وعرف من حياة صقلية ومن جمالها ما لمسنا أثره في القصيدة المتقدمة . ومن المغالاة أن ننسب إلى صقلية أثراً في شاعريته وصنعتة لأن ذلك القدر من الإقامة لا يبيح مثل هذا التأثير السريع . وإذا كان شعره تحت سماء صقلية امتلأ بأسماء أمكنة صقلية وأعلام من أهلها ، فهذا شيء لا يضيف على الشعر سمات جديدة والذين يدرسون أثر بيئة معينة في الشاعر سيجدون في مثل ابن قلاقس عقدة من نوع ما ، لأنه لم يكن يستقر في مكان .

ولم تستطع صقلية أن ترضى ابن قلاقس ولذلك نجده يقول لصديقه الشيخ

(١) انظر الحريدة نسخة نور عثمانية الورقة ٥٤ .

أبي الحسن علي بن أبي الفتح بن خلف الأموي الصقلي ، لما قرر الرحلة عنها .

وقمت لي من جفاءٍ في صقلية بلطف مصرَ عليه ظرْفُ بغداد  
إن كان طبعك من ماء ورقته فإن ذلك [ ] بين فولاذ

ويقول له في قطعة أخرى :

تخذتك من صقلية خليلاً فكنت الورد يُقَطَّفُ من قتاد  
وسمّتك بين أهلها صفيّاً فكنت الجمر يقبَسُ من زناد

فلم استحققت منه صقلية هذا الدم ؟ لم وجدها قتاداً وزناداً صلداً وفولاداً  
صلباً ووصفها بالجفاء ونفى عنها الرقة ؟ علينا أن لا ننق كثيراً بأحكام أولئك  
الغرباء الذين كانت تتغير عليهم البيئة ، وخاصة إن كان ذلك متصلاً بعاطفتهم ؛  
وما نظن أن الشاعر يصدق صدقاً - موضوعياً - حين يمدح أو يهجو إلا قليلاً ،  
زد على ذلك أن ابن قلاقس عاش في صقلية تلك المدة محكوماً بالخنين إلى وطنه  
يحلم بالعودة .

ولما قرر أن يعود كان الفصل شتاء ، فهبت ريح ردتته من عرض البحر إلى  
صقلية فكتب إلى أبي القاسم يقول (١) :

منع الشتاء من الوصو ل مع الرسول إلى ديارى  
فأعادنى وعلى اختيا رى جاء من غير اختيار  
ولربما وقع الحما رُ وكان من غرض المكارى

وحين نزل في ميناء الإسكندرية خرج أصدقاؤه للسلام عليه ، ولكنه لم يستقر  
إلا ريثما يعد نفسه لرحلة جديدة .

(١) انظر ابن خلكان في ترجمة ابن قلاقس .





## خاتمة

الشخصية الصقلية والشعر

- ١ - الطبيعة الأرضية وأثرها في الشعر
- ٢ - صقلية ملتقى شعوب لا وطن شعب وأثر ذلك في الشعر
- ٣ - الموقع الجغرافي والسمات التي تركها في الشعر .
- ٤ - صقلية بين التأثير والتأثير .



## الطبيعة الأرضية وأثرها في الشعر

للبحث في حياة القرون الوسطى صلة قوية بالدين وإذا لم تنل هذه الصلة حقها من الكشف والحلاء في مظاهر الحياة جميعاً — والشعر أحدها — كان ذلك إغفالاً لأكبر حقيقة تقوم من وراء كل مظهر في تلك العصور . وليس يفهم الشعر حينئذ إلا حين نفهم العلاقة القائمة بينه وبين روح التدين — الروح لا المظهر المدرسى القائم على الدراسات الفقهية .

وفي شخصية صقلية ما يمكن أن نسميه « الطبيعة الأرضية » . وبيان هذا أن صقلية في عصور الأسطورة لم تستطع أن ترفع رأسها إلى السماء فعبدت آلهة أرضية ، أى عبت آلهة تخافها وتحبها في الأرض لا في السماء ، لأن هذه الآلهة هي التي كانت تمدّها بالثمار والحبوب والحمور والفوارات والبنانييع ، وهي التي تخيفها بقوة « إتنا » وجبروته ، وهذه النظرة التي انصرفت بصقلية عن السماء إلى الأرض جعلتها ترى القداسة في جوانب تلك الأرض ؛ ومن هذه القداسة والأساطير حولها تغذّى الأدب . فلما جاءت المسيحية لم تقض تماماً على الأصول الوثنية لأن في طبيعتها قدرة قبول كثير من المواضع التي درج عليها الناس ، ومع ذلك لم تستطع صقلية في ظل المسيحية أن ترفع رأسها إلى السماء فعبدت القديسين على مسافات قريبة من أرضها — عبدتهم على رؤوس الجبال وأسبغت عليهم صفات الآلهة الأسطورية . ثم جاءها الإسلام يمزج بين غائتين : بين توجيه نظرها إلى السماء وبين سعى حثيث في جنبات الأرض ، فاختارت في الغالب ما هو أقرب إلى طبيعتها ، وغرقت في الحياة المادية ، وزادها غرقاً فيها أن الإسلام التي نزع من نفسها الإيمان بقداسة الموجودات الأرضية ، ومحا الأسطورة القديمة

كانت لا تزال كامنة في نفسها - كانت لا تزال حقاً لأن الأساطير القديمة عن سكلان وخنابديس وصلت إلى المسلمين ورددوها تلميحاً لإسهاباً - . فلما أراد بعض الثائرين على هذا الاتجاه المادى - أو بعض المتصوفة - أن يجذبوا إليهم المريدين أخفقوا في الوصول إلى غاياتهم على أرض لا تعرف هذا الاتجاه الواضح إلى العالم العلوى . فلا غرابة إذا كان الأدب في الأيام الإسلامية كفتاً بتلك الحاجات اليومية العابرة ، لا تعبيراً عن شىء من المثالية في الحياة .

وهذه الطبيعة الأرضية - وهى أول عنصر في شخصية الجزيرة - كان لها أثرها في توجيه الحياة الإسلامية بها ، وكان لها أثران بارزان في الشعر ، أما أولاً فقد أقرت أصولاً خلقية عامة يقبلها الناس في حياتهم فأصبح في الشعر صدق لهذه المقاييس العرفية أو الدينية - أى أنه أصبح يحث على هذه الأخلاق أو تلك ، فاستقام في هذا مع دروس أهل الوعظ ومع الطابع العام للدراسات الفقهية في المساجد . وأما ثانياً فقد نشأ من الاتجاه إلى الحياة العملية اتجاهات دينية تحل بمقاييسها الجديدة محل الدين ، ولست أتحدث عن جميع هذه الاتجاهات هنا وإنما يعينى منها ما اتصل بالشعر ، ففي أواخر العصر الإسلامى كان الشعور بالوطن قد أخذ يقوى على كل شعور آخر ، وأصبحت فكرة الوطنية هى الدين الجديد الذى يربط بين الصقليين أنفسهم ، وهذا ما لمسناه في شعر ابن حمديس من قبل . فإن ابن حمديس في بكائه على صقلية كان يحس إحساساً وطنياً لا دينياً ؛ ولكنه تغير بعد ذلك حين فرضت عليه الحياة أن يتحدث من بعد عن انتصارات المسلمين على غيرهم ، وليس معنى ذلك أن الشعور الدينى عند ابن حمديس فقد بتاتاً في أشعاره الصقلية ، ولكنه حل في المقام الثانى ، وأصبح ابن حمديس يقول لبني وطنه حين يحرضهم على الثبات "موتوا من أجل الوطن فإن بلاد الناس ليست بلادكم" . وهذه صرخة عجيبة في القرون الوسطى لانسمع مثلها إلا تمنيات المؤرخ فلقدندو بأن يتحد مسلمو صقلية ويسيحيوها ليحموا وطنهم من الأعداء . والواقع أن الدين نفسه لم يكن يسمح لهذا الشعور الوطنى بالتفوق

واحتلال المقام الأول، وقد رأينا كيف أن جماعات المتدينين أو من يأخذ أخذهم لم ييكنوا على صقلية وطنهم الضائع لأنهم وجدوا في ضياعها عدالة سماوية تحق العذاب على من استحقه . وربما كان من التنبؤ الكاذب أن يقال بأن صقلية لا الاحتلال النورمانى استطاعت أن تتبنى هذا الشعور الجديد وتنميه ، ولكن لا شك في أن الاحتلال النورمانى قد صرف المسلمين إلى العناية بذلك الحب الذى يربط بين جماعتهم والإشفاق عليه من أن ينقطع . فاعتصم الناس بالدين بعد أن كانت أمارات الحال تدل على أن الشعور بالجزيرة — ذلك الشعور الذى تتبعنا مبادئه حتى تجسم عند ابن حمديس — سيصبح قاعدة الحياة الاجتماعية . ومع ذلك فإن الدنيوية في العصر النورمانى لم تمت من الشعر وإنما رجعت إلى المنزلة الثانية .

وإذا كان للشعر العربى من أثر في الشعر الإيطالى ، فهو أثر بهذه الروح الدنيوية التى حفزت الشعراء إلى اتخاذ موضوعات الحب والغناء والعبث برجال الدين أساساً لشعر جديد وخاصة الشعراء الجوليارديين Goliardic ونسمع أحدهم يقول<sup>(١)</sup> :

غائى أن أقضى في الحان ، فقترب الخمر منى حين هم الروح أن تطير :

*Meum est propositum in tabernae mori ult eint vina proxima morientis eri*

وهى روح تجدها شائعة في الشعر العربى فإذا طلبتها في الشعر الصقلى وجدت شبيهاً بها قول ابن الخياط الصقلى :

ولو أن ملك الأرض تحت يدي بلعلت كل نباتها كروما  
حتى تكون الأرض منهلة تغنى الصوادى عن زلال الما

أو تسمع من هذا الشعر نفسه قوله متهمكاً برجال الدين ومن تبعهم حين  
خرجوا يستسقون :

خرجوا ليستسقوا وقد نشأت مجنوبة شَرِقَ بها السَفَح  
حتى إذا اصطفوا لدعوتهم وبدا لفيض دموعهم نضح  
كُشِفَ الغمامُ إجابة لهم فكأنما خرجوا ليستصحوا

وقد كان الشعراء الصقليون يتفاوتون قليلاً أو كثيراً في الشعور بالنواحي  
المتعددة لهذه الذنوبية، فبينما تجد ابن الخياط يتهم برجال الدين أو يريد أن يجعل  
كل نبات الأرض كرمًا ليشرب الناس خمراً ، بدلاً من الماء ، تجده ضعيف  
الإحساس بالناحية الوطنية ، إذا قارناه بابن حمديس . وقد مرّ بنا قوله من قبل  
لبني أبي الحسين :

ليسلكم أن الجزيرة بعدكم كما قيل في الأمثال لحم على وضم  
وكيف أن هذه السلوى على حساب الوطن الموزع المنتهب ، ومن كان عنده  
أدنى شعور بوطنه وعلاقته به لا يقول مثل هذا القول . وإذا وضعنا هذا إلى  
جانب قول ابن حمديس وهو يتغزل :

رشأ أحن إلى هواه كأنه وطن ولدت بأرضه ونُشيتُ

تبين لنا أي فرق هنالك في الشعور بالوطن بين الشاعرين .

ومن الإغراق في الخضوع للطبيعة الأرضية في النواحي الاجتماعية نشأت في  
حياة الجماعة ثورات عليها ، فقام في المجتمع الصقلي الزهاد والمتصوفة ، وسرت في  
الشعور نغمة التوجس والخوف من الناس ، والإيمان بأنهم مطبوعون على الشر ،  
واضطبغت البيئات الفقهية بصبغة المحافظة والتشدد . حتى لنستطيع أن نرسم لحياة  
الناس خطين متوازيين ، يمتدان أحياناً بذلك التوازي في حياة الفرد نفسه . أي أننا

نستطيع أن نرى في وجهات متعددة بالبيئة الصقلية تشدداً وتزمتاً ومحافظة من ناحية وانحلالاً وعدم اكتراث ومفارقة لكثير من المقاييس التقليدية ، من ناحية أخرى. ولذلك ابتعدت الدراسات الفقهية واللغوية وأهدافها عن الواقع الاجتماعي فأصبحت المحافظة صبغة لها والتحرز سمة عليها ، وأصبحنا نرى من مظاهر هذا التشدد المقترن بمعنى التدين ، أخذ الفقهاء بالأشد من كل حكم ولزومهم المدونة لا يجيدون عنها ، وقول بعضهم وقد قدم إليه تلميذه خفه ليلبسه — وكان ذلك التلميذ ممن يفتى — اصفعني به يا أبا القاسم ولا تفتنى <sup>(١)</sup> . وتأليف الكتب اللغوية في رد اللغة إلى مقياس واحد هو الفصحى وعدم إقرار اللهجة المحلية ، وفي هذا الجو ألف كتاب تثقيف اللسان . بينا كان الواقع الاجتماعي يسير مع طبيعته في التكلم باللهجة المحلية أو الكتابة بها أحياناً ، ويرى أن الضرورة لا تمنع الزواج من المسيحية على أن يقتسم الأولاد بين الأب والأم فما كان من ذكر فهو للزوج وما كان من أنثى فهو لها . وقد سرى مبدأ التشدد إلى الشعر حتى ليقول ابن حمديس <sup>(٢)</sup> :

خذ بالأشد إذا ما الشرع وافقه ولا تمل بك في أهوائك الرخص  
ولا تكن كبنى الدنيا رأيهم إن أدبرت زهدوا أو أقبلت حرصوا  
ولا تستغرب هذه الدعوة من شاعر دنيوى فإنها تمثل أيضاً ذلك التباين بين الواقع والمثل الأعلى .

هذا من حيث التشدد ؛ أما ما قد نسميه انحلالاً فقد كان يشمل جوانب عدة — كان يشمل الخروج على مبادئ الخلق والعقيدة واللغة وقد وصف لنا ابن حوقل انحلالاً واضحاً في أخلاق طبقات من الناس يعيشون في رباطات مليئة بالفساد على شاطئ البحر ، ورأينا كذلك بعض من يفهمون الدين كما يوافق حالهم ، أما في اللغة فقد تحدث ابن حوقل إلى رجل صقلى بعد أن سمع الخطيب

(١) ترتيب المدارك : مجلد ٢ الورقة ١٥٧ والترجمة رقم ١٥٧ من مجموعة الشعر .

(٢) الديوان : القصيدة رقم ١٧٤ .



يلحن في خطبة الجمعة وسأله كيف يرضون بهذه الحال فكان جواب ذلك الصقلي الأديب "كأنه والله يا سيدي كما تقول غير أنا نحن لا نأبه لمثل هذا (١)".

"غير أنا نحن لا نأبه لمثل هذا" كلمة تمثل ذلك الانحلال أو قلة الاكتراث عامة وأراها مناقضة صارخة لذلك الأخذ بالأشد من المقاييس - ومع ذلك فإنك واجد بين هؤلاء الصقليين الذين يصفون أنفسهم بأنهم لا يأبهون لمثل هذه الأمور - واجد بينهم جماعة لا يروون الحديث وهم من حفاظه لأنه لم تتقدم لهم سابقة في العربية مثل أبي حفص عمر بن يوسف بن محمد بن الحذاء القيسي الصقلي وقد التقى به السلفي وجهد حتى يروى عنه الحديث فأبى، قال السلفي: "وحرى بيني وبينه خطب طويل في فضل الرواية وأن روايته أولى من امتناعه منها، فاعتل بعلى تكلمت عليها معه فوجدت عمدته في تحريره التحرز من الوقوع في الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم إذ لم تتقدم له قراءة للعربية" (٢).

ولما دخل ابن القطاع مصر أخذ عليه نقدة المصريين تساهله في الرواية فقد أنكر أنه رأى كتاب الصحاح أو أنه وصل صقلية "ثم لما رأى اشتغال الطلبة به ورغبة الناس فيه، ركب فيه طريقاً في روايته وأخذ الناس عنه مقلدين له إلا الأقل من محققى النقل في ذلك الوقت (٣)" أى أن ابن القطاع استباح الكذب ولم يأبه أن يوصف به. غير أنه في موقف آخر كان مثلاً للتشدد - مرض تلميذه نصرون بن فتوح بن الحسين الخزرجي بمصر واحتاج إلى شيء من المال فباع كتباً أدبية وغير أدبية، ومن جملتها صحيح البخاري وصحيح مسلم، ولما أبلى من مرضه ذكر ذلك لأستاذه ابن القطاع فغضب عليه غضباً شديداً وقال له "كنت تقنع ببيع كتب الأدب فعنها عوض وتركت عندك الصحيحين. هل رأيت مسلماً يخرج

(١) ابن حوقل ١/١٢٧ .

(٢) السلفي : ١/١٢٢ .

(٣) انباه الرواة : ١/٥٣٦ .

الصحيحين من داره ؟ هل رأيت مسلماً يخرج الصحيحين من داره ؟ “ وظل يردد ذلك أمام الحاضرين حتى شعر ذلك التلميذ بالندم الشديد <sup>(١)</sup> . وهكذا تلمس هذا الازدواج في النفس الواحدة وتراها مقلبة بين التساهل والتشدد .

## ٢

### صقلية ملتي شعوب لا وطن شعب وأثر ذلك في الشعر

وأهم حقيقة ذات أثر في تكوين الشخصية الصقلية أن صقلية جزيرة في البحر وأنها في ذلك الموقع المتوسط ملتي يجتمع فيه المسافرون ، ويقف عنده المتحاربون ، يوم أن كان البحر المتوسط مسرحاً للحضارات وطريقاً للحركات التجارية . فهذا الموقع هو الذي منح صقلية هذا اللون من التاريخ — أى تاريخ جزيرة يتعاقب عليها الغالبون أصحاب السيادة في البحر المتوسط ، ولكنها لم تفقد أبداً الروح التي كانت تدفعها إلى الاستقلال حتى لحظ أحد المؤرخين المسلمين أنها لم تزل في يد متملك لا يطيع من حوله من الملوك <sup>(٢)</sup> ، غير أن هذه المحاولات كانت دائماً فردية لا تنبثق من نفسية الشعب الصقلي — إذا صح أنه كان هناك مثل هذا الشعب . يقول المؤرخ فريمان : ” ولما كانت ملتي الشعوب وميداناً للصراع فيما بينها لم تستطع أن تكون وطناً ومهداً لشعب واحد . . . ومن ثم لم يتكون فيها شعب صقلي “ <sup>(٣)</sup> وفي هذا القول قسط كبير من الحق ، وإن كنت لا آخذه على علاته ، فإن الروح الوطنية في آخر العصر الإسلامي كانت قد نمت قليلاً ، ولو استمر بها الحال لكان هنالك الشعب الصقلي الذي يشعر أنه ابن صقلية ، ولكن الظروف لم تمهل هذه الروح طويلاً فلم يطل تمتعها بالحياة — نعم

(١) السلي ٤١٦/٢ .

(٢) المكتبة : ١١٥ .

(٣) Freeman : Hist. of Sicily, vol. I, p. 4.

كانت صقلية الإسلامية جزءاً من عالم يدين بدين واحد ولكنها في البحر المحيط بها استطاعت أن تنبت أجيالاً صقلية المشاعر مسلمة الدين . إلا أن الهجرات المستمرة وغلبة العناصر الغريبة على بعض نواحي الحياة فيها كانت تضعف من قوة هذه الروح أيضاً . ولذلك رأينا مع الشعر الصقلي دائماً شعراً آخر يعيش إلى جانبه هو الشعر المهاجر الوارد إليها من إفريقية وغيرها .

وفي هذه الحقيقة ، أى القول بأن صقلية كانت ملتقى شعوب لا وطناً لشعب صقلي نجد تفسير الضعف الذى نلمسه في إقليمية الشعر أو وضوح النواحي الإقليمية فيه — وهى حقيقة تضاف إلى ما تحدثت عنه من عوامل كروح المحافظة ، وحب التقليد للأمثلة الشرقية ، والإيمان بمبادئ النقد التى تكونت في المدرسة الإفريقية ، وكون هذه الأجناس التى افتتحت صقلية وتعهدت الشعر فيها إنما هى أجناس حظها قليل من المقدرة اللغوية والأدبية ، فإذا وضعنا كل هذه الأسباب معاً عرفنا لم غلبت الصبغة التقليدية على الشعر في أدنى صورها . حتى إنا قلما نعر بشعر قد اخترق أسوار التقليد وشق لنفسه طريقاً جديدة ، أو طريقاً فيها شيء كثير من الجدة .

فالصبغة العامة للشعر هى الصورة التى نلمحها في الشعر العربى حين أصبح نماذج مكررة يسرى عليها التقليد ، وتتمشى فيها المبالغة بقدوم عنيقة ، ويتوارثها الشعراء كأنها ملك عام لهم ، في هذا الشعر لا يزال النهى كالرمان والورد يلوح من الوجنتين ، والعدار ميدان هو يتسابق في وصف جماله الشعراء ، والفم لؤلؤ في شقيق ، والجفن حد سيف مرهف . ولا يزال الشيب والخضاب فيه موضوعاً للأسى والأسف ومفتاحاً لتذكر الشباب واسترجاع الندم على فواته . حتى التعبير عن هذه الحقائق لم يصبح موضع تمييز يفرد شاعراً عن شاعر حتى يقال فيه ما كان يقوله الأقدمون إنه قد استحق هذا المعنى وأصبح به جديراً — ولا يزال الشاعر ينقذ إلى ما اختزنه من دراسات في الصبا فإذا رأى الجميل ذكر يوسف

ذكراً عابراً ، وإذا قيل له أنت قد سرقت قبلة وحد السرقة واجب عليك ، تفقه في الجواب بقوله : إن الحد لا يجب إلا في السرقة من حرز ، وإذا رأى المرجان الذى تصنع منه التماثيل تذكر داود الذى ألين له الحديد . وهو في هذه الإشارات والتلويحات يبني على أسس كانت حية فأحالتها إلى التركيز والثبات ، وأخذ يستدعيه - لتعينه على نقل أفكاره ومشاعره . وكلما انصرفت نفسه إلى الليل لم يستقل بتصوير تأثيره ، ولكنه كان دائماً يستحضر معنى النابغة فيه ؛ فهو إلى جانب مخزونات من فقه وقصص قرآنية ينوء إلى ما يملكه من معان شعرية ومن أمثال وحكم لقنها في نشأته . وكان اهتداؤه إلى هذه الأمثلة المقدسة المرعية هو الشاعرية الحقة في عصره ، ومن الظلم أن نحاسبه في الشعر بما نحب ونكره ، حتى التكرار الممل للصورة الواحدة في تلك العصور لم يكن أمراً منكراً يضيق به الناس كما نضيق به نحن اليوم .

فالشعر الصقلي بهذه النظرة هو الطاقة التي هيأت لها جميع التواحي في الحياة من اجتماعية وثقافية وسياسية ، فهو كفاء بحاجة الناس الذين من أجلهم وجد وعن نفوسهم عبر . وعلى هذا الاعتبار - أى على أنه طاقة اشترك في إخراجها عوامل متعددة حتى كانت على هذا الوضع - يتقدم الدارس لدراسته . فالضعف فيه ظاهر بالنسبة لمقاييسنا . ويتجلى الضعف في أشد حالاته حين تكون المقاييس التي نستعملها فنية - عندئذ يتفتت هذا الشعر ولا يقف عند مقياس فنى . ومن ثم تجنبت الحكم على فنية هذا الشعر قدر المستطاع ، وإن كان من العسير كثيراً أن أدرس هذا الشعر وأخرس أثناء دراستي له صوت النقد ، فأقل ما في هذه الطاقة وأضعفه جانبها الشعورى ، حتى ليقال إن حظ هذا الشعر في الضعف وفير في كل ناحية - التعبير قاصر في الأكثر ، والموضوع ميت لا حياة فيه . وقد حاول ابن حمديس أن يجعل صقلية موضوعاً لقصيدته ، ويجعل فكرة الوطن محط التعبير في شعوره ، فلم ينجح كثيراً وعاد يتأثر التقاليد الموضوعية ويخلط بين صقلية وبين الطلل - والدراسات الفقهية

تغمر هذا الشعر بقواعدها ، والوعظ الديني يسيطر عليه بنصائحه ومقاييسه الخلقية . وفكرة المناظرة تنخر فيه — فناظرة بين الشيب والشباب ، والسوداء والبيضاء — وكلها تدور في رأس الشاعر الذي يحاول أن ينتصر للشيء وضده ، ويظهر بذلك براعته . وهي لوثة جاءت من المشرق أيضاً . والشكل ظاهر على كل ما حوله عند الشاعر وهمه أن تتوفر له المقدمة ثم يتوفر له التخلص ولا يعنيه بعد ذلك شيء في اللب الذي تقوم به القصيدة . وللغزل والرثاء وغيرهما طابع لا يفارقه الشاعر . فكل غزله تذلل وشكوى وضراعة وسهر ... إلخ ، وكل رثائه جار على نمط قول الشاعر الصقلي : « للموت ما يولد لا للحياة » . والتذكير بأن النفس عارية مردودة ، والتهويل بالفاجعة التي كادت تهز أرجاء الكون أو لعلها هزتها بالفعل — كما يفعل أبو تمام في مراثيه — هذه هي حال الشعر فيما يتناول من أمور ، ودع عنك ما سقط الشعر دون تناوله فذلك كثير — وقد بينت منه طرفاً في فصول سابقة .

بهذا الضعف يقف الشعر الصقلي إذا قورن إلى أمثلة من الشعر العربي نفسه ، فكيف لو حاولنا أن نضعه بإزاء الشعر اليوناني كما فعل البارون فون شاك ؟ إننا عندئذ نقدم قرماً ليقف إلى جانب عملاق ضخم ، وهي مقارنة غير مستجلبة أو مقتسرة — على أي حال — لأن الأدبين عاشا في الجزيرة وخضعا لبيئة طبيعية متشابهة ، وتكاد النتائج التي تتمخض عنها أية مقارنة لا تكون أسوأ من هذه النتائج التي تحصل عليها حين نجرى المقارنة بين ما أنتجته صقلية الإسلامية وما أبدعته هيلاس <sup>(١)</sup> .

وقد لاحظ شاك أن هذا الشعر العربي الصقلي يشارك الشعر العربي الأندلسي خصائصه الأساسية ، وإذا قلنا الأساسية كان هذا القول صحيحاً لأن التمييز الفارق

Shack : Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien vol, 2, p. I. ( ١ )

في الشعر الأندلسي — فيما يظهر — كان قليلاً ، ولكنه على أية حال أظهر تميزاً من الشعر الصقلي . ويحد شاك سر هذا التقصير في أن العرب يتذبذبون في دائرة ضيقة من الآراء والأفكار ، وهذا ما يوصف عادة بروح المحافظة الغالبة عليهم . وهم قد جهلوا أساطير الأمم التي سبقتهم فلم يعرفوا شيئاً عن نبع أرثوسة وعن وادي يانة حيث كانت برسيفونة وصواحباها يجمعن الأزهار ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن عالم الأوديسية إلا ما تسرب منها إلى أسطورة السندباد ، ولم يرد لأتنا الشامخ ذكر في شعرهم أبداً مع أن جغرافيتهم وصفوه وصفاً دقيقاً . ولا جذب انتباههم تلك العظمة المتداعية التي كانت تمثلها المدن وهياكلها ، لا شيء من ذلك أبداً<sup>(١)</sup> .

حقاً إن المسلمين لم يعرفوا شيئاً من هذا الذي يذكره شاك لأن قداسة الأمور الأرضية كان قد انتزعت من أنفسهم وعادوا يرون في أرثوسة وإتنا مظهرًا عاديًا ، ولكنهم مسئولون عن إغفالهم الجمال — لا القداسة — في هذه المناظر وقد حاولت من قبل أن أشير إلى ضعف صلتهم بالبيئة الريفية في وطنهم لأسباب ذكرتها هنالك .

ويرى هذا المؤرخ الناقد أن الشعر العربي في الغرب كان نبتة من أرض بعيدة ، يتوقع لها أن تستمد أنواعاً جديدة من التغذية ، حيث زرعت في التربة الجديدة ، ولكنها تغيرت قليلاً في شكلها في هذا المناخ الغريب ، ولم تتغير شيئاً في أصلها . . . فكانت الصحراء هي التي تمد الشعراء بالمادة والصور في قصائدهم ، وإذا كان شعراء أوروبا الحديثة يفيثون إلى ما تلقوه في دراستهم من أدب يوناني أو روماني ، فإن الشعراء العرب كانوا يرون مصادر وحيم في الحياة البدوية وما فيها من أبطال وشعراء ، ومنها استعاروا اصطلاحاتهم وتعبيرهم . فإذا تصوروا « أركاديا » تمثلوا وادياً مقفراً بين جبلين من الرمل تقوم فيه أطلال مية . . . الخ ولعب الجمل والغزال في قصائدهم دوراً هاماً مع أنهما غير موجودين بصقلية .

ولعل صنعاء التي لم تكن خيراً من بلرم في ازدهار عهدها كانت مثال الحضارة ومحط السعادة في نظرهم ، وأمراء غسان والحيرة <sup>(١)</sup> يتبدون لخيالهم أعلى ما بلغه العالم من أبهة وجلال <sup>(٢)</sup> .

ولست أرى في هذا الحكم جوراً على الشعر الصقلي، بل لعلى ذهبت إلى أبعد من ذلك فلم أبدأ إعجابي بذلك الشعر الذي يصور القصور والمتنزهات والبرك وأشجار الليمون والنازنج ويصف الحداثق والأزهار — لم أبدأ إعجابي بهذا الشعر الذي يفرده شاك بالناية ويعده أصدق ما يمثل الطبيعة الصقلية حين يقول « ونصت بإعجاب إلى هؤلاء الشعراء حين يصورون الدور والقصور والزخرفة الفنية والسقوف في أبهاء القصور والعرائش والنافورات المرسومة في أشكال أسود ينبعث الماء من أفواهها . ونقاد في سرور أيضاً وراءهم حين ينتقلون بنا بين الأشجار الخضر حيث يلتصع الليمون من بين الأوراق ويبسق رأس النخلة في السماء . . . ونرحب بهم حين يطلقون العنان لعواطفهم ويتغنون بالحب البدوي دون توار أو مواربة . أو حين يصفون خمر سرقوسة ولياليها الصاخبة مصحوبة بأنغام المغنية وألحان الجوارى على الناي ، أو حين نسمعهم يتحدثون عن الإسلام الذي اندحرفي خضوع أمام المسيحية ، أو حين يمدحون الملك النورمانى ويصورون روعة بلاطه ، ويرسمون لنا حالة حضارة هي بين المسيحية والإسلام . فإلى هذه القصائد التي كانوا يبتعدون فيها عن التقليد ويستوحون الواقع المحيط بهم نريد أن نوجه اهتمامنا وفي هذه القصائد وحدها تخيم على الشعر الصقلي شخصيته المتفردة <sup>(٣)</sup> .

في هذه النواحي التي يعددها شاك يكاد يكون الشعر الصقلي صادقاً لبيئته حقاً ولكنه صدق وحسب . أما الأصالة الفنية في هذا الشعر فشيء نادر جداً وكثير من هذه الصور التي يذكرها شاك مستمدة من ابن حمديس نفسه مثل

(١) في نقش شمري بقصر رجار أنه فاق الخورنق والسدير .

Schak : vol, 2, p. 9-10. (٢)

op. cit. p. 10-11. (٣)

ليالى سرقوسة وخرها والحديث عن الإسلام الذى ارتد على أعقابهِ أمام المسيحية ، وهى صور جميلة فى الواقع ، فابن حمديس قد استطاع أن يرتفع بالشعر الصقلى ارتفاعاً يجعل له موضعاً بين سائر الشعر العربى ، وأما تلك المداخل التى كانت تقال فى الملك النورمانى أو التى قيلت فى وصف المنتزهات والقصور ، فقد قلت فيها رأي من قبل ، وإن كنت لا أنكر أبداً أنها خير ما يصور صقلية فى صدق . وموطن الطرافة فيها تلك الروح التساهلية التى يعيش بها المادح والمدحوح على تباين الدين ، فى عصر لم يكن يسمح بذلك التسامح . وفيها شعور ساذج بالجمال - ساذج جداً - وهى بهذا القدر وحده جميلة فى الشعر الصقلى .

وإذا قلت الشعر الصقلى عنيت دائماً هذا القدر منه ، فإن هذا القدر الذى نملكه يكاد لا يتمتع بشيء يميزه . فظاهر القوة فيه قليلة ولكنها غير منعدمة . وقد رأينا فيه خروجا على بعض النواحي التقليدية وعرفناه تخطى قاعدة التذلل فى الحب ، وشهدنا كيف يعلو الشاعر أحياناً فى رقة فيقول :

لى وعدٌ دون عينيك مضى      دونه عمرى وواقى أجلى

كما فى أشعار عبد العزيز البلىونى وهو من أصدق الشعراء الصقليين أصالة فى القطع التى رويت له ، ولكنها قليلة بحيث لا تستطيع أن تعطى عنه صورة صادقة ، وستعجبك فى هذا الشعر بعض الصور كقول ابن الخياط :

ترى كبرياء الحسن فى لحظاتهم      تشاب برهبانية المتعبد

أو كقول ابن حمديس :

وقد سكنت حركات الأسى      قيان تحرك أوتارها

وستجد فى الخصائص العامة لهذا الشعر تلك النعومة التشبيهية التى تغلب على شعر عبد الرحمن البلىونى ، أو ما يسميه شاك الخضوع للمتعة المؤقتة المستمدة من الطبيعة الحميلة ، حتى لتكاد تظن فى هذه الخاصة ، أنك لم تبعد كثيراً عن



ثيوقريطس على اختلاف في الناس والزمان . والحق أنى لست أذكر بهذا الشعر شاعر الرعاة وكيف يأخذ جماعة الرعاة عنده بالغناء تحت شجرة الصنوبر وفي ظلها الظليل والجنادب الداكنة تصوت وتصصر والرياح المثقلة برائحة الأزهار في الحقول تداعب الجفون بالسنة — لست أرى هذا في الشعر الصقلي العربي إلا إذا كانت الرائحة المنبثة في أشعار ابن حمديس وغيرها تستطيع أن تنقل قارئها إلى ذلك الجو الرينى الجميل .

ولقد طال بي الحديث عن نقد هذا الشعر حتى لأحسبني جرت عليه في التقدير ولكن ما إلى هذا قصدت ، فأنا أتحدث عن الشعر الصقلي وحده ، وهذا يجعل نقدي له يبدو أكبر مما هو ، ولو قد نقد هذا الشعر في نطاق عام ، لو قد أخذ بين الشعر العربي جميعاً لأصابه نصيبه العادل من النقد ، إذ لم يكن الشعر الصقلي غريباً بمظهره ذاك في تلك العصور وأكاد أقول ولم يكن ضعيفاً ، وهؤلاء هم الشعراء الصقليون لم يموتوا في البيئات التي انتقلوا إليها حين هاجروا من وطنهم بل عاشوا إلى جانب غيرهم إن لم نقل تفوقوا عليهم ، وابن حمديس وأبو العرب في الأندلس مثالان واضحان على ذلك . وأسارع فأضيف أن العوامل التي دخلت في تقديرهم لم تكن دائماً عوامل فنية ولكنها كانت هي العوامل المؤثرة في تقدير غيرهم .

## الموقع الجغرافى والسمات التى تركها فى الشعر

غير أن صقلية البحرية ، القرية من جنوب إيطاليا ، المتصلة مع بلاد الإسلام بصلات ثقافية واجتماعية ، قد أثرت هذه النواحي منها فى الأدب تأثيراً واضحاً . ونخصوفاً لهذه المظاهر التى نعملها باسم الموقع نجد للشعر الصقلى ثلاث سمات بارزة :

( ١ ) السمة الحربية : وهى أول الصفات التى نشأت من موقع الجزيرة وقيام حياتها على الجهاد ، لقربها من جنوب إيطاليا واضطلاع أمرائها بالجهاد فى ذلك الاتجاه ، وقد وجدنا هذه السمة الحربية موضوعاً فى الشعر فهنا تصور مناظر القتال وحياة الأمير المجاهد ، ومن هنا يستمد ابن حمديس موضوعات البطولة التى يسبغها على بنى قومه أو بعبارة أخرى الفخر بالقوة الحربية والفتك بالروم . ومن هنا تسربت إلى الشعر الصقلى أيضاً معانى القتال وتشبيهاته فى موضوعات كالغزل ووصف الخمر وغيرها . فقد تسمع الشاعر يصف الخمر بأنها تفتك بالهموم أو بأنها تغير عليها ، وتسمعه إذا وصف روضة شبه الأشجار بالجنود والأغصان بالرماح ، وعند استقصاء هذه الناحية فى الشعر يتبين أنها ليست مجرد صور تقليدية يأخذها الشاعر من غيره فقد تكون كذلك ولكن لا ريب فى أن للحقيقة المستمدة من البيئة أثرها فى تصور الشاعر وتصويره .

( ب ) السمة البحرية : فى هذا الشعر الصقلى ما يمكن ، أن نسميه شعر البحر — فيه وصف المعارك البحرية والسفن المقاتلة وغير المقاتلة وخاصة فى أشعار ابن حمديس ، وفيه تصوير عام لانقضاء السيادة الإسلامية فى البحر

يتمثل لك في قول أبي العرب الصقلي لما دعى إلى الأندلس :

لا تعجبن لرأسي كيف شابَ أسيّ      وأعجب لأسود عيني كيف لم يشب  
البحر للروم لا تجرى السفين به      إلا على غرر والبر للعرب

وفيه تصوير للسيادة البحرية أيام العصر النورمانى فقد أسر أسطولُ صاحب  
صقلية أحدَ بنى رواحة مع عصابة فوقف أمام الملك وأنشده قصيدة يمدحه بها  
ويقول في وصف الواقعة :

أيا ملكاً جالت أساطيلُ جيشه      فأعظمت القتلى وأكثر الأسي  
وأجريتها في بلجة الماء إذ جرى      فأسكرته جرياً وأجريتها بحراً  
وكنا لما تجرى المقادير عصابة      ركبنا به والموج يخطفنا ذعرا  
وجاءت من الأسطول طيرٌ مسفةٌ      أحاطت بنا من كل ناحية قسرا  
فقمنا إليه ثائرين لدفعه      نغالبه قهراً فعاجلنا قهرا

ومع بساطة هذه الأبيات فإنها صادقة في دلالتها على سيطرة الأسطول  
النورمانى حيثئذ وكثرته وقوته .

وفي هذا الشعر عامة شعور بالخوف من البحر ، ويؤيد هذا الخوف واقع السفر  
البحرى يومئذ . وفي رحلة ابن جبير وفي وصف ابن قلاقس للبحر وأهواله في كتابه  
« الزهر الباسم » ما يزيل دهشة من يستنكر مثل هذا الخوف . فكان البحر مما  
يتجنب ، ولذلك كانت صورة البطولة في السفن البحرية أقوى من صورة الجهاد  
البرى عند ابن حمديس ، وعند هذا الشاعر يكبر الخوف من البحر ، لأن هذا  
البحر هو الذى أخذ جاريته جوهرة ، ولأنه نفسه كان ذات يوم في الغرقى حين  
حاول مرة أن يذهب لزيارة أهله ، ثم هو يمقت البحر الذى يفصل بينه وبين  
وطنه ، ويمكن لأعدائه سيادة وتبسطاً ، ولذلك امتلأ شعره شعوراً به وكثر انتزاعه  
للصور منه . ولعل افتخاره بقطع الصحارى وركوب السفائن البرية ، وصبره على

أهوالها ، تعويض لما كان يحسه من نفور إذا وقف إزاء البحر ، فقد عاد ابن حمديس إلى إفريقية ووجد في مصاعب البداوة ما تقبله نفسه ، أما أخطار البحر فلم يكن له صبر عليها . وقد دخلت صورة البحر في تشبيهات الشعر الصقلي وأبرز ما هو مستمد منه ، صورة الشبكة في وصف الحمر وتكاد تكون عامة في الشعر الصقلي فيكررها ابن حمديس - كما مر من قبل - ويضيف إليها صورة الغائص الذي يذهب إلى القعر ليستخرج الدر - أى صورة الحباب حين يطفو عند ما يصب الماء على الحمر . وهى في شعر أبى العرب الصقلي حيث يقول :

كادت تطير نفاراً حين نافسها لولا الشباكُ التى صيغت من الحب

وهى في شعر الأمير ابن القاسم الكلبي في قوله <sup>(١)</sup> :

كأن حبابها شبكٌ مقبم لصيد الألسن المتطايرات

( ج ) الرسائل الشعرية : فإن صقلية أولاً بتوسطها في موقعها وثانياً بهجرة بعض أهلها وبقاء البعض الآخر فيها ، قد أصبحت ترسل وتستقبل الرسائل الكثيرة . وكانت أكثر الرسائل الإخوانية بالشعر ، ولعل هذه الظاهرة هى أوسع الظواهر وجوداً في الشعر الصقلي ، ومنها كثير في شعر ابن أبى البشر ، وكان شعراء العصر النورمانى يرسلون بعضهم بعضاً وهم في صقلية ، كما يرسلون جماعة من أصدقائهم في الخارج ، كأبى الضوء الذى كان يرسل الشافى الصقلى ، وكان أبو الصلت يرسل كثيراً من شعراء عصره ، وحوله قام نشاط أدبى واسع في هذه الناحية . وكذلك كانت المراسلات دائرة بين ابن رشيق وأصدقائه من الشعراء في صقلية . ولو كان إحصاء هذه الكثرة مما يفيد لوجدنا أن قسماً وافراً من الشعر الصقلي الموجود لدينا ليس إلا رسائل أو أجوبة على رسائل .

ولكن هذه الرسائل كانت أحد عوامل الجُمود في هذا الشعر بدلا من أن تكون سبب حياة . ذلك لأن هناك قيوداً يجدها الشاعر حين يرد على رسالة وصلته

( ١ ) انظر الترجمة رقم ٦٦ من مجموعة الشعر .

من صديق له، ويرى نفسه إزاءها مضطراً إلى اصطناع بعض ما يستسيغه في الرد، وماذا يقول شاعر أرسل له صديقه قصيدة يطلب فيها أن يعيره كتاباً؟ ماذا يقول في رده سوى أن يحشد ألفاظاً فارغة لا معنى لها، ومع ذلك فإن هذه الرسائل التي كانت تدور بين الشعراء تتناسب في الواقع مع الشعراء أنفسهم ومع موضوعاتهم فهي عامرة بالركة في شعر ابن أبي البشر كما هو الشأن في شعره عامة، وهي كذلك في شعر أخيه عبد العزيز الذي يقول لبعض إخوانه:

كُتبت أشكو إليكم ما وجدت بكم من الغرام ومثلي من شكا فبكا  
والله والله ثم الله ثلاثة ما قصر بين في قتلي ولا تركا  
كأن بين ضلوعي حين يذكركم قلبي جناح قطاة علفت شركا

وهي في أشعار الفقهاء مثال الجمود والقصور في التعبير حتى حين يكون الموضوع عتاباً، وهي عند ابن حمديس تستمد قوتها من الموضوع، وعلى يده بلغت هذه الرسائل أعلى درجات الأصالة والقوة، وفي رسالتين<sup>(١)</sup> أرسلهما لابن عمته أبي الحسن بن أبي الدار الصقلي، بلغ ابن حمديس من إجادة التعبير عما في نفسه حداً بعيداً وذلك من قوة الموضوع لأنه يتحدث عن غربته ويعتذر عن عدم تمكنه من القدوم على أهله ولأنه أيضاً يخاطب فيهما أبا الحسن وهو من الأقارب الأصدقاء الذين كان لهم تأثير في حياته.

وبهذه الخصائص الثلاث عبر الشعر الصقلي عن واقع صقلية الجغرافي كما عبر بوصف المتنزهات والقصور ومجالس الخمر عن حياتها الداخلية. وهذه هي المظاهر البارزة التي تواجه الدارس للشعر الصقلي أول ما تواجه، ضعيفة كانت أو قوية.

ولا بد من أن نلمح في هذا الشعر أيضاً شعوراً بالمغربية تشير إلى نوع من الاستقلال الجزئي في الروح عن المشرق وما يتعلق به، فإن صقلية كانت تشعر

(١) انظر الديوان، القصيدة رقم ٢١٥، ٢٨٢.

بحكم موقعها القريب من إفريقية وعلاقتها بها أنها جزء من إفريقية ، وكان استقلالها في المذهب قد أخذ يباعد قليلا بينها وبين الشرق حتى إن أحد الصقليين حين هاجر إلى العراق لم يستطع أن يشتهر بالفقه لأنه وجد الناس قد انصرفوا عن مذهب مالك ، ولا يعلم الكلام لأنه لم يكن قادراً على أن يسبق العراقيين في هذا المضمار فحول اهتمامه إلى اللغة والنحو <sup>(١)</sup> . وهذا الشعور بالمغربية يتجلى في تحميل الشعر مدح مالك ومذهبه ، وفي استيلاء فكرة جزئية على مخيلة الشاعر هي القول بالشمس التي تطلع من المغرب وخاصة في الغزل كما في قول أحدهم :

أهذه الشمس التي قلتُ تطلعُ للناس من المغرب

وقول الآخر :

أيا سنى التوبة من حبه طلوعه شمساً من المغرب

وسافر أحد شعراء المغرب إلى المشرق ثم عاد فكتب إلى ابن حمديس فأجابه هذا بقصيدة <sup>(٢)</sup> يقول له فيها إنه طلع على مصر فقالوا هذا هلال طالع من المغارب ، وفي مصر نيل ولكن في المغرب البحر المحيط :

طلعت على مصر ونورك ساطع فقالوا هلال طالع من مغاربه  
وفي المغرب البحر المحيط وقد علا على نيل مصر منه مد غواربه

وبهذا الموقع كانت صقلية أيضاً حصناً يدافع عن بلاد الإسلام ، فهي التي تتلقى الضربة الأولى دائماً ، أي هي ثغر على الحدود بين عدوين أحدهما في الشمال والثاني في الجنوب . وبهذا الشعور تنطق أشعار ابن حمديس في حديثه عن الثغر وبني الثغر وفي مثل قوله :

صقلية كاد الزمان بلادها وكانت على أهل الزمان محاربا

(١) انظر Centenario ٣٨٠/١ في ترجمة المازري المعروف بالذكي .

(٢) القصيدة رقم ٢٦ .

والخلاصة أن صقلية بموقعها وبيحرها وروحها الحربية استطاعت أن تتحكم في توجيه الأدب ولكنها لم تستطع أن تتحكم في تكوينه ، وإذا كان هناك شاعر يمثل جوانبها المتعددة في وصف الحمر والبحر والجهاد ، وفي الروح الدنيوية وفي قوة التعبير عن هذه جميعاً فهو ابن حمديس ، ومع ذلك فإنه تكوين لم يتم لأنه فقد صقلية وهو أشد ما يكون تعلقاً بها ، ومن ثم صهرت كل هذه الاتجاهات عنده في شعور بالوطن قد لا نجد له مثيلاً عند أى شاعر آخر رثى وطنه .

#### ٤

#### صقلية بين التأثير والتأثير

وبحكم هذا الموقع أيضاً كانت صقلية متأثرة مؤثرة — كانت تستقبل المؤثرات الخارجية المهاجرة إليها مع الكتب والمهاجرين على اختلاف مهتهم ، وظهر هذا التأثير في فنّها ، حتى لم يعثر دارسو الفن في صقلية الإسلامية على ما يميزها فيه عن سائر أقطار الإسلام ، وظهر كذلك في شعرها وخاصة في صورته التقليدية — كانت متأثرة حين تعتبرها جزءاً من بلاد الإسلام ، وكانت مؤثرة حين تعتبرها جزءاً من ذلك العالم متفوقاً على ما حوله في الحضارة ، حتى كانت حضارتها مما تقتبس ، وكان مبلغ الجودة في الأشياء عند بعض العارفين بالحضارة الإسلامية أنه شيء يعجب اليونان والمسلمين ، وهذه الحضارة هي التي أحبها النورمان وشجعوها وجاء من بعدهم فردريك الثاني وابنه منفريد وسارا على منوالهم <sup>(١)</sup> .

وقد كان فردريك شخصية ذات جوانب متعددة فهو شاعر محب للفلسفة وتربية الحيوانات والتريض والصيد ، وهو مشرّع مستنير يضطهد المارقين ، ويصادق اليهود والمسلمين ، ويحسن لغات عدة ويقول فيه معاصره سالمين :

”لو أنه أحب الله والكنيسة لما كان له إلا أشباه قليلون!“ وقد أصبحت شخصيته في عهد مبكر موضوعاً للأساطير وصورة الدينون عدواً للمسيحية ، حتى جعله دانتى يصلى اللظى في الجحيم مع ملحدى الأبيقوريين ، وهو في القصص الشعبي الألمانى يشبه « المهدي المنتظر » متلبث في الكهوف بين الجبال يرقب اليوم الموعود ليرجع فيعيد الإمبراطورية ويخلص المظلوم . وقد كانت الثقافة الإسلامية ذات أثر فعال في حياته وتتحدث المصادر العربية أن الذى رباه وهو صغير قاضى صقلية وتصفه هذه المصادر بأنه كان فاضلاً محباً للحكمة والمنطق والطب <sup>(١)</sup> .

في بلاط ملوك النورمان ، وفي بلاط فردريك الثانى وابنه منفريد كان الشعراء المسلمون ينشدون قصائدهم إلى جانب شعراء اليونان واللاتين . وليست لدينا الشواهد التى تظهر مقدار الصلة بين هؤلاء الشعراء ولكن كل الذى نعرفه أن مدرسة صقلية تنظم الشعر باللغة الدارجة تكونت في بلاط غليالم الثانى ، وبلغت ذروتها حول فردريك ، الذى كان عارفاً باللسان اللاتينى واللغات الدارجة في

---

(١) انظر ابن سعيد في القسم الرابع من مجموعة الشعر الصقل . والمكتبة الصقلية ص ٤١٩ ، ٥١١ . ويقول فيه المقرئى « وكان هذا الملك عالماً متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات . وبعث إلى الملك الكامل بعدة مسائل مشككة في الهندسة والحكمة والرياضة وعرضها على الشيخ علم الدين الحنفى المعروف بتعاسيف وغيره فكتب جواباً : ( المكتبة ص ٥٢٢ ) وكان يوجه إلى علماء المسلمين أسئلة منها المسائل الصقليات التى أجاب عنها ابن سبعين وفيها أسئلة عن قدم العالم وعن العلم الإلهى والمقولات والنفس . . . إلخ وفي بلاطه احتشد كثير من العلماء ، ومنهم سكوت وترجم له عن العربية كتباً في التنجيم وكتاباً لابن سينا ومنهم تبودور المنجم الأناضولى الذى ترجم له شرح المنطق لابن رشد والمحسبى لبطليموس وكان لديه أيضاً مسلمون عارفون بالبيزرة . وقد أتم ابنه منفريد العمل في هذا الاتجاه وزاره ابن واصل صاحب مفرج الكروب رسولا من الظاهر بيبرس واجتمع به مراراً ووصفه بالتميز بالعلوم العقلية وأنه كان يحفظ عشر مقالات من كتاب أقليدس وصنف له الأندروية في المنطق . وكانت مكتبته تضم كتباً فلسفية ورياضية باللغتين العربية واليونانية ( انظر في الحياة العقائية أيام فردريك وابنه صفحات كثيرة في المكتبة الصقلية وكذلك الفصل الثانى عشر من كتاب Haskins : Med. Science وتاريخ أمارى ٧١١/٣ وما بعدها وكذلك عند Huillard - Bréholles ولم يجد جديد يضاف إلى ما كتب عن الحياة العلمية في بلاط فردريك بعد هؤلاء الباحثين .



إيطاليا وفرنسا، والذي كان يجتذب إلى بلاطه رجالاً ممتازين في العلم والأدب<sup>(١)</sup> ولا شك أنه تم في عصره وتأثير منه تقدم في تركيز الألفاظ والشكل والشعر فقد اجتمع في بلاطه شعراء من عدة جهات لهم لهجاتهم المحلية فتخلوا عن كثير من محليتهم واتخذوا نموذجاً من القول يناسب المقام، ومن المنتظر أنهم فضلوا اللهجة الصقلية على غيرها في نظمهم<sup>(٢)</sup> وصقلوا لهجاتهم وجنبوها الخشونة والشذوذ اللذين فيها<sup>(٣)</sup>.

ولكى نتصور الحال الأدبية لا بد أن نذكر أن النظم حينئذ كان ألية البلاط، كان فردريك وابناه ومستشاره يتابعون هذه الهواية، وكان الكتاب والقضاة والمحامون يخففون عبء الزمن البطيء بالنظم، حتى إن أحدهم تقدم مرة إلى فردريك وأنشده قصيدة فتوجه بأكليل ولقبه «ملك القريض»<sup>(٤)</sup>.

حينئذ كان الأدب باللغة الدارجة قد أخذ ينافس الأدب باللاتينية، ففتح أمام الناس ينابيع جديدة تهيء لهم التمتع بالحياة. وفي بلاط فردريك أخذ الوزن الشعري صورته التي جرى عليها الشعر الإيطالي فيما بعد<sup>(٥)</sup>. وبدأت فيه بوادر القافية وأشكال معينة من الشعر منها Tenzone, Canzone.

ولكن هذا الشعر الذي نشأ في بلاط فردريك تقليدي محافظ ضحل، أولاً لأنه نتاج جماعة أرستقراطية، وثانياً لأنه ترسم مثلاً معينة كان قد جرى عليها شعر بروفانس مدة طويلة فتحجرت. فما كان من هذه المدرسة الصقلية وتقليدا لتلك الأمثلة بلغة جديدة فهو شعر ضعيف البنية في مهده، ولا بد أن يظهر فيه الحبيب المهجور كالأوزة التي تغني أغنيها الأخيرة، وهي تطلع في الغيب على

J. A. Symonds : Renaissance in Italy - Italian Lit. part 2 p. 18. (١)

op. cit. p. 19. (٢)

op. cit. p. 20. (٣)

H. Fisher : The Med. Empire, vol. 2, p. 266. (٤)

Symonds : part 2, p. 20. (٥)

دنو المنية . وشعلة الحب كالذهب المصفى ، وبسمة من الحببية تسوى الجنة ،  
فهي وردة وزنبقة ونجم ومرآة للأثوثة ، وهي تقتل بعينها ، وحبيها يعيش في لظى  
الحب ، ولو استطاع أن يعبد الله كما يعبدونها لدخل الجنة (١) .

ومن العسير الشاق أن نحدد للشعر العربي صلة بهذه المدرسة من ناحية أو  
بالحركة الشعرية عامة في صقلية وجنوبي إيطاليا .

فالشعر الصقلي العربي قليل إذا كانت مشكلة التأثير موضوع البحث ، وليس  
بين أيدينا منه شيء من الموشحات أو الزجل وهي التي أحدثت أثراً في شعراء  
التروبادور بجنوبي فرنسا ، ثم إن الشعر الذي بقي من المدرسة الصقلية قليل  
أيضاً يجعل إثبات المسألة صعباً . ولكن الذي حدث فعلاً هو أن الاتصال  
الحضارى بين المسلمين وغيرهم بصقلية وجنوبي إيطاليا ، ثم تلك النهضة العلمية  
التي كانت في بلاط ملوك النورمان وعند فردريك وابنه ، قد خلقت في الواقع  
جواً من الحيوية هو مجال التأثير . وقد كان أمثال يوجين في عهد غليالم الثانى  
يعرفون اللغة العربية ويترجمون عنها كتباً ليست كلها ذات صبغة فلسفية أو  
رياضية ، فلم لا يكون أمثال يوجين ممن ينظمون الشعر ويشتغلون بالدراسات العربية  
قابليين للتأثر ؟ ورب قائل يقول إن الضعف الذى تمثل به الشعر الصقلي يجعل  
من العبث أن نتخذة أداة للتأثير في غيره ولكن هذا الضعف الذى نراه نحن اليوم  
لا ينبى أن هذا الشعر كان يمثل في عصره اتجاهات معينة .



## مصادر البحث

### ١ - المصادر العربية :

#### ( ١ ) المخطوطة

- ١ - ابن سعيد = على بن موسى  
المغرب في حلى المغرب ، الجزء الثالث والرابع من نسخة مخطوطة رقم ٢٧١٢ بدار الكتب المصرية .
- ٢ - ابن قلاؤس = الأعز نصر الله بن فتوح  
ترسل ابن قلاؤس نسخة رقم ٦١٧ أدب بالمكتبة التيمورية .
- ٣ - ابن مكى = أبو حفص عمر بن خلف الصبلى  
تثقيف اللسان ، مكتبة مراد ملا رقم ١٧٢٥ ومنه صورة ( فيلم ) بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .
- ٤ - أبو الحسن الصبلى = على بن عبد الرحمن البنلوبى ( ابن أبى البشر )  
الجزء من ديوان أنى الحسن الصبلى رواية الفقيه الحريرى بمكتبة الأسكوريال رقم ٤٦٧ ومنه صورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .
- ٥ - أبو إسحاق بن أغلب = مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة .  
نسخة مصورة رقم ٢٢١٦ تاريخ بالمكتبة التيمورية .
- ٦ - البرادعى = أبو سعيد خلف بن أبى القاسم الأزدي  
تهذيب المدونة . نسخة خطية رقم ٤٠٥ فقه مالكى بدار الكتب المصرية
- ٧ - السلفى = أبو طاهر  
معجم السلفى = نسخة مصورة فى مجلدين رقم ٣٩٣٢ تاريخ بدار الكتب المصرية .

- ٨ — الصفدى = صلاح الدين خليل بن أبيك  
 ( أ ) الوافى بالوفيات الجزء الثالث بمكتبة أحمد الثالث رقم 21-2920  
 ومنه صورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .  
 ( ب ) الوافى بالوفيات نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ١٢١٩  
 تاريخ وخاصة الجزء السادس .  
 ( ج ) أعيان العصر وأعوان النصر الجزء الثانى من نسخة مصورة رقم  
 ١٠٩٤ تاريخ بدار الكتب المصرية .
- ٩ — عبد الحق بن محمد بن هارون الصقلى  
 مسائل للشيخ عبد الحق وأجوبتها للإمام الجوينى ضمن مجموعة بخط مغربى  
 دقيق رقم ١١ ش ، فقه مالكى بدار الكتب المصرية .
- ١٠ — العماد الأصفهاني  
 ( أ ) خريدة القصر الجزء الحادى عشر والثانى عشر من نسخة  
 مصورة رقم ٤٢٥٥ بدار الكتب المصرية  
 ( ب ) قطعة من أول الجزء الثانى تحتوى على مختارات من الزهر الباسم  
 لابن قلاقس بمكتبة نور عثمانية رقم ( ٣٧٧٤ ) ومنها صورة  
 بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية
- ١١ — عماد الدين الصقلى — عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله  
 ( أ ) الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار ضمن مجموعة مخطوطة  
 رقم ٢٣ تصوف بدار الكتب المصرية ، ومعه أيضاً  
 ( ب ) كتاب فيه الدلالة على الله تعالى للمؤلف نفسه
- ١٢ — العمرى = ابن فضل الله  
 مسالك الأبصار ، نسخة مصورة رقم ٥٥٩ معارف عامة بدار الكتب  
 المصرية

- ١٣ - عياض القاضى  
ترتيب المدارك ، مجلدان بخط مغربى رقم ٢٢٩٣ تاريخ بدار الكتب  
المصرية .
- ١٤ - القفطى = على بن يوسف  
( ا ) لإنباه الرواة مخطوط فى مجلدين رقم ٢٨٠١ تاريخ بدار الكتب  
المصرية .
- ( ب ) المحمدون من الشعراء ، مصور عن خزانة باريس تحت رقم  
٢٢١٧ تاريخ بدار الكتب المصرية .

( ب ) المطبوعة

- ١ - ابن الأبار = أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعى البلبسى ( توفى  
٦٥٩ هـ )
- التكملة لكتاب الصلة ، جزءان فى مجلد واحد طبع مجرى سنة ١٨٨٩ م
- ٢ - ابن أبى أصيبعة = موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة ( - ٦٦٨ هـ )  
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جزءان طبع الوهية سنة ١٨٨٢ م .
- ٣ - ابن الأثير ( - ٦٣٠ هـ )  
الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزءاً طبع مصر .
- ٤ - ابن بسام الشنترينى ( - ٥٠٣ هـ )  
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٥ - ابن بشكوال = خلف بن عبد الملك بن مسعود الأنصارى ( - ٥٧٨ هـ )  
الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم . طبع  
مجرى سنة ١٨٨٢ م .
- ٦ - ابن البيطار - ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسى المالى

كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية . أربعة أجزاء في مجلدين .  
ط مصر سنة ١٢٩١ هـ .

٧ - ابن جبير الكنتاني البلسي ( - ٦١٤ هـ )

الرحلة ، نشر وتحقيق رايت . ط . ليدن سنة ١٩٠٧ .

٨ - ابن حجر العسقلاني ( - ٨٥٢ هـ )

لسان الميزان في ٨ أجزاء ط . الهند .

٩ - ابن حمديس = أبو محمد عبد الجبار ( - ٥٢٧ هـ )

الديوان ، نشر جلستينو سكياباريلى روما سنة ١٨٩٧ م .

١٠ - ابن حوقل = أبو القاسم أحمد ( القرن الرابع الهجرى )

صورة الأرض = الطبعة الثانية في جزئين - الجزء الأول منها .

١١ - ابن خلدون عبد الرحمن ( - ٨٥٨ هـ )

( أ ) المقدمة ط . بيروت

( ب ) العبر وديوان المبتدأ والخبر سبعة أجزاء ط . بولاق .

١٢ - ابن خلكان القاضى شمس للدين ( - ٦٨١ هـ )

وفيات الأعيان ٣ أجزاء ط . بولاق .

١٣ - ابن رشيق القيروانى = الحسن بن على ( - ٥٦٣ هـ )

العمدة في صناعة الشعر ونقده جزآن في مجلد - ط . الخانجى

١٤ - ابن ظافر الأزدي = أبو الحسن على ( - ٦٢٣ هـ )

بدائع البدائى على هامش معاهد التنصيص في جزئين - ط . مصر سنة

١٣١٦ هـ .

١٥ - ابن عساكر - الحافظ ( - ٥٧١ هـ )

تهذيب التاريخ الكبير - ط . مطبعة روضة الشام .

١٦ - ابن فارس أحمد .

الصاحبي ط . السلفية .

- ١٧ - ابن فرحون - إبراهيم بن علي بن محمد ( - ٧٩٩ هـ )  
الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب - ط . مصر ١٣٢٩ .
- ١٨ - ابن ميسر المصري - محمد بن علي بن يوسف بن شاهنشاه ( - ٤٢٠ هـ )  
أخبار مصر ج ٢ - ط . المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩١٩
- ١٩ - الاضطخري ( القرن الرابع الهجري )  
مسالك الممالك - ط . بريل سنة ١٨٧٠
- ٢٠ - أماري = ميشيل  
( ا ) المكتبة الصقلية ومعها ملحقات  
( ب ) العيد المئوي لميلاد ميشيل أماري  
Centenario della nascita di M. Amari
- ٢١ - الأنطاكي = داود ( - ١٠٠٨ هـ )  
تزيين الأسواق - ط . بولاق سنة ١٢٩١ هـ
- ٢٢ - التجيبي = أبو طاهر ( في القرن الخامس الهجري )  
شرح المختار من شعر بشار . ط لجنة التأليف
- ٢٣ - جویدی = أغناطيوس  
محاضرات بالجامعة المصرية سنة ١٩٠٧ .
- ٢٤ - الخفاجي = شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر ( - ١٠٦٩ هـ )  
طراز المجالس - ط . المطبعة الوهية سنة ١٢٨٤ .
- ٢٥ - الدميري  
حياة الحيوان الكبرى في جزئين - ط . مصر سنة ١٣١٩ .



- ٢٦ - سبط ابن الجوزي = شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قيزا أوغلي .  
مرآة الزمان ج ٨ أخرجه جويت بالزنكوغراف سنة ١٩٠٧ .
- ٢٧ - السبكي = تاج الدين عبد الوهاب ( - ٧٧١ هـ )  
طبقات الشافعية الكبرى - ط . المطبعة الحسينية في سبعة أجزاء ( الطبعة الأولى ) .
- ٢٨ - السمعاني - أبو سعيد عبد الكريم بن أبي بكر ( - ٥٦٢ هـ )  
كتاب الأنساب - طبع حجر بالزنكوغراف ، المخطوطة المحفوظة بمكتبة المتحف البريطاني سنة ١٩١٢ .
- ٢٩ - السيوطي = جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ( - ٩١١ هـ ) .  
بغية الوعاة - ط . الخانجي
- ٣٠ - الشعرائي - عبد الوهاب ( - ٩٧٣ هـ )  
الطبقات الكبرى - ط . العثمانية بمصر سنة ١٣٠٥ هـ
- ٣١ - صاعد الأندلسي = أبو القاسم ( - ٤٦٢ هـ ) .  
طبقات الأمم - ط . الآباء اليسوعيين ببيروت .
- ٣٢ - القزويني - زكريا بن محمد بن محمود ( - ٦٨٢ هـ )  
آثار البلاد وأخبار العباد - ط . ليدن سنة ١٨٤٨ م .
- ٣٣ - القفطي = جمال الدين علي بن يوسف ( - ٦٤٦ هـ )  
أخبار العلماء بأخبار الحكماء - ط الخانجي
- ٣٤ - القلقشندي - شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي ( - ٨٢١ هـ )  
صبح الأعشى في ١٤ جزءاً - ط . الأميرية بالقاهرة
- ٣٥ - الكندي = أبو عمر محمد بن يوسف ( - ٣٥٠ هـ )  
كتاب الولاية والقضاة - نشر ريفون جست ومعه ملاحق من رفع الإصر وغيره . ط . بيروت سنة ١٩٠٨ م
- ٣٦ - المقدسي = شمس الدين أبو عبد الله البشاري ( القرن الرابع الهجري )

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ( ج ٣ في المكتبة الجغرافية ) . ليدن  
سنة ١٨٧٦ م

٣٧ - المقرئ = شهاب الدين أحمد بن محمد ( - ١٠٤١ هـ )  
أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض تحقيق الأستاذ مصطفى السقا  
وآخرين ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر

٣٨ - المقرئ - تقي الدين أحمد بن علي ( - ٨٤٥ هـ )

١ - المواعظ والاعتبار في أربعة أجزاء - ط . مصر سنة ١٣٢٥

٢ - اتعاظ الحنفا تحقيق الدكتور الشيال - ط . دار الفكر العربي

٣٩ - مجهول ( في القرن السادس )

الاستبصار في عجائب الأمصار - نشر كريم - ط . فينا سنة ١٨٥٢ م .

٤٠ - ناصر خسرو - سفرنامه - ترجمة الدكتور يحيى الخشاب . ط . لجنة  
التأليف والترجمة والنشر

٤١ - التيفر = الشيخ محمد : عنوان الأريب عما نشأ بالملكة التونسية من عالم  
أديب ( جزآن ) المطبعة التونسية ١٣٥١ .

٤٢ - النواجي = شمس الدين محمد بن الحسن ( - ٨٥٩ هـ )

حلبة الكميث - ط . بولاق سنة ١٢٧٦ هـ

٤٣ - ياقوت بن عبد الله الحموي - ( ٦٢٦ هـ )

١ - معجم البلدان في ثمانية أجزاء - ط . الخانجي سنة ١٩٠٦ م .

٢ - معجم الأدباء في عشرين جزءاً - ط . دار المأمون .

ملحوظة : يجد القارى إشارات كثيرة إلى مجموعة الشعر الصقلي ، وهي  
مجموعة صنعتها ، أدرجت فيها ما وجدته من شعر الصقليين اعتماداً على ما في  
الحريدة والمتنخل ، وابن سعيد ، وديوان البلنوبي وما ورد في المصادر الأخرى مثل  
إنباه الرواة ، وأسماء المحمدين ، وشرح المختار من شعر بشار وغيرها ( انظر المقدمة  
ففيها تفصيل القول في مصادر الشعر ) ، وقد رتب هذه الأشعار ورقمتها ،  
لتكون مرجعاً ومعرضاً لما بقي من شعر الصقليين ، باستثناء ابن حمديس .

## ٢ - المراجع الإفرنجية :

1. Amari, Michele : a) Storia dei Musulmani di Sicilia, 3 vols. Seconda ediziene, Catania 1933-1939.  
b) le Epigrafi Arabiche di Sicilia, Palermo 1875.  
c) Su le iscrizioni arabiche de Ipalazze Regio di messina (Memoria) 1880-1881.
2. Benjamin of Tudela : The Travels of, in Early Travels in Palestine, ed. by Wright,
3. Bradley : The Goths.
4. Bury : a) History of the Eastern Roman Empire.  
b) Cambridge Medieval History, vols. 2 & 5
5. Curtis, Edmond : Roger of Sicily.
6. Dozy, Reinhart : Supplément Aux Dictionnaires Arabes, 1927
7. Fisher, H. : The Medieval Empire, 2 vols.
8. Freeman, Edward, A. : a) History of Sicily in 4 vols. esp. vol. I, Oxford 1891.  
b) Sicily, Phoenician, Greek and Roman, 3rd edition 1892.  
c) The Normans at Palermo in Historical Essays, 3rd series, 1892.
9. Gregorio, Rosario : Rerum arabicarum quae ad historiam siculam spectant ampla collectio.
10. Gregorovius, F. : History of Rome in the Middle Ages.
11. Haskins, G. Homer : a) Studies in the History of Medieval Science, 2nd edition, 1927.  
b) Studies in Med. Culture, Oxford 1929.  
c) The Renaissance of the 12th century, Cambridge 1928.

12. Hodgkin, Thomas : a) Italy and her invaders 4 vols. Oxford 1892.  
b) Letters of Cassiodorus.
13. Mann, Jacob : The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs, 2 vols. 1920.
14. Martin Edward James: A History of the Iconclastic controversy.
15. Schack : Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien, vol. 2.
16. Scott, S. P. : History of the Moorish Empire in Europe vol. 2, 1904.
17. Symonds, John A. : The Renaissance in Italy — Italian Literature, part I.
18. Waern, Cicilia : Medicaval Sicily, 1910.
19. Williams : Historians' History of the world, vol. 9.

تم طبع هذا الكتاب بدار الثقافة  
ص. ب. ٥٤٣ - بيروت - لبنان

الذكر  
إحسان  
عَبَّاسٍ

العرب  
في  
صقلية